روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي



أرض الأنبياء

Land of Prophets

Dr. Naguib Al Kellany

روايات د. نجيب الكيلاني













دكتور نجيب الكيلانى



رواية

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٣١٤

الترقيم الدولي:

978-977-255-411-9



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



في أغسطس عام ١٩٥٤ ، كنت على موعد مع أمنية غالية حبيبة إلى نفسي طالما حلمت بها ، لم أكن أصدق نفسي وأنا أركب الباخرة «أيونيا» من ثغر الإسكندرية قاصداً فلسطين . . عن طريق قبرص ثم لبنان . . كنت أعتبر مجرد رؤية هذه الأرض الخالدة أروع حلم يتحقق لي . . وليس أروع منه سوى أن تتحرر هذه الأرض السليبة . .

أجل ، كانت فلسطين تشغل قلبي وعقلي ، فقد ارتبط اسمها في مخيلتي بتاريخ رائع جميل . . بالمجد الذي لا يندثر . . بالبطولات العريقة التي تتوهج عبر الزمان مهما امتد وطال . . بالمعجزات التي ترفرفت على ثراها العاطر . . بالنبوات التي حملت مشاعل الهداية والحب والحرية والسلام لبني البشر . . بالصراع الرهيب الذي دارت رحاه بين العرب وذئاب الغدر ، من صليبيين ومغول وتتار على أرضها . . وارتبطت طبيعتها في ذهني بأحلى ما يتخيله عقل فنان . . الزيتون الأخضر على أرضها . . والورود والنخيل

والينابيع . . والمآذن والقباب والمراعى الخضراء . . والرمال الذهبية . . وخلف هذا كله شعب عربى أصيل يتميز بقوة الخلق، وشدة الإيمان، ونبل التسامح . . كانت هذه هى فلسطين فى مخيلتى . . وطنًا . . وتاريخًا . . وشعبًا . . وعقيدة . . وأخيراً استقر بنا المقام فى الأرض المقدسة . .

وفتحت عينيّ على العالم الذى حلمت به طويلاً . . كنت أعانق كل الوجود من حولى . . قطعة الصخر التى أراها تبدو وكأنها ماسة فريدة . . الزرع الأخضر يبدو لى وكأنه روضة من رياض الجنة . . الناس فى الطرقات لم أتصور أنهم بشر . . إما أنبياء أو ملائكة . .

ولم تطل بى أحلامى الوردية . .

ما أقسى أن يستيقظ الإنسان . . من رؤيا جميلة منعشة، ثم يفتح عينيه فلا يرى غير الضياع والظلام والهوان، إن الاصطدام بالواقع المر الأليم قاسٍ غاية القسوة . .

فلسطين التى أعرفها كانت شيئًا آخر . .

واليوم ! ! ماذا أرى؟

شعبًا منزويًا كأنه منبوذ . .

عذارى فى ميعة الصبا يرتدين السواد . .

عيونًا حزينة مبللة بالدموع دائمًا . .

وجوهًا شاحبة تقرأ فيها قصة الموت المرتقب . .

طفولة بائسة يائسة محرومة من الدلال والرغد واللهو البرىء . .

ويندر أن أرى ابتسامة . . وإذا رأيتها فهى مفتعلة مختصرة . .

والأفق يبدو كأنه يعيش فى غروب دائم . .

وفى «القدس» العربية -أعنى نصف المدينة غير المحتل- كان الناس يسيرون فى الشوارع وكأنهم فى مأتم، أجل . . مدينة خاصمت السرور والمرح، تعيش تحت مرمى مدافع العدو بلا سلاح أو قوة . . كقافلة حزينة تركب زوارق هشة فى بحر عاصف .

وفى معسكر «عقبة جبر» -حيث يقيم اللاجئون- وغيره من المعسكرات لم أرَ سوى الصورة القاتمة المكتئبة، وإن كانت أكثر سوادًا، وأعمق شقاءً . .

وقرأت فى عيون الأطفال سؤالاً حاداً : إلى متى نبقى هكذا؟! وعلى وجوه العذارى الفاتنات الشاحبات : ما هو المصير الذى ينتظرنا؟؟

وعلى التلال والوديان والصحراء الممتدة، لكأنى كنت أسمع هذا العويل :

- «متى تنتهى قصة الخراب والضياع والقلق؟» .

وأحسست فى نهاية إحدى جولاتى بالتعب والإرهاق الشديد، كنت جائعًا لكن نفسى عافت الطعام، ووجدتنى أسير حتى بلغت

«المسجد الأقصى» . . وخلعت نعلى، ودلفت إلى المسجد فى خجل . . كان المسجد رطبًا هادئًا . . وكانت أقدامى الملتهبة تلامس أرضه الباردة فأشعر بغير قليل من الراحة . . وعند «قبة الصخرة» التى يقال إن النبى ﷺ قد صعد منها يوم «المعراج» وقفت . . أخذتنى روعة المنظر وجلاله الحزين، وترددت فى أعماقى أبيات من الشعر حفظتها من زمن بعيد :

مررت بالمسجد المحزون أسأله
هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت
على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان فى منارته
إذا تعالى ولا الآذان آذان

وانهمرت دموعى على الرغم منى . .

وأحسست بيد حانية تربت على كتفى، وتلفت فإذا شيخ مهيب فضى اللحية . أبيض الوجه يبتسم فى مواساة ويقول :

- «ما يبكيك يا ولدى؟» .

قلت وأنا أحاول أن أمنع شهقاتى التى توشك أن تحطم ضلوعى :

- «فلسطين . . » .

- «من أى بلد أنت؟».

- «مصر».

كان الشيخ أحد حراس المسجد، وجلس يرفه عنى وعن نفسه فالمصاب واحد، وقال كلامًا كثيرًا، لكن الذى أذكره، هوقوله: إن الصليبيين قد اختطفوا هذه الديار مئات السنين وحكموها وحاولوا تغيير معالمها، لكن النتيجة دائمًا هى أن تعود الأرض فى النهاية لأصحابها.. إننا مؤمنون.. ولن يتزعزع هذا الإيمان.. والمعركة لم تنته.. والعود أحمد..» وتطلعت إلى الشمس الغاربة من خلال نافذة قريبة، وأسرعت بأداة الصلاة الباكية، ثم عدت أدراجى منهمك الروح والجسد إلى مقرى بمدرسة «الرشيد»، حيث كنت أقضى ليلى فيها طوال إقامتى بالقدس.

ورأيت بعد ذلك الحياة فى «عمان» و«دمشق» و«بيروت» و«القاهرة»؛ لكن صورة فلسطين الجريحة كانت دائمًا تفرض نفسها أمام عينى.. وتؤرق يقظتى ومنامى..

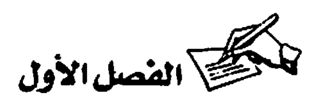
وتطلعت إلى الأرض الطيبة وأنا أغادرها عائدًا إلى ديارى، وقد ترقرقت فى عينى الدموع، ويتردد فى فؤادى قسم بألا أنسى أبدًا فلسطين.. وألا أدخر وسعًا فى سبيل نصرتها بأغلى ما أملك، وفى أى وقت من الأوقات.. وأن أظل أروى قصتها الدامية لأبنائى وسأبقى على العهد ما حييت..

***

وهذه القصة التى بين يدى القارئ إنما هى مجهود متواضع، وبداية بسيطة، أقدمها لشباب الأمة العربية والإسلامية آملاً أن يجدوا بين سطورها عمق المأساة التى أستشعرها، وعظم النكبة التى يحياها إخوان لنا فى العقيدة والوطن والتاريخ، واضعًا يدى فى أيديهم متعاهدين على إعادة الحق إلى أهله.. وإلى اللقاء.

نجيب الكيلانى

●●●



الفصل الأول

مدينة «حيفا» بدت تحت جنح الظلام كابية حزينة، وارتجافات النجوم في سمائها الصافية توحي بالقلق، ودمدمات غامضة تنبعث من البحر الواسع الكبير، لكأن المدينة كائن حي، ولكأن مظهرها يشبه مسافرًا غدًا وعلى ملامحه ترتسم سمات الأسى والحزن والغربة المرتقبة . .

والأشجار الخضراء في شوارع «حيفا» تتمايل في بطء، وكأنها ضرير يرتل آيات القرآن في كسل ووهن، والبيوت تتراص جامدة ساكنة ويتسلل عبر نوافذها أضواء هزيلة، ورجال الدرك قد أضناهم السهر، فداعب النعاس أجفانهم، فوقفوا مترنحين بين اليقظة والمنام، يحلمون بالفراش الوثير ومتعة الراحة . .

أكانت المدينة الخالدة تشعر أنها على أبواب تغير ضخم؟؟

وتحت ستار الظلام كانت تحدث أحداث هائلة!!

الأطفال نائمون تحت أسقف المنازل يبتسمون في وداعة وفراغ بال، ويحلمون بالفاكهة الشهية، والدمى الفاتنة، واللعب على

شاطئ البحر، ويسبحون فى عالم بهيج رائع، والعذارى يهمسن - وهن فى شبه غيبوبة شجية بالأمنيات العذبة، والشباب اليانع، والشيوخ- تحت وطأة السنين واقتراب الأجل وحب الله- يتمتمون بالدعاء، ويضرعون إلى الله أن يهبهم الستر والرضا والجنة.

وفى جانب آخر كان معسكر القوات البريطانية فى حركة دائبة، الجنود يروحون ويجيئون، وذخائر توضع فى العربات الكبيرة، وأشياء كثيرة تنقل من مكان إلى مكان، والطريق إلى البحر مزدحم بالذاهبين والعائدين، ولدى الشاطئ رست قطع عديدة من الأسطول البريطانى، وإلى جوارها سفن أخرى آتية من أماكن مجهولة فى أوربا عليها قوات يهودية.

وفى المعسكر الرئيسى للقوات البريطانية، اجتمع ضباط القيادة، وفى الصدارة كان يجلس القائد الأعلى، وبعد لحظات قصيرة من الصمت، قال القائد:

- «صدرت الأوامر بتنفيذ الخطة...».

ولما لم يعلق أحد بشىء استطرد:

- غداً ستعلن حكومتنا انتهاء الانتداب على فلسطين، لقد أدينا واجبنا، وما علينا إلا أن نسلم الأرض لأهلها.. هذه هى الأوامر.. وأصحاب الأرض ليسوا هم العرب وحدهم فاليهود أصحاب حق هم الآخرون.. وكبرياء العرب تأبى أن تسلم لهم بحقهم.. ولكى ندعم قرار تقسيم فلسطين، ونجعله حقيقة

واقعة كان من الواجب علينا أن نهب اليهود أرضًا يقفون عليها، وسلاحًا يؤكدون به وجودهم . . ولهذا كانت الأوامر صريحة بأن يتسلموا السلاح والمواقع منا ثم ننسحب نحن بأسرع ما يمكن . . مفهوم؟».

وهمس الحاضرون دون انفعال:

- «مفهوم . .».

***

ووثب الشيخ «إسماعيل ريحان» من سريره فجأة، كانت طلقات المدافع تتوالى فى سرعة مجنونة، وتهز أرجاء الحى هزآ عنيفًا، وكانت نذر الصباح تزحف من الأفق الشرقى، ومع هذا فإن المؤذن لم يجلجل صوته كالمعتاد عند وجوب صلاة الفجر، واستطاع الشيخ أن يربط بين تعطيل الشعائر الدينية وإطلاق الرصاص، واستنتج على الفور أن شيئًا خطيرًا يحدث، وأن الصباح سوف يحمل أنباء مثيرة . . ارتعشت لحيته البيضاء، وشحب وجهه الأشقر شحوبًا ظاهرًا، أما قلبه فقد أخذ يدق فى عنف وكأنه قبضة سجين تدق جدار سجنه العتيد، ولم تستطع البسملات والحوقلات أن تذهب عن نفسه القلق، أو تقضى على نوازع الخوف التى انبثقت فى قلبه، فقد كانت طلقات الرصاص فى ازدياد، وأخذ يسمع ضجيجًا متصلاً يختلط بالأزيز المجنون، ولم يكن الشيخ إسماعيل ريحان قد أفاق مما دهمه حينما سمع وقع

أقدام تدق الطريق المرصوف فى تتابع، فاقترب من النافذة ورفع جفنيه الثقيلين، ودقق البصر عبر العتمة التى خالطها ضوء الصباح الوليد، وصرخ من الرعب:

- «ليسوا جنودًا بريطانيين . . ».

وقالت زوجه والنعاس يخالط نبراتها:

- «ماذا تقول يا أبا وليد؟».

- «نجمة إسرائيل . . الوجوه البغيضة . . النظرات الخائنة الحاقدة المتعطشة للدم . . لقد فعلوها . . ».

وهبت الزوجة من سريرها، وقالت وهى تقترب منه:

- «لا أفهم شيئًا من حديثك . . ».

قال وهو يمسك بكتفها ويهزها فى عنف وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- «أيقظى الأولاد يا امرأة . . سوف تغرق المدينة فى بحر من الدماء . . ».

- «أعوذ بالله . . ».

قالتها الزوجة وقد شلها الخوف، فتركها الشيخ إسماعيل، ثم قصد نحو منضدة صغيرة تقبع إلى جوار سريره، وتناول نسخة من المصحف الشريف، وضمها إلى صدره فى لهفة، وقد انسابت الدموع على خديه حتى بللت لحيته الشقراء، وأخذ يتمتم:

- «نسيناك يا إلهى فأنسيتنا أنفسنا . . وشغلتنا الدنيا ثم غدرت بنا، وتصاممنا عن ندائك فسلطت علينا أعداءنا، اللهم لا ملجأ منك إلا إليك . . اللهم لا ملجأ منك إلا إليك . . أتترك أرضنا الطاهرة . . أرض الأنبياء يلوثها الكفرة والمعتدون . . ».

وغاض قلبه عندما سمع دقات عنيفة بالباب، وهتف فى صوت باكٍ جريح :

- «من بالباب؟».

- «أنا خميس درويش يا عم إسماعيل . . ».

وخميس يسكن الدور الثانى بمنزل الشيخ، وهو مدرس شاب بالمدرسة الابتدائية القريبة، وبيد مرتعشة عالج الشيخ الباب حتى فتحه، وقبل أن ينطق بكلمة، قال خميس :

- «الإنجليز سلموا مفاتيح المدينة للعصابات الصهيونية . . لقد دبرت المؤامرة بليل . . من خلال نافذتى رأيت الأحياء العربية تشتعل فيها النيران . . والعصابات المسلحة تنقض على العرب وتغتالهم دون رحمة . . إن بقاءنا هنا معناه الانتحار . . فنحن بلا سلاح وبلا تنظيم وقد أخذونا على غرة . . يجب مغادرة المدينة على الفور . . ».

كانت نظرات الشيخ الزائغة تتأرجح دون هدف، لقد أربكه هول الموقف، وهدته الكارثة، ومع ذلك فقد تبلور الموقف برغم الصورة المهزوزة الشائنة، فالبقاء معناه الموت، والخروج معناه

الفرار والعار، وأمام هذا الموقف المؤلم عاد الشيخ إلى الوراء، إلى الماضى القريب منذ أن كان يرى المأساة تنمو وتنمو، والسرطان الصهيونى يزحف فى خبث والناس نائمون عن الخطر الكامن وراءه، والتمزق والضياع ينهشان فى كيان الأرض الطاهرة، كانوا يتحركون كمخدرين لا تستطيع أقوى الأصوات المنذرة أن تذهب عن عقولهم النوم والجمود.

وصرخ خميس:

فيم صمتك يا سيدى الشيخ؟

الشيخ متلعثمًا:

- «أنا.. أنا!! افعل يا ولدى ما تراه».

- «الرحيل فورًا.. إنه ليس جبنًا..».

- «إنه كارثة على أية حال..».

- «لكننا نحافظ على حياتنا ولنبدأ المعركة خارج حيفا..».

وضياع المدينة خسارة جزئية بسيطة وقطع عليهما الحديث توافد السكان من الأدوار العليا الثالث والرابع وتجمهرهم أمام شقة «الشيخ إسماعيل ريحان»، وقد أخذوا من الذعر كل مأخذ، وخاصة النساء وبعض الأطفال، وصاح شاب فارع يقف فى منتصف السلم:

- «يجب أن نموت هنا.. الموت أرحم من التسليم..».

وانبعث صوت آخر:

- «هذا جنون..».

- «كرامتنا تفرض علينا أن نحارب».

- «بأى شيء؟».

- «بالأيدى.. بالعصى.. بالمدى الصدئة.. هؤلاء المجرمون أجبن مما تتصورون..».

فجاءه الصوت من جديد:

- «لكن هؤلاء الجبناء يا عزيزى مسلحون بأحدث الأسلحة.. لكم يعز علينا أن نترك أرضنا وديارنا.. «حيفا» جزء منا.. من وجودنا وأحلامنا.. قطعة من فلسطين العزيزة.. لكن «حيفا» ليست الميدان الوحيد.. سيكون كل شبر فى فلسطين ميدانًا رهيبًا. سنترك «حيفا» وهى أعز علينا من روحنا.. سوف نتركها أيها الإخوان لنعود إليها».

لكن «ميمون» وهو الشاب المتحمس، لم يعجبه هذا الكلام، ووثب من فوق السلم، وشق الصفوف، حاملاً فى يده خنجرًا لامعًا، وفى لحظات كان فى عرض الشارع، فوجد ثلاثة من الجنود الصهيونيين يسيرون فى حذر وتوجس، فصرخ بهم وهو يلوّح بخنجره:

- «إلىّ أيها الأنجاس».

ورمقته العيون الدامعة من خلال الباب نصف المفتوح، ودوت في الصمت الرهيب ثلاث رصاصات، ارتمى «ميمون» على أثرها مكتومًا تنزف جراحه دمًا قانيًا، ويبصق فمه الحقد والأنين. . وأغلقوا الباب، وانبعث نشيج عالٍ، وصرخت امرأة:

«ولدي حبيبي. . لماذا فعلت ذلك؟؟».

وأمسك خميس شاهين بيد الشيخ، وقبض عليها بيد متشنجة، وقال وقد تفجرت الدموع من عينيه:

- «هكذا يموت الناس ببساطة وبلا ثمن».

وسمعوا صفارات متلاحقة، وهمس خميس وهو يجفف دموعه:

«اليهود الثلاثة يطلبون النجدة. . وفي دقائق سوف يمتلئ الشارع بعشرات من جنود العصابات المسلحين. . يجب أن نسرع قبل فوات الأوان. . إن باب المنزل الخلفي يؤدي إلى شارع ضيق، وفي نهاية الشارع توجد بيارة «شعيب بيل»، ولسوف نستتر في أشجارها، ونمضي في شعاب الصحراء متجنبين الطريق الرئيسي، لأنه لا شك تحرسه القناصة والأوكار اليهودية. . هيا. . لا تضيعوا الوقت. .».

***

جمع الشيخ إسماعيل ريحان أفراد أسرته، «وليد» في الخامسة من عمره، «وضحى» في السابعة عشرة، وخادمة عجوز تربو على

الخمسين وزوجه، وأخذ معه بعض المال والجواهر والمصحف الذى يعتز به، وكان خميس شاهين أثناء ذلك فى حركة دائبة يحمل الأطفال، ويقود السيدات والفتيان والعجائز إلى الطريق الخلفى وإلى بيارة «شعيب بك»، وبعد أن انتهت مهمته حاول أن يلقى نظرة أخيرة على البيت الذى عاش فيه طفولته وصباه، إنه ليس بيته . . بل بيت الشيخ إسماعيل، ومع ذلك فهو يشعر الآن وكأنه صاحب البيت، ودمعت عيناه وهو يتجه صوب الباب الخلفى تاركًا خلفه عديدًا من الذكريات والآمال، وما إن أغلق الباب حتى تناهى إلى سمعه نحيب باكٍ حزين:

- «ميمون، ميمون يا حبيبى . . ألا تسمع أمك؟ قتلوك يا ولدى . . ».

فتذكر أنه لم يرَ أم «ميمون» ولا إخوته وأباه مع القافلة الراحلة إلى البيارة، فهمّ بفتح الباب واستدعاهم؛ لكنه وقف جامدًا وقد صدم سمعه صوت الطلقات، وبحركة لا شعورية فتح الباب الخلفى، ومن خلال الباب الرئيسى رأى الأحذية الغليظة تدق الأرض، ورأى أعقاب الغدرات والسلاح الأبيض تعمل عملها فى أسرة «ميمون» الأم والأب والأطفال وجثة ميمون الشهيد . . وصرخات كصرخات الذئاب الجائعة تعلو على الطلقات، وأمام المشهد البشع أعاد خميس إغلاق الباب، وسار كالمسحور لا يكاد يعى أو يسمع شيئًا، متجهمًا بلا إرادة إلى بيارة «شعيب بك»؛ ليلحق بالركب الضائع الكئيب وليواصلوا الرحلة التعسة إلى حيث لا يعرفون.

الفصل الثانى

ومع الصباح فاحت رائحة الغدر، وتطاول الأقزام، واستأسد الذئاب، لم يكن الأمر مفاجأة، فإن قرار تقسيم فلسطين معروف من مدة، لكن الجديد هو ذلك العنف الصهيونى، فعصابات «شترن» و«أرجون» فى سباق وحشى رهيب، لا مانع من أن يقتلوا ليحيوا الأمل القديم، وليرتلوا اللحن التائه، «افرحى يا أم إسرائيل»، وليتغنوا بأنشودتهم: «على أنهار بابل قد جلسنا».

ودخل «ميجور» صهيونى بيتًا عربياً والمدفع فى يده يتبعه شرذمة من أتباعه الجنود، والتقت بهم لدى الباب عذراء فى التاسعة عشرة من عمرها.. فسمرت فى مكانها. لكن الميجور انقض عليها، وفى لحظات كان قد شق قميص نومها بمدية تركت خدشًا صغيراً أسفل العنق، ونظرت الفتاة إلى نفسها فوجدت صدرها مكشوفًا على صورة تجرح الحياء.. ولما همت بستره صرخ فيها الميجور المخمور:

- «كما أنت لا تفعلى شيئًا.. إنها لوحة فنية رائعة».

«أنتم العرب لا تقدرون الفن!».

ازداد شحوب وجهها، وتدلّت ذراعاها المرتعشتان في رعب، بينما تمتم الميجور يشير إلى صدرها بسلاحه:

- «وهذه الثمار اليانعة لم يمسحها أحد.. لن نستولى على الأرض والمبانى وحدها، بل هذه الكنوز هى الأخرى من حقنا».

ثم التفت إلى أتباعه مستطردًا:

- «ألا توافقوننى يا رفاق؟ وأنت أيها الجاويش «ليفى».. ألست معى؟! فضجت الصالة بضحكاتهم الثملى، لكنهم توقفوا عن الضحك فجأة عندما انقذف أمامهم رجل فى الثلاثين من عمره وفى يده بندقيته المصوبة نحوهم وهتف:

- «كرامتنا أغلى من الحياة أيها الجبناء.. لن تفترسوا نجلاء، ودوت طلقات، فسقط الميجور على الفور قتيلاً، لكنه لم يسقط وحده؛ فقد تم تبادل الطلقات، وخر الرجل العربى شهيدًا بعد لحظات، وصرخت الفتاة صرخة يائسة، ورمت بنفسها فوق جثة شقيقها، وأخذت تهذى بكلمات غير واضحة، لا يفهم منها غير مرارة الأسى، وعمق اللوعة، كانت تتشبث به وتقبل دمه وجرحه النزف، وتحتضن رأسه، وتلثم قدميه، وتهتف به دون أن يجيب، ثم رفعت رأسها ونادت:

-«أبى، أمى.. أخواتى.. تعالوا انظروا لقد قتلوه».

وانتزعتها يد غليظة حاقدة وقذفت بها إلى ركن من أركان الصالة، فوجدت نفسها إلى جوار جثة الميجور الصريع، فانقضت

عليه تنشب أظافرها فيها، فاتجه صوبها أحد الجنود يريد قتلها، فمنعه الجاويش «ليفى» من ذلك، وهو يقول فى خبث:

- «انتظر.. لا تفعل شيئًا دون أوامر، انتهى الميجور».

وأطلت على الصالة من باب جانبى خمسة رءوس: الزوج والزوجة وفتاة تصغر أختها بعامين وطفل فى السابعة وشاب فى الثالثة والعشرين، قال الشيخ وهو يصر على أسنانه:

- أعرف أنكم قتلتموه.. له الله.. إذن دعونا نرحل عن هنا إننا نترك لكم دارنا ومتاعنا لنرحل»:

قال الجاويش الإسرائيلى:

- «حسن.. نحن لسنا هواة قتل وسحل، نحن بشر، ولولا أن ابنك قتل لما قتلناه.. لكن شرط واحد».

كان الدمع يغمر عينى الشيخ، وكانت صورة الجاويش تبدو موشحة بالضباب والغموض، كل الصور والمرئيات تهتز أمامه حتى جثة ابنه الشهيد، لكن كانت هناك بقية من عقل، لم يكن يفكر فى شيء سوى أن يحمى أسرته الصغيرة، ويفلت بهم من المخالب الحمراء المتوحشة التى لا ترحم، ولهذا كظم أحزانه، وحول عينيه عن جثة الشهيد وهمس:

- «ماذا تطلبون؟».

- «المال والجواهر».

كان الشيخ يخفى شيئًا منهما يسد به حاجته فى أثناء الرحلة المجهولة المرتقبة، لكن أسرته الآن أعظم من المال والجواهر، بل أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه، وهو الآن على استعداد لأن يهب ما بقى من عمره ليفتحوا الطريق أمام أهله فينجوا من هذا الشقاء، من هذا الكمين الوحشى، ونظر إلى الوجوه المحتقنة وإلى الأيدى الآثمة التى تصوب نحوهم المدافع، وتردد فى داخله نداء صاخب ناقم: «ألا ما أحقر الإنسان!».

وصرخ الجاويش فى صبر نافذ:

- «ماذا قلت؟؟ إن «ليفى» لا يستطيع الصبر طويلا» .

وهز الشيخ رأسه فى انكسار دامٍ وقال:

- «سمعًا وطاعة».

وأخرج الشيخ من جبينه بعض المال والجواهر، ثم امتدت يده إلى أذنى زوجه وعنقها تنتزع أقراطها وعقدها ثم الأساور التى فى معصميها، وفعل بابنتيه ما فعله بأمهما، وقدم كل شىء للجاويش وهو يتمتم.

- «كل ما نملك . . أقسم على ذلك».

تناولها الجاويش منه . . ثم دسها فى جيبه، ثم تمتم:

- «إن قتل ميجور إسرائيلى ليس بالشىء الهين . . أيها السفاحون».

قال الشيخ مرتجفًا:

- « إن ما حدث كان على الرغم منا . . ثم إن ابنى مات» .

قال الجاويش:

- «حسنًا . . وجوهكم للحائط . . وأيديكم إلى أعلى» .

قال الشيخ فى حيرة:

- «لماذا»؟؟

- «سوف نرحل، ونغلق خلفنا الباب . . وبعد ربع ساعة تستطيعون أن تهربوا» .

أشاحوا بوجوههم، ورفعوا الأيدى إلى أعلى، وفعل الطفل الصغير ما فعله أبوه وأمه وشقيقه وشقيقته، ثم انفتحت فوهات المدافع لتقذف النيران على الظهور المكشوفة، وصرخت الابنة الكبرى، واندفعت نحو شرذمة الجنود كالمجنونة .

وقال القائد فى قسوة:

- «قيدوها بالحبال ولا تقتلوها . . من الوحشية أن تقتل هذه التحفة الفنية الرائعة . . أن نلوث هذا الجمال الباهر بالدم .

سوف نأخذها معنا إلى المعسكر» .

ثم نظر إلى الميجور القتيل قائلاً:

- «واحد يساوى ستة . . إنها صفقة رابحة على أية حال . . لكم

يعز علينا أن يضيع ميجور مثله، لكننا سنعلم العرب درسًا جديدًا في الحساب، معناه أن واحدًا منا يساوى ستة، بل يساوى عشرة منهم.. هيا يا رفاق».

قاومت نجلاء، صرخت وبكت، وبصقت على وجوههم استنجدت بالجيران والمارة، ورفعت وجهها إلى عربة إنجليزية تمرق بالشارع متوسلة، لكن دون جدوى، كانت تفعل كل ذلك بلا تفكير، وبدا عليها أنها قد فقدت عقلها، لم تتصور أن ما حدث فى تلك الدقائق القليلة قد حدث فعلاً، إنه مجرد رؤيا رهيبة بشعة، أو كابوس مخيف، سرعان ما يختفى كل شيء عندما يذهب عنها النوم، وتذوب هذه الأحلام المرعبة تحت ضوء الشمس الدافق، لا يمكن أن تمحى أسرتها من الوجود، مستحيل أن يموت أبوها وأمها وإخوتها، وهل يعقل ألا ينجدها الأقارب والجيران؟ أتتصور أن يفعل اليهود كل هذا؟ لا شك أنها محمومة تهذى، أو نائمة تحلم.. ليس هذا وجه مدينتها المحبوبة «حيفا»، وليست هذه شوارعها وأشجارها وبيوتها وسماءها، إن كل شيء مصطبغ بلون الدم.. كل شيء أحمر مذهل، ورمت «نجلاء» بنظراتها الشاردة هنا وهناك.. عربات كثيرة وفيها مدافع وجنود، وبعض من تعرفهم من العرب سكان «حيفا» يحشرون فى عربات كبيرة للشحن أو عربات لنقل الكلاب، الوجوه الحمراء تزحم الطريق، والعيون الزرقاء مسددة كالسهام فى كل اتجاه، وجو الرعب الأكبر ينشر جناحه الأحمر على المدينة لا.. لا، ليست هذه حيفا.. إنها

مكان آخر فى الجحيم . . ورأت نجلاء بعض القتلى فى الشارع وعلى جانبى الطريق فوق الأرصفة، وصرخت من جديد «أبى» «أخى» «أمى» ها هم يرقدون، دعونى أذهب إليهم . . ثم انفجرت ضاحكة، ونظر إليها الجاويش «ليفى» وهو يعبث بشاربه قائلاً :

- أجل . . يجب أن تضحكى . . كونى عاقلة . . ليس فى هذه الحياة ما يحزن، ثم لا تنسى أن فتاة لطيفة مثلك من اللازم أن تكون رقيقة مهذبة، لكم يضايقنى أن تشل هذه الحبال حركتك الرشيقة» .

***

ومن بين الجثث الراقدة فى الساحة الحمراء ببيت «نجلاء» تحركت واحدة، إن أباها لم يمت، لم تكن إصابته قاتلة، رفع الرجل رأسه وتلفت حواليه فاصطدمت عيناه الكليلتان بالمجزرة الرهيبة، ومد يده إلى زوجه يهزها ويهتف بصوت جريح :

- «زوجـــتى . . ردى علىّ . . لماذا لا تنطقين؟ . . وأنت يا صغيرى الحبيب يا ابن السابعة يا زهرتى الغضة . . قتلوك أنت الآخر . . هذا شنيع يا إله السماوات والأرض . . وأنت؟ وأنت؟ وأنت؟ لا أحد يرد؟؟ كلكم موتى؟؟ كل شىء انتهى؟؟ أهكذا فى لحظات؟ تموتون دفعة واحدة فلم تطبق السماء على الأرض، ولا تثور الزلازل، ولا يطفو البحر الكبير فيغرق العالم . . لستم شيئًا هينًا يا أعزائى أنتم الحياة . . أنتم الحياة» .

وانفجر باكيًا كما لم يبكِ فى حياته قط .

وبقى هكذا مدة لا يدرى أطالت أم قصرت، لكن يداً مستعجلة لامست كتفه وأخذت تشده فى رفق، وتدفعه بهوادة كى يخرج من البـيت، ويلحق بركب المهـاجـرين إلى دروب الصــحــراء، لأن الصحراء ستكون أحن عليهم من «حيفا» التى غزاها الأبالسة.

ooo

الفصل الثالث

أنماط متباينة من المجندين الصهيونيين اجتمعوا فى «حيفا»، كان عليهم أن يلتقوا بقائد المنطقة ليحدثهم حديثًا لابد منه، ولم يكن كل ما يقوله لهم مجهولاً لديهم، بل هو من قبيل التذكير، وخاصة أنهم على أبواب المعركة الفاصلة، وكان من بين المؤتمرين صهاينة من شتى أنحاء العالم، فيهم الأمريكى والإنجليزى والألمانى والروسى والفرنسى وغيرهم، لقد جاءوا جميعًا يلهثون وراء الأحلام الوردية التى نمقتها لهم الدعاية الإسرائيلية، وهى تحدثهم عن الوطن السليب والجنة الموعودة، والكنوز المدفونة، هناك فى أرض فلسطين، وحياة الرغد والنعيم التى سيرفلون تحت ظلالها . . واعتلى القائد منصته، وحيّى الموجودين، وشكر الظروف السعيدة التى جمعته بهم، وأثنى على ما أحرزوه من نصر وهم «يطهرون» حيفا من «المتمردين» العرب، ثم قال:

- «إننا نشكر الرب على أن احتللنا حيفا، كما نشكر القوات الإنجليزية التى سهلت لنا هذه المهمة بطريقة أذهلت العدو وأوقعته فى حيرة وضياع، فلم يستطع سوى أن يفر بجلده، ومن أبدى منهم

أدنى مقاومة سحقتموه سحقًا عنيفًا . . ولسوف يذكر التاريخ لكم أنكم كنتم الطليعة التى حققت حلم إسرائيل واستولت على أول بلد عربية .

أيها الرفاق . . على الرغم من أنى أعرف عقيدتكم الراسخة، وإيمانكم بالمعركة التى نخوضها، إلا أنى أود أن أذكركم بمأساتنا نحن اليهود . . نحن - أيها الرفاق - أصحاب دين أسمى من كل الأديان ! ! ومع ذلك عشنا مئات السنين مشردين مضطهدين . . اضطهدتنا الكنيسة ، واضطهدنا المسلمون ، كلكم يذكر ما فعله بنا هتلر ، وكيف صادر أموالنا ، وأزهق أرواحنا . . وكلكم يعرف ما قاسيناه فى روسيا . . بالاختصار كنا شعبًا مكروهًا مظلومًا ، وبلا أرض ، وعقيدة بلا أرض لا معنى لها ولا تأثير . . وفلسطين أرضنا . . يجب أن تؤمنوا بذلك . . صحيح أنها أرض عربية ، وأن غالبية سكانها عرب . . والعرب فى شمالها وجنوبها ، وشرقها وغربها ولكن ما المانع فى أن تكون لنا؟ . . ألم تنشأ فيها عقيدة إسرائيل منذ فجر التاريخ ، ويرتل على أرضها «العهد القديم»؟

هذه حجج يظنها العرب واهية مفتعلة كاذبة . . هذا لا يهم . . يكفى أننا اليوم نملك المال ، والسلاح ، والدهاء ، والتأييد العالمى . . إننا أصحاب نفوذ فعلى ، ذهبنا يؤثر فى الاقتصاد الأمريكى ، ويؤثر أيضًا فى الانتخابات والسياسة العالمية . . فالعالم إذن فى حاجة إلينا ولن يتخلى عنا . . وتأييد الغرب لنا واضح وأكيد . . إن قضية العرب ضعيفة خاسرة ؛ لأنهم ممزقون وضعفاء ، وقضيتنا منتصرة

قوية؛ لأننا أقوياء، ولأن من يساندنا أقوى الجميع. . أقول هذا الكلام لأوضح لكم أن حجتكم ميسورة، وتحقيق حلم آبائكم القديم لا شك فيه.

أيها الرفاق . .

لقد أعلنت علينا الحرب سبع دول عربية. . فلا تفزعوا ولا ترتعدوا. . لأن شرق الأردن دولة عربية شكلاً، وإنجليزية فى حقيقتها من حيث السياسة والحكم وقيادة الجيش. . وفى العراق أسرة مالكة لا تؤمن بالله أكثر من إيمانها بالإنجليز. . والسعودية واليمن دولتان متأخرتان تعيشان فى القرون الوسطى وليس لهما جنود، ولبنان وسوريا دولتان صغيرتان لديهما من المشكلات الداخلية ما يستنفد طاقاتهما وقواهما، وإن كانت سوريا عنيدة ومتشبثة بعروبتها فى حماسة فائقة. . فلم يبقَ إذن سوى مصر. . وهذه البلد هى التى ستحمل العبء الأكبر فى النضال ضدنا. . إن إمكانيات شعبها هائلة، ونعرتهم الوطنية والقومية ستورثنا المتاعب. . فقد تدفق متطوعوها بالآلاف قبل إعلان الحرب الرسمية، وبعض ضباط الجيش استقالوا ودخلوا فلسطين ضمن المتطوعين مع مصر ستكون المعركة الحقيقية، لكنى أبادر وأطمئنكم بعض الشىء من جهة مصر. . ففيها ملك داعر، لا يفكر إلا فى ملذاته وأمجاده الشخصية. . وفيها طبقة من الباشوات تستغل وتطغى وتسير دفة الأمور لصالحها، وفيها أكثر من ثمانين ألفًا من الجنود الإنجليز فى قاعدة القنال، ولن يستطيعوا الحصول على

السلاح إلا من هؤلاء الإنجليز . والإنجليز معنا . . من هنا يتضح لنا جميعًا أن النصر لنا ؛ لأن المسألة يا رفاق ليست حقاً بقدر ما هى استعداد بالمال والسلاح والتدبير وشراء التأييد العالمى . . ثم لا تنسوا أن قيام إسرائيل فى هذه المنطقة تثبيت لقدم الغرب فيها ، وانتصار لسياسته ، وضمان لمصالحه وبتروله فى العراق والجزيرة العربية .

أيها الرفاق :

إن حربنا إذن يجب أن تكون سريعة وحاسمة . . إن كارثة فلسطين قد تجمع العرب ، ونحن نريد أن نقطع عليهم خطة الرجعة . . الحرب يا رفاق لا تعرف الرحمة .

يجب أن تبيدوا الشعب الفلسطينى العربى ، كلما وجدتم إلى ذلك سبيلاً ؛ حتى لا تقوم لهم قائمة ، وحتى تلقنوهم درسًا قاسيًا . . لقد أسعدتنى تلك المذابح التى أقمتموها فى «حيفا» اليوم ، فإن الطفل الذى تتركونه اليوم قد يشهر فى وجهنا السلاح غدًا ، والمرأة التى تفلت منكم ، قد تضع مولودًا بطلاً فى المستقبل . يجب أن نسلك أبشع السبل حتى نحقق حلمنا القديم الذى داعب أفكارنا منذ مئات السنين ، والذى شغل أذهان أجدادنا المشردين منذ التاريخ القديم ، وإذا لم نحقق أهدافنا فى هذه الحقبة من الزمن ، فسنفقدها إلى الأبد وستحق علينا لعنة الأجيال القادمة ، ولن تتكرر هذه الفرصة الذهبية أيها الرفاق . . وبقليل من الجد والصبر

والمغامرة والتضحيات تصبح إسرائيل حقيقة واقعة. عندئذ نملك جنات كنعان وغابات الزيتون واللارنج والخوخ والتفاح والأرض الخصبة وكنوزها الدفينة، ونصبح بذلك أغنى شعب فى العالم.. والمال هو كل شيء، إنه كلمة السر التى تفتح القلوب المغلقة، وتفتح أمامنا أبواب الممالك المجاورة حتى تمتد دولتنا الوليدة من الفرات شرقًا إلى النيل غربًا، وترفرف أعلامنا ذات النجمة السداسية فوق قصور الخلفاء وقباب المساجد، ومقاصير «ألف ليلة وليلة».

فإلى المعركة.. إلى النصر.. إلى الأمام. وضجت القاعة بالهتاف والتصفيق..



الفصل الرابع

قافلة الضائعين تنحدر عبر الصحراء نحو الجنوب، إنها تسير فى سرب طويل متناثر، جموع من النساء والرجال والأطفال يتعثرون فى الطرق الجانبية الموحشة غير المطروقة، متجنبين الطريق الساحلى المرصوف؛ حتى يأمنوا على أنفسهم من غدرات العصابات الصهيونية، والرمال والتلال تمتد إلى بعيد، مكفهرة السحنة، والشمس تتوسط السماء وترسل أشعة حارقة، والنظرات الكابية الحزينة تجوب الصحراء المترامية، باحثة عن شجرة تتفيأ ظلالها، فلا تعثر لها على أثر؛ ليس فى الطريق غير العوسج والصبار والنباتات الجافة القميئة المسلحة بالشوك، والطريق طويل محفوف بالموت والعذاب. وضمن القافلة كان يرى الشيخ إسماعيل ريحان وأسرته ضحى ووليد والأم والخادمة، وخميس شاهين وبقية أهله وأما أبو نجلاء الجريح فقد أركبوه حمارًا، فامتطاه الرجل ومضى مترنحًا ذاهل النظرات لا يكاد يرى أو يسمع شيئًا مما حوله، ولم يكن للقافلة المجهدة من حديث سوى ما ارتكبه اليهود فى حيفا من جرائم تقشعر لهولها الأبدان، ونادرًا ما توجد أسرة بلا مأساة، بل

إن أسراً بأكملها قد تم القضاء عليها، وكانت الحكايات البشعة تروى وكأنها أساطير جرت أحداثها فى غابة وحوش، لكن أفراد القافلة كانوا يلوكونها ويرددونها فى بساطة دون أن يبدو عليهم أو على سامعيهم سمات الدهشة، كانت هذه الفظاعات لكثرتها ولأنهم رأوها رأى العين، ولأن أغلبهم لم يفلت من شواظها -كانت تبدو أحداثًا عادية ممكنة الحدوث. فإذا قال أحدهم: إن عسكريًا صهيونيّاً قد بقر بطن جارتهم الحبلى ليتسلى بمنظر الجنين فى شهره السابع، أطرق السامعون والسامعات برءوسهم فى حسرة وقال واحد منهم؛ «لكنها حدثت لزوجتى.. ولابنه عمتها ولفلانة وفلانة.. إنها ظاهرة عامة فى تصرفاتهم، بل يبدو أنها خطة عسكرية مرسومة، وإلا فما معنى تكرارها؟ أو يستطيع أحدكم أن يفعلها فى قطة حبلى أو شاة على وشك الوضع؟؟ ليس الذين فعلوا ذلك ببشر!! الحقد والأنانية والغدر فى كل إنسان!! ولهذا فإننا يجب أن نهرب من هذه الدروب المتربة القاحلة بأطفالنا ونسائنا، ثم نترك هؤلاء المساكين فى أماكن أمينة على الحدود أو فى أى بلد عربى، ثم نعود من نفس الطريق نحمل الموت والسلاح لنخلص هذه الأرض الطاهرة أرض الحب والأنبياء.

فإذا قال مهاجر آخر: تصوروا أن فتاة يهودية مسلحة قتلت فتى أعزل، ثم استخرجت كبده وأخذت تلوكها فى حقد وهى تقول: قتلتم أبى من شهرين؟؟» رد عليه مهاجر يجاوره قائلاً: «أيها الأخ صدقنى، لقد مللت حديث الدم والقسوة، وماذا تنتظرون من

شرذمة تغذت بالحقد والنقمة على الآخرين؟؟ القلب اليهودى دائمًا أسود النزعات والأمنيات، عاشوا طويلاً منطوين على أنفسهم يحقدون على الإنسان يستغلون ويرابون ويجمعون المال من أى طريق، ويعيشون بالعصبية العمياء، ويقتاتون بالكراهية والغيظ.. وهذه هى جولتهم الأخيرة، ومن ثم فهم يقذفون فى المعركة بكل ما يملكون من أحقاد وسلاح ورجال.. أنا لا أعتب على اليهود، ولكن أعتب على جماهيرنا التى استعذبت النوم، واستراحت للكسل، وخدعها الكبرياء!! ماذا كنا نفعل عندما كانوا هم يعدون العدة، ويعبئون الشعور العالمى، ويبنون المستعمرات والحصون؟؟ وكيف سمحنا لأنفسنا أن نبيع لهم ضياعنا وبساتيننا بالأثمان الباهظة التى أغرونا بها؟؟ كنا نضحك منهم فى سخرية وكبرياء عندما كانوا يطالبون بوطن قومى لهم فى فلسطين، وكنا نقول سوف نقذف بهم إلى البحر، وها أنتم ترون أيها الإخوان أنهم قذفوا بنا فى بطون الصحراء الحارقة، ومثلوا بشهدائنا أشنع تمثيل.. أقول لكم الحق؟؟ لا ذنب على اليهود أو الإنجليز، وإنما الذنب على رءوسنا نحن الذين تراخينا وتمزقنا، وأسلمنا مقاليد أمتنا العربية لحفنة من العابثين والطامعين.. لكن ستكون نكبتنا أيها الإخوان هى الناقوس الذى سيدق ويدق حتى يستيقظ العرب».

ويعود الصمت من جديد، وتمضى القافلة التعسة فى طريقها الشائك المترب يلفحها هجير الشمس، تبحث عن ظل فلا تجده وتتلفت حواليها فلا ترى سوى الضياع ونذر الخطر، والمستقبل

الغامض المخيف، وتعود بهم الذاكرة إلى مدينتهم الخالدة المكتئبة «حيفا، فلا يرون بعين الخيال سوى ساحات الموت، والدم الأحمر البرىء يلطخ الطريق، ويلون الجدران، وأشلاء الضحايا مبعثرة هنا وهناك، دون أن تجد من يتكرم عليها فيواريها التراب.

وتنهد الشيخ ريحان وربت على رأس صغيره وليد وقال:

- «ما يبكيك يا صغيرى الحبيب؟».

قال الصغير فى حنق:

- «التراب الساخن يشوى قدمى.. لكأنى أسير على الجمر..».

- «صبرًا.. صبرًا.. حالاً سنصل:..».

- «إلى أين نسير يا أبى؟؟ ولماذا تركنا بيتنا الجميل حيث الظل والهواء الرطب، والماء البارد، وشجرة الزيتون الوارفة فى الفناء وبيارة «شعيب بك» المليئة بالفاكهة؟؟ إن هذا الطريق سيئ.. ويجب أن نرجع إلى «حيفا»..».

ويتمتم الشيخ ريحان:

- «أجل.. يجب أن نعود إلى حيفا يا وليد..».

ويرد وليد وهو ينزع يده من أبيه فى حنق:

«لكن متى نعود؟؟».

- «غدًا..».

- «بل الآن . . » .

وتوقف وليد عن المشى، وضرب الأرض بقدميه، ثم رفع رأسه إلى أبيه الشيخ، وقال فى نبرة إصرار صبيانى ساذج :

«لن أتقدم خطوة واحدة . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «نعود إلى حيفا» .

- «قلت لك سنعود غداً . . » .

- «لن أشرب أو آكل إلا إذا رجعنا إليها . . » .

وتطلعت العيون المحتقنة التى حرقها البكاء والهجير والعذاب إلى وليد الصغير، إلى النبتة الغضة التى لم تلامسها أنامل العابثين أو يلوثها الشيطان بعد، وطن فى رءوسهم المتعبة المصدعة تحت وهج الشمس سؤال واحد: «إلى أين نسير؟؟» وكم كانت دهشة الشيخ ريحان، عندما تناهى إلى سمعه ثلاثة أو أربعة يتساءلون فى الوقت نفسه : «إلى أين نسير يا شيخ ريحان؟؟ . » وجاءه صوت الرجل الجريح فوق حماره أبى نجلاء وهو يصرخ كالمجنون. «إلى أين نسير يا شيخ ريحان؟؟»، كان السؤال القاسى المرير ينبعث من كل جهة وكأنه سهام ترشق قلبه الحزين، وبقى الشيخ فى مكانه حائراً مضطرباً، ينظر إلى طفله «وليد» الواقف فى عناد ، وينظر إلى العيون المتقدة الحانقة . وينظر إلى الشيخ الجريح أبى نجلاء وقد

تدلى فكه الأسفل فى بلاهة. وعند ذاك ألهمه الله كلمات ارتاح لها قلبه، ولهذا هتف بالمحتشدين حوله قائلاً:

- «لماذا هاجر محمد ﷺ من مكة إلى المدينة؟؟ كلكم يعرف لماذا هاجر، فى المدينة وجد العون والآذان الصاغية والأرض الطيبة لبذور دعوته الجديدة، ومن هناك خرج لينشر النور، وليحرر العبيد، وليطهر مكة التى هجرها من أبالسة الشرك والطغيان... والكبرياء الفارغة.. سيروا فى طريقكم أيها الإخوان.. حتى الجنوب سنلتقى بجيوش الخلاص الزاحفة إلى الشمال لترد الحق إلى نصابه، وتأثر للضحايا والمظلومين، وتعيد «حيفا» وفلسطين كلها لأصحابها الشرعيين، وتقضى على التعصب الصهيونى الأعمى.. وسننخرط- شيوخًا وشبابًا- فى سلك جيش المؤمنين بالله وبحق الحياة الحرة.. هيا أيها الإخوان وامضوا فى طريقكم..».

وجاء صوت «وليد» الذى يشبه إلى حد كبير مواء القطة:

- «لن أسير..».

لكن شقيقته «ضحى» أسرعت وحملته على الرغم منه، وهو يحاول جاهدًا أن يخلص نفسه من بين ذراعيها دون جدوى، وأقبل خميس شاهين باسمًا، ونظر إلى «ضحى» فى حنان ومودة يخالطهما الأسى، وهمس فى خجل:

- «دعيه لى.. أنا أقدر على حمل «وليد» منك..».

ومانعت قليلا، لكن «وليد» حسم الموقف ورمى نفسه بين

ذراعيه وهو يقول: «أبى خميس.. كيف تسمع كلام أبى وتترك «حيفا» لسوف أجعل أختى «ضحى» تخاصمك.. لن أتركها تكلمك بعد اليوم.. هذا الحر يكاد يقتلنى.. الناس هنا كثيرون.. كلهم يبكون.. ما هذا..؟ وذاب صوت الصغير فى خضم الطنين الصاعد من القافلة، وفى هدير الحكايات الدامية، وعبارات الأسى والذكريات المؤلمة. وبعد مسير ساعات، مال خميس شاهين على أذن الشيخ ريحان وقال: «الناس فى حاجة إلى ماء وزاد..» فهز الشيخ رأسه فى حيرة وقال:

- «كل الماء والزاد المتبقين يجب أن يكونا للأطفال والجرحى وحدهم.. وعلينا أن نجهد أنفسنا فى المسير حتى نبلغ إحدى القرى» ولم يكد يكمل عبارته حتى لاحت فى الأفق طائرة على مستوى منخفض، وهتف «خميس» عند رؤياها:

- «انظر يا شيخ ريحان.. إنها طائرة يهودية.. لكم أخاف الغدر..».

وصاح خميس: «قفوا.. ثم انبطحوا جميعًا على الأرض..».

وفى لحظات كان الجميع قد ارتموا على الرمال، ووجوههم تلامس الأرض، أما الشيخ أبو نجلاء، فقد بقى حماره واقفًا فى بلادة دون اكتراث، وظل الشيخ فوق حماره وفكه الأسفل مدلى، ونظراته زائغة تنظر إلى بعيد عبر الصحراء الحارقة الممتدة بلا نهاية،

ولم يتزحزح أو يتزحزح حماره عن وضعه، على الرغم من هدير بعض القنابل التى تساقطت فوق القافلة، وكان صراخ بعض الضحايا يبلغ سمعه، فيخيل إليه أن أصوات الاستغاثة فى «حيفا» ما فتئت تطن فى أذنيه.. وبعد فترة لا يدرون أطالت أم قصرت انسحبت الطائرة وانقطع أزيزها: ثم تأهبت القافلة مرة أخرى للمسير، بعد أن وارت التراب خمسًا من الضحايا، وبعد أن ضمدت جراح عشرة آخرين، لكن أبا «النجلاء» وحماره لم يمسا بسوء..



الفصل الخامس

تغير وجه المدينة تغيراً كلياً، ولبست ثوبًا آخر غير الذى كانت تلبسه، والمبانى البيضاء الناصعة التى تشرف على البحر الكبير لم تزل كما هى، والمساجد والقباب قابعة كالعهد بها، لكن دون مؤذن يؤذن للصلاة، وأجراس الكنائس الكبيرة قد أخرست، وأشجار الزيتون تتمايل فى حزن وأسى وكسل، ومع هذا الشكل الظاهرى الذى يبدو ثابتًا لم يتغير إلا أن المدينة قد أصبح لها مذاق جديد لكنه مرير، مذاق يحسه البقايا الذين لم يغادروا المدينة حتى الآن، إما لأنهم أسرى، أو لأنهم مرضى فى المستشفيات، أو الذين بقوا فى المدينة مصرين على عدم مغادرتهم برغم مصيرهم المخيف المتأرجح، لقد أصبحوا غرباء فى مدينتهم، وامتلأت شوارع المدينة ومعسكراتها وبيوتها بأشتات غريبة من اليهود الغزاة، كانوا يسيرون فى دروب «حيفا» فى نشوة وطرب وسكر، وكأنهم رجل كان مفلسًا ثم أثرى فجأة، ووجد نفسه يمتلك ضيعة واسعة هبطت عليه من السماء، وخيل لفلول العرب الباقين فى المدينة أن المدينة الكابية

تئن أنينًا خافتًا، وأنها تذرف الدموع الساخنة فى صمت رهيب، وانكسار موئس..

وبدأ بعض شبان اليهود وشاباتهم يرقصون فى الشوارع فى حلقات، ويرتلون بعض الأغانى العاطفية متشابكى الأيدى، أو متلاصقى الصدور، يتبادلون قبلات خاطفة بلا معنى، ويترنحون وهم يرقصون كالطيور الذبيحة، إنهم فى لحظة من لحظات العمر التى لا تكاد تفهم على حقيقتها؛ لما فيها من انفعالات كثيرة متناقضة غامضة، ومشاعر متضاربة مبهمة، ولمَ لا؟؟! إنهم يرقصون ويغنون ورائحة الأشلاء والدم المتعفن تختلط برائحة الخمر، وكم كا متناقضًا أن تقوم مواكب البهجة والمرح إلى جانب القسوة ومظاهر الوحشية والضحايا الذين يملئون الشوارع.

فى هذا الجو الغريب أفاقت «نجلاء» إلى نفسها، إن سرعة الأحداث وبشاعتها، وتتابعها ذلك التتابع المخيف قد أوشكت أن تذهب بعقلها، أوليس عجيبًا أن يحاول الجاويش الصهيونى «ليفى» أن يقبلها، فإذا ما مانعت وقاومت وصفعته على وجهه أسرع بتقييدها مرة أخرى، فجعلها عاجزة عن المقاومة والحركة من جديد، ويبدو أن الجاويش لم يكن يفعل ذلك لرغبة مجنونة عابثة فما أكثر فتيات جنسه اللائى يستطيع أن يقضى معهن الليالى الحمراء أثناء تلك الفترة الزمنية التى لا قيم فيها ولا قيود، وبديهى أن الجاويش يفعل ذلك ليؤكد لنفسه بطريقة أخرى أنه انتصر، وأنه يحتل الأعراض وأجساد النساء كما احتل أرض المدينة وعقارها

وضياعها، وبعد أن قيدها انحنى فوقها ثم قبلها على الرغم منها، ولكنه فوجئ ببصقة تستقر على خده الأيمن، فمسح اللعاب في هدوء، ثم ابتسم ابتسامة صفراء، وهمس في خبث يخنقه الغيظ:

- «عندى فكرة».

ونظرت إليه «نجلاء» في رعب، فقد خمنت أنه ينوى بها شرآ، وخاصة أنها بلا مقاومة.. بلا أمل وقلبها يفيض حزنًا وأسى، واستطرد الجاويش قائلاً:

- عندما أحقنك بمادة مخدرة فستستسلمين، عندئذ أفعل بك ما أشاء..».

عند ذاك اغرورقت عيناها بالدموع وقالت:

- «هذه التصرفات الخبيثة سترمى بكم في جهنم».

قال مقهقهًا:

- «نارك جنة..».

فرقت لهجتها، وبدت في نبراتها الذلة والانكسار من أجل العرض الذى يوشك أن تدوسه النعال، وقالت:

- «ألا تخافون الله؟؟».

فعاد «ليفى» يضحك ضحكات شيطانية، ومن خلال ضحكاته كان يقول:

- «الله ليس هنا . . إنه لا يكون فى ميدان القتال ولا فى مخادع النساء، نحن يا فتاتى لا نلقى الله إلا فى المعابد، ونادراً ما نذهب إليها . . فالله غنى وقوى وهو ليس فى حاجة إلينا، ثم إنه يسره أن يرى أبناءه - أحفاد إسرائيل - يمرحون ويشربون ويستمتعون بمباهج الحياة . . ».

لم تشعر «نجلاء» بغير وخزة الإبرة، ثم راحت بعدها فيما يشبه الغيبوبة، ومرت بها أثناء نومها أحداث مختلطة شائنة، وكانت أعماقها - عقلها الباطن - يصارع ويقاوم لكن أعضاءها كانت مستسلمة مسترخية لا تستطيع أن تبذل أدنى جهد، وعندما أفاقت بعد مدة لا تدرى أبعادها الزمنية، تلفتت حواليها، فوجدت الجاويش وثلاثة من الجنود يترنحون كالسكارى، وقال الجاويش «ليفى» فى شىء من الزهو :

- «لقد انتصرنا . . ».

ودرات «نجلاء» بنظراتها الزائغة هنا وهناك، بقع من الدم من تحتها، وآلام جسدية تعذبها، ودهاء وخبث ينطلقان من عيون الذئاب الضارية، ورائحة الجرم البشع تزكم الأنوف، وسياج العرض الشريف قد تحطمت وصارت ركاماً، والحياة كلها أصبحت أمامها بلا معنى . . بلا قيمة . . بلا جاذبية . .

وهمست بصوت جريح مهزوم :

- «ليتنى أموت».

قال الجاويش :

- «بل ستعيشين . . » .

- «هذا أقسى العذاب . . » .

- «يجب أن تفهمي يا عزيزتي أننا سنحتفظ بك كأسيرة . . من يدرى؟؟ قد يأسر العرب بعض اليهود يومًا ما ، وقد يكون عند ذاك تبادل أسرى ، ومن ثم فسنحافظ على حياتك لا رحمة بك ، ولكن من أجلنا نحن . . » .

وأحنت «نجلاء» رأسها ، وقد جمدت الدموع فى عينيها ولم تعد بها رغبة فى شيء ، كل شيء أصبح فى نظرها ميتًا لا يثير فيها أدنى شعور ، وتساقطت دبر أذنيها كلمات الجاويش «ليفى» وهو يقول غامزًا بإحدى عينيه :

- «كنت رائعة يا فتاتى . . ولم يكن ينقصك غير الحرارة والتجاوب العاطفى . . وهذه مسألة وقت . . » فنظرت إليه ببرود وهو ينصرف دون أن تنطق بكلمة . .

***

وعاشت «نجلاء» فى أسرها حياة عجيبة ، فيقظتها ذهول ، ونومها أرق وأحلام مروعة ، واختلطت مأساة وطنها بكارثة أسرتها ، فلم تعد تميز بينهما ، فلسطين وأمها وأبوها وإخوتها شيء واحد . عرضها وعرض أمتها لا يختلفان ، والدموع التى تسكبها لا تدرى أهى من أجل وطنها أم من أجل أسرتها أم من أجل نفسها ،

وعندما سمعت فى معتقلها أن هناك جيوبًا للمقاومة العربية ترابط خارج «حيفا» وداخلها، وتقلق القوات الإسرائيلية شعرت بقليل من الارتياح. لكم يسعدها أن بنى قومها يستطيعون أن يقاوموا ويثأروا ويريقوا دم المعتدين، ويورثوهم الرعب والقلق، وما دام الصهيونيون يقتلون أكثر من يقع فى أيديهم؛ فلماذا يستسلم لهم المواطنون؛ فإذا كان الغدر والقتل أمر محتم، وسلوك مشروع فى عرف اليهود فلا بد من عدم التسليم، ولا بد من المقاومة ولو بأضعف الأسلحة وأقلها جدوى، فالموت فى معركة النضال والصراع يبعث على الراحة والسعادة، ويفجر الأمل فى الانتقام الكامل والنصر المؤزر يومًا ما، وما أروع ميتة أخيها، لقد لقى الله بعد أن سفح دم الميجور الصهيونى، والحياة الذليلة أو الموت الذليل كلاهما لا معنى له، ولهذا نبعث فى رأس «نجلاء» فكرة التضحية والمغامرة، فلماذا لا تحاول الهرب؟؟ أتخاف الموت؟؟ إنه شىء بسيط للغاية فقد مات أفراد أسرتها جميعًا أمام بصرها ولم يعد لها أحد، لهذا يجب ألا تجعل من التفكير فى أمر الموت شيئًا مؤرقًا، لتنفذ خطة الهرب، فإذا ماتت فلن تخسر كثيرًا، وإذا عاشت «آه» يا لها من أمنية غالية.. لقد تحررت الآن من الخوف وعندما تتحرر من الحصار الحديدى حول «حيفا» وتنطلق إلى أرض لم تدنسها أقدام الغزاة بعد، فلسوف تفعل الكثير، وفى أتون النضال المقدس قد تحرق أحزانها وآلامها الفردية، لأنها تشعر منذ الآن أنها إنسانة جديدة خلقت خلقًا آخر، وبهذه الروح ستفعل المعجزات.

ومعسكر الأسرى للنساء كالسجون المفتوحة، حراسة بسيطة، وأسوار شائكة، وأكشاك خشبية صغيرة، وبالبوابة الرئيسية حارس واحد، وحول السور الشائك جنديان أو ثلاثة، لم يكن يشغل البال فى هذا الوقت غير الزحف لاحتلال أكبر قدر من الأرض العربية، ومحاولة القضاء على المقاومة العربية التى لم تنظم بعد، ولم يكن اليهود يفكرون كثيراً فى عدد قليل من المعتقلين العرب، لأنهم ببساطة لا قيمة تذكر لحجزهم، ولو فرض وفر أحدهم، فسيجد كثيراً من العقبات أمامه، منها أنه سيجد نفسه فى مدينة جلها يهود، وسيصطدم بالحصار اليهودى وحقول الألغام والقوات المرابطة خارج المدينة، وأدركت «نجلاء» كل ذلك، ولم تكن تخاف من الموت بعد ما رأت وسمعت. .

الفجر على الأبواب، نفس اللحظة المشئومة التى تمت فيها المؤامرة الإنجليزية الصهيونية، واختطفت «نجلاء» حجراً من الاحجار الكثيرة المبعثرة داخل المعتقل، وقصدت البوابة الرئيسية، كان بابها مغلقًا وحارس جالس لا يتحرك، كان نائمًا بعد أن سهر طوال الليل، وبعد أن استبعد أن يحدث أدنى شغب من هؤلاء النسوة الضعيفات المذعورات. كانت تخطو فى ثبات عجيب، لم تضطرب أو يدق قلبها دقات الخوف، لم يطرأ الموت على ذهنها، ورفعت الحجر ثم أهوت به على الرأس المرتكز على عمود خشبى، وكررت العملية مرة أخرى وثالثة. فانطرح الحارس أرضًا دون حركة، وعلى بعد مترين كان يبدو السور الشائك، فاختطفت

بندقية الحارس وذخيرته، ثم زحفت تحت الأسلاك، وسلكت طرقًا ضيقة تعرفها تمام المعرفة، وشعرت «نجلاء» أن مدينتها الحبيبة «حيفا» تحنو عليها وتسترها وتبسط فوقها ظلالاً من الأمان والحماية، ووجدت نفسها بعد دقائق فى بيارة «شعيب بك» المليئة بأشجار الفاكهة، وجرت بأقصى ما تستطيع من سرعة، حتى بلغت أطراف المدينة، كانت تتسلل وعيناها تجوبان الظلام كعينى نمرة شرسة، وعندما أشرقت الشمس كانت «نجلاء» قد بعدت عن «حيفا» أكثر من سبعة كيلو مترات، فشعرت بالأمان الجزئى. لقد أفلتت من بين فكى الوحش الطاغية، وتحررت من الأسر، وقتلت خنزيراً. وفى استطاعتها الآن أن تفعل شيئًا ذا قيمة . .



الفصل السادس

لم تستطع القافلة المهاجرة أن تواصل السير جنوبًا دون انحراف؛ فقد تأكد لهم أن هناك قوات معادية فى يافا، وبعض المواقع الحصينة فى مستعمرات العدو، ولهذا اتجهوا فى مسيرة صوب الشرق، يقودهم خميس شاهين والشيخ إسماعيل ريحان، وعلى الرغم من وجود عديد من الرجال والشبان إلا أن خميس كان أكثرهم حيوية ونشاطًا، وكان شابًا مستطيل الوجه، يميل وجهه إلى السمرة، وشعره مرسل مصفف فاحم اللون، وعيناه السوداوان يعلوهما حاجبان غزيران، فى نظراته حدة، وفى كلماته وحركاته حماس وروح عالية مسيطرة، وطوال الطريق كان يواسى المنكوبين، ويضمد جراح المصابين، ويحمل بعض الأطفال على كتفه، ويجمع من حوله الشبان ويقسم عليهم الخدمات العامة، ويبحث معهم عن الماء والطعام، ويناقش معهم الدور الذى سيقومون به مستقبلاً فى المعركة، واتفقوا على أن يبلغوا بمن معهم من اللاجئين منطقة عربية آمنة، ثم يحصلوا على السلاح ويتلقوا بعض التدريب، وينضموا إلى زملائهم المناضلين فى أى قطاع من القطاعات، وليكن قطاع

«حيفا» بالذات؛ لإلمامهم التام بمواقعه وطرقاته، لكن كان أهم شيء هو أن يضمنوا الأمن والسلام والإقامة الطيبة لهذه القافلة الكبيرة من الأطفال والنساء والشيوخ والجرحى. . وبلغوا غايتهم بعد يومين من المشى المضنى والشمس المحرقة والجوع والظمأ، كانت قرية كبيرة تلك التى نزلوا بها، وكان بهذه القرية موقع لرجال البطل الفلسطينى المجاهد عبد القادر الحسينى، وخرجت القرى عن بكرة أبيها وقت الأصيل لترى هذا الفوج الكبير من اللاجئين، ونظر السكان لإخوانهم المرهقين المقرحى الجفون نظرة أسى وحزن، الغبار يعلو وجوههم، والجفاف يرتسم على شفاههم، وأنفاسهم تتلاحق أعوامًا طويلة لا يومين اثنين، وتمتم لاجئ عجوز وهو يرمى جسده المهلك تحت شجرة مورقة:

- «إنه حكم الله . .».

وقالت امرأة تعرج وهى تخطو إليه وتجذب خلفها طفلاً صغيرًا:

- «وليس لنا إلا الصبر . .».

- «أليس من الظلم يا امرأة أن نتحول بين عشية وضحاها من أثرياء إلى متسولين؟؟ لماذا؟؟ لماذا كل هذا؟؟ أى منطق يبرر ما يحدث اليوم؟؟ هل قالت كتب العهد القديم لهؤلاء اليهود: اسلبوا الناس أموالهم وديارهم وأرواحهم؟؟ وهل قالت كتب العهد الجديد للإنجليز: ضعوا السلام فى يد المجانين الموتورين، وبيعوا لهم أرواح البشر الأبرياء وأرضهم وكونوا عونًا لهم على الفساد؟؟».

وهرولت إليهم امرأة ثالثة تبدو عليها آثار النعمة والجمال برغم ما يعتريها من إرهاق وغبار وشحوب، وقالت فى عصبية :

- «كان متجرنا مليئًا بكل الخيرات، وبمستودعه بضائع يزيد ثمنها على ألفين من الجنيهات . . » .

وقطع خميس شاهين عليهم حديث الحسرات والذكريات المريرة وهو يقول :

- «أعتقد أنه لا داعى لأن نبقى هنا فى العراء . . » .

قال العجوز فى يأس :

- «لا مفر . . لم يعد لنا قصور . . » .

وأردفت المرأة التى تمسك الطفل بيدها :

- «وسيظل الإحساس المؤلم يطاردنى ويصور لى أنى فى العراء ما دمت بعيدة عنه . . » .

قال خميس فى ابتسامة بلا معنى :

- «لا داعى لهذا الكلام . . غدًا يعود كل منا إلى بيته . . » .

قال العجوز وهو يرفع إلى خميس وجهًا مغضنًا وعينين غائرتين لا تميزان ما أمامهما جيدًا :

- «متى يا بنىّ؟؟» .

- «عندما يشاء الله . . » .

وأطرق الجميع صامتين، ثم استأنف خميس حديثه قائلاً:

- «لا يصح أن نبقى هكذا في العراء ومن حولنا أهل القرية ينظرون ويتألمون.. إنها صورة سيئة.. لقد دبرنا أمرنا.. إن بالقرية أربعة مساجد وكنيسة وثلاث دور للضيافة والاحتفالات ومدرسة، ومكتبين لتحفيظ القرآن الكريم وسوف يأوى اللاجئون جميعًا لهذه الأماكن، وهناك يستطيعون النوم والراحة وتناول الطعام وتدبير أمورهم..».

وبينما كانت أفواج اللاجئين تخترق شوارع القرية، كان الصمت الكئيب يزين على كل شيء، وعيون النسوة والعذارى والفضوليين تنظر إلى الموكب عبر النوافذ والأبواب النصف مغلقة، وفي عيون الجميع انبثقت الدموع، وسمع صوت امرأة تقول خلف نافذتها:

- «هل قامت القيامة؟؟ يخيل إليّ أننا في آخر الزمان.. وأن هذه إحدى علامات الساعة..».

وخلف نافذة أخرى قالت امرأة في دهشة:

- «من هؤلاء الغرباء يا زوجي؟؟».

- «ليسوا غرباء أيتها الزوجة البلهاء.. إنهم إخواننا..».

وامتلأت شوارع القرية بأولئك الذين يحملون على كواهلهم أعباء الصدمة الأولى، ضحايا الغدر في «حيفا» المدينة السيئة الحظ.

وبعد ساعتين أو ثلاث كانت كل مجموعة من هؤلاء اللاجئين تأوى إلى مكانهـا، وأسـرع رجـال من أهل القـرية بجـمع الطعـام والملابس وكل ما يحتاج إليه الضيوف، وسلموا ما جمعوه للشيخ ريحان وخميس شاهين، واستطاعا بمعاونة باقى الرجال أن يوزعوا كل ما حصلوا عليه على المنكوبين، وقد لوحظ أثناء تحديد الإقامة أن تستقر كل أسرة بمفردها يفصلها عن باقى اللاجئين حاجز بسيط من حصير أو ستارة ممزقة من قماش قديم . .

وبعد يومين من الإقامة، قال خميس فى قلق:

- «أعتقد أنه يجب أن نكون صرحاء يا عم الشيخ ريحان».

- «بالطبع يا بنىّ . . ماذا تريد أن تقول؟».

- «هذه القرية محدودة الإمكانيات . .».

- «أعرف . .».

- «محدودة الثروة . . أغلب سكانها رعاة وزراع، وليس فيها موارد كافية للرزق . .».

- «وهذا صحيح يا بنىّ . .».

- «ومن ثم فليس من العدل أن يعيش هذا العدد الضخم من اللاجئين عالة عليهم».

- «وماذا تقترح؟».

- «أن يوزع عدد هؤلاء اللاجئين على مناطق أخرى مجاورة . . هذه واحدة . .».

- «والثانية؟».

- «أن يزاول كل واحد منهم عملا - أي عمل - يدر عليه بعض الرزق..».

- «معقول يا ولدى».

- «ثم ألست معى أن عدد اللاجئين سوف يزداد من يوم لآخر وقد يبلغ مئات الألوف؟؟».

- «ربما..».

- «ولهذا أرى يا سيدى الشيخ أن يحاول عدد من هؤلاء اللاجئين الاتجاه صوب حدود البلاد العربية، فهناك يجدون الأمان، وفى مصر مثلا سيجدون الرعاية والعمل الذى يرتزقون منه، ولا يبقى منهم هنا غير القادرين على حمل السلاح الذين ينضمون إلى الفدائيين أو إلى الجيوش العربية التى تخترق الحدود الآن.».

«وهز الشيخ رأسه قائلاً»:

- «وما تقوله يا خميس يجد لدىَّ قبولاً تاماً».

- «حسن.. لنقل ذلك بصراحة لإخواننا اللاجئين.. ومن يدرى؟ قد لا يطول أمد المعركة، وقد نقضى على العدوان الصهيونى، وتعود الأمور إلى نصابها.. وإلى أن يحدث ذلك فقد تقام معسكرات خاصة لهؤلاء اللاجئين.. إنها على أية حالة مشكلة محيرة، إذ يجب أن نواجه عدوان العصابات الصهيونية،

وفى الوقت نسه نداوى جراحنا المادية والمعنوية ونفكر فى أمر أولئك اللاجئين . . » .

ووجد خميس أنه قد اطمأن مؤقتًا على مصير الشيوخ والنساء والأطفال ، ولهذا اتجه بفكره نحو المعركة ، إن عليه أن ينضم منذ الغد أو بعد غد على الأكثر إلى إخوانه الفدائيين ، وأن يأخذ معه كل قادر على حمل السلاح من رفاقه . .

***

كان الشيخ أبو «نجلاء» يجلس ساهمًا قرب ميضأة المسجد إلى بعض اللاجئين ، لم يكن له أسرة أو ولد أو زوجة تواسيه ، وكانت الصدمة الكبرى لم تزل تملك عليه مشاعره وأفكاره ، تجعله أشبه بالتمثال الحجرى منه إلى كائن بشرى ، وبدا أن جراحه الجسدية لم تعد تؤلمه بعد أن كفت عن النزف ، وكان لا بد لهذا الذهول والتشتت الذهنى والعاطفى من نهاية ، ألم يقل إن المصائب تولد كبيرة مروّعة ، ثم تأخذ فى التضاؤل رويدًا رويدًا ، كل شىء يبدو صغيرًا إلا المصائب ، وانتفض الشيخ أبو «نجلاء» وقد سمع فجأة صوتًا ما كان أعذبه ! . . صوتًا لم يسمعه منذ مدة . . لقد جاءه صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر : «الله أكبر ، الله أكبر . . » .

وتلفت الشيخ حواليه وهو يتمتم :

- «هل نحن فى الجنة؟؟» .

- «بل فى بيت من بيوت الله . . » .

وانجابت الغشاوة عن عينيه، ونظر هنا وهناك، الوجوه السمراء مبللة بماء الوضوء، واللحى البيضاء بياض الحليب تشرق فى طهر، وعلى الرغم من النيران التى تشتعل فى غرب القرية ومن حولها إلا أن الله يُعبد، والصلوات تقام، والدعوات تصعد إلى السماء والمؤذن يكبر، «الله أكبر»، والأمل يحيا فى النفوس، وعاد الشيخ فجأة يقول بصوت عال:

- «لكنهم ماتوا جميعًا -أولادى وامرأتى. . ».

ونظر إليه المصلون والمتوضئون ورفاق من اللاجئين، وانبعث صوت إمام المسجد:

- «يا مولانا. . . إنهم كانوا وديعة لله عندكم. . ولما أراد الله أن يسترد وديعته فلماذا تحزن؟؟ هل أنت أحن عليهم من حالهم؟؟ إنهم الآن، فى جنات ونهر، فى مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر» قم يا رجل. . قم إلى الصلاة. . ».

وشعر أبو «نجلاء» بيد تجذبه فى رفق، وتذهب به إلى الميضأة، وتلامس كفاه الماء البارد، وأصوات كالطنين هى أصوات المتبتلين والضارعين تتباهى إلى سمعه، وبعد دقائق كان مندساً بين صفوف المصلين، يقرأ الفاتحة ويؤمن على الدعاء، ويركع ويسجد. . كان بين يدى الله. . ومن يكون بين يدى الله حقاً، وقلبه مفتوح له فهو فى الجنة وإن كان حيّاً يرزق، يدب على الأرض حيث تهب ريح الشقاء.

الفصل السابع

ترك خميس مجموعات اللاجئين المبعثرة هنا وهناك، ولم يتركهم ضيقًا بهم، أو تبرمًا بأساهم ومشاكلهم، لكنه أراد أن يعود إلى نفسه، شعر بحاجة ماسة إلى خلوة هادئة يناقش فيها بعض الأمور وحده، وخميس أكثر ما يكون صدقًا مع نفسه، ليس هناك مجال لارتداء الأقنعة الزائفة، أو انطلاق اللسان بغير ما فى الوجدان، وما إن اختلى بنفسه فى طرف من أطراف القرية تحت كرمة صغيرة، حتى امتد بصره إلى السماء.. إنها نفس النجوم التى تطل الآن على «حيفا». نفس العيون الخالد التى تتطلع إلى مأساة الإنسان المظلوم. ومع هذه الأحزان الكامنة فى أعماقه إلا أنه حسم الأمر فى واقعية صادقة، إن ما هدمته الأيدى الآثمة بسلاح الغدر لا يمكن أن يعاد بناؤه إلا بالقوة.. القوة المستنيرة وحدها هى التى ستصحح الأوضاع، وترد الأشياء إلى طبيعتها، لم يعد للعدالة أو المنطق السليم مكان فى هذه القضية التى خذلها الضمير العالمى، وتنكرت لها القوى المغرضة الاستعمارية، ولو كان العرب أقوياء لما استطاع قدم باغية أن تلوث أرض الأنبياء والرسالات الخالدة، أما

كون العرب ضعفاء وأصحاب حق فقد هددهم الغزو والضياع والاستغلال، إن خميس لا يؤمن اليوم بمنطق القوة لوحشى فى طبعه، أو شذوذ فى مبادئه، أو استجابة لعقم فى فكره، ورجعية فى سلوكه، وإنما آمن به اليوم لأن القوة هى الحل الوحيد فى عالم أصبح الحق مجرد باطل صريح، أليس من البلاهة أن يتغنى الحب والسلام وهو طريد مشرد مسلوب الأمن، تطارده أسلحة الحقد والدمار، ويذبح بنو وطنه على قارعة الطريق، وتراق دماؤهم فى عقر بيتهم، وتنهب أرزاقهم وأرضهم ظلمًا وعدوانًا ؟ ألم يقل نبىّ البر والرحمة : «أن من مات دون ماله فهو شهيد، وأن من مات دون عرضه فهو شهيد»؟! إذن لا بد من الرحيل إلى أرض المعركة، وتذكر خميس فى هذه اللحظات الحاسمة أسرته التى تقيم فى «الخليل» لكم كان يتمنى أن يراهم قبل أن يقذف بنفسه فى أتون المعركة، لكن . . لا بأس أن يؤجل ذلك الآن، إن كان فى العمر بقية فلسوف يراهم، ثم إنهم أبعد كثيرًا عن مواطن الخطر فهم فى شبه أمان . . ثم تذكر «خميس» أمرًا آخر . . تذكر «ضحى» ابنة الشيخ إسماعيل ريحان تذكرها كما يتذكر الإنسان نفسه أو بعض نفسه، هذه العذراء الخجول لها فى قلبه منزلة كبرى فوق الوصف والإبانة، كانت «ضحى» هى ابتسامة الصباح الوليد كلما رآها وهو ذاهب للتدريس فى المدرسة التى يعمل بها، وهى الحلم الجميل الذى يطبق عليه أجفانه وهو يأوى إلى مضجعه فى المساء، والأهل العذب الذى يوشى خيالاته إذا ما فكر فى المستقبل . . كان هذا

بالأمس، أما اليوم. . ما أقسى واقعه المر، وحصاده الأليم، أليس إثمًا كبيرًا أن يفكر فى الحب والأرض من حوله تشتعل بالكراهية والحقد والدمار؟ لماذا يفكر الآن فى «ضحى» ؟؟ أيريد أن يبقى إلى جوارها؟؟ هذا مالا يخطر له على بال، فهو يشعر أنه - وهو فى المعركة - سيدافع عنها، وعن مئات الألوف بل الملايين من مثيلاتها، إنه بذلك سوف يؤكد انتصاره لمعانى الحب النبيل، يريد أن يستمتع بحب فى أرض حرة كريمة، ومن البديهى أنه يشرفه أن يعود إليها بطلا شريفًا عاش من أجل الآخرين، بدلا من أن يبقى إلى جوارها ذليلاً أنانياً يعيش من أجل نفسه، وفلسطين و«ضحى» شىء واحد، فمهما بعد عن حبيبته، وشرّق وغرّب، فإنه يسير إليها، وينفى عن طريقها الشوك. والأخطار والعار. . إنه مع «ضحى» أينما سار، والعواطف الشجية التى تشدد إليها هى نفس العواطف التى تحرق قلبه وتدفعه لخوض المعركة الكبرى. . لكن إذا مات!! آه. . ماذا يحدث إذا مات؟؟ سؤال أقلق «خميس» وأثار الألم والحرمان فى قلبه، سيموت إذن ظمآنًا جائعًا، وبسلاح صهيونى حائر لايعرف الحب ولا الطهر.

وتنتهى القصة إلى هذا الحد، لكن كيف؟؟الحب الحقيقى لا يموت، لأنه فوق نزوات الجسد، وفوق الرغبات الطارئة التى يعتريها الملل والفناء، والحب هنا -فى أرض الأنبياء- حب كبير لا يموت. لكن لماذا يفكر «خميس» فى الموت؟؟ ما هذا التشاؤم الذى لا يليق ببطل سيخوض أشرف معركة، لسوف يحيا، وستحيا

أمته، وينتصر الحق، ويعيش لفلسطين الكبيرة أرض الله الطاهرة، ولفلسطين الصغيرة «ضحى الوادعة الجميلة . . » والذين يحبون بحق لا يفكرون إلا فى الحياة والأمل والانتصار على كل العقبات، فالحب طاقة سحرية تصنع المستحيل!! - حبٌ هذه مقوماته لن يموت أبدًا، ولن تنال منه فواصل المكان والزمان، ولا تقلبات الموت والحياة، وعندما تتحرر فلسطين سيشرق كل شيء، وسترتسم الابتسامة الخالدة على الوجوه البشرية، وسيلمع شعاعها على الأشجار والأبنية والتلال وكثبان الرمل، وستنير السماء والأرض، وتحيل الوجود إلى أغنية حلوة شذية . .

لكن القلق عاود «خميس»، وعندما تذكر أن هذه القرية التى يقيمون فيها الآن لن تكون مقرآ ثابتًا لإخوانه اللاجئين، ومعنى ذلك أن «ضحى» سوف ترحل عن هنا إن عاجلاً أو آجلاً، وقد تتسبب هذه العواصف الهوجاء التى تجتاح فلسطين فى تشتيتها وتشريدها بحيث يأتى يوم يكون من العسير الاهتدا إليها، وقد تقع فى أيدى هؤلاء الصهيونيين الأوغاد، فيمثلون بها، أو يحطمون كبرياءها، فلا يراها مرة ثانية، لشد ما يزعجه هذا الخاطر، ويؤرّق عليه أمله الباسم فى غد أفضل، ومع ذلك فقد حاول «خميس» جاهدًا أن يتغلب على هواجسه، وأن يعتصم بعقيدته الأصيلة وهى: أن نكبة وطنه الكبرى فوق آماله وعواطفه الفردية .

***

أوى «خميس» إلى فراش النوم فى ساعة متأخرة من الليل، كان نومه متقطعًا قلقا، ومع ذلك فقد استيقظ عند مطلع الفجر، وعوّل على أداء الصلاة جماعة، كان الجو رطبًا حانيًا، وروحانية مشرقة تضوع فى أروقة المسجد، وتملأ نفس «خميس» بالرضا والقبول والإيمان. لأول مرة يحس حقيقة أن للإيمان العميق الصادق مذاق حلو شهى يساوى كنوز الدنيا بأسرها، وأيقن حينذاك ألا شىء اسمه الفناء بالنسبة للإنسان المؤمن، وما الموت إلا قطرة إلى عالم زاهى الربوع، قدسى النفحات، خالد لا يفنى، وبعد أن أدى الصلاة، وارتدى ملابس الميدان وحمل سلاحه وذخيرته، وجد فى نفسه الشجاعة الكافية لكى يذهب إلى «ضحى» ليودعها ولم يكن قبل ذلك يحاول الانفراد بها، أو يسقط ما بينه وبينها من تزمت وقيود يفرضها العرف والتقاليد، وعندما أصبح وحيدًا معها صمت لحظات ثم قال:

- «لم أستطع أن أرحل قبل أن أراك».

ولما لم تجب بشىء، جف ريقه، وشعر بالحرج، ولم يستطع أن يدارى حرجه بغير الاستطراد فى الحديث:

- «أنت تشعرين بما أحفظه لك فى قلبى من... من تقدير، وسأظل طول حياتى حاملا لك فى قلبى أنبل المعانى والعواطف وأخلدها.. إننى على ثقة بأننا سنلتقى، وعندما يريد الله أن يتم هذا اللقاء فى عالم سعيد، فسنبدأ حياتنا على أجمل وجه وأروعه.. أما إذا شاءت الأقدار ألا أعود و...».

فقاطعته قائلة :

- «لا تقلها . . لا تقلها . . » .

ثم انهمرت دموعها ، وأخذت تدير وجهها بعيدًا عنه ، بينما قال «خميس» :

- «أجل . . يجب أن أقولها . . » .

- «وستعود إلينا سليمًا أنت ورفاقك . . » .

- «سنعود يا عزيزتى . . » .

- «وستنتصرون . . » .

- «بإذن الله . . » .

- «وستقام الأعراس ، وتدق الطبول لنا فى «حيفا» الحبيبة» .

وشردا بأحلامهما إلى بعيد ، حيث أشجار التفاح والبرتقال والزيتون ، وحيث البحر الواسع ، والمآذن والقباب ، وحيث الذكريات الحلوة ، وأيام الحب والصفاء ، وأفاق «خميس» إلى نفسه قائلاً :

- «لتجففى دموعك إذن . . أنا لا أذهب إلى موت بل إلى حياة ! ! أتفهمين ما أرمى إليه ؟ ؟ » .

- «بكل تأكيد . . أنت اليوم فى نظرى أكبر من أى وقت مضى ، وتقديرى لك قد ارتفع إلى مرتبة القداسة ؛ لأنك رجل يعرف الشرف ويعرف الواجب . . لأنك رجل . . وكفى . . » .

شعر «خميس» لدى سماعه لهذه الكلمات بأنه قد تحول إلى عملاق كبير، وأنه قد أصبح مزودًا بقوة خارقة لا تعرف الخوف أو الخور، وتمنى أن يهبه الله ذراعين طويلتين يستطيع أن يطوق بهما القوات الغادرة كلها، ثم يضغط عليها ويسحقها بشدة حتى يعتصر ماء الحياة منها، ويقذف بها جثثًا هامدة . .

وجاء صوتها مرة ثانية :

- «أعرف أن الفراق مر، لكنه لهدف كبير . . » .

- «لكن البعاد سيزيد عاطفتنا توقدًا وأصالة . . » .

- «بكل تأكيد يا خميس . . » .

- «وستظل صورتك الغالية فى قلبى . . » .

- «وسأدعو لك عند كل صلاة . . وسأعلم «وليد» الصغير كيف يضرع إلى الله أن يكتب لك النصر والحياة والعود الحميد . . » .

وأدرك خميس، أنه يجب ألا يطيل البقاء فى مكان اللقاء، ورأى أنه يجب أن يسارع بالعودة إلى رفاقه؛ حتى يبدءوا رحلتهم، وينخرطوا فى سلك المعركة، وتمتم «خميس» فى انفعال لم يستطع مداراته :

- «وأعتقد أنه يجب الآن أن أرحل . . » .

فلما لم تجب عليه، رفع عينيه إليها، كانت «ضحى» شاردة، وبدا عليها أنها لم تعِ تمامًا عبارته الأخيرة، وهمَّ بأن يسألها عن سر

شرودها، لكنها قالت فى لهفة، وهى تعبث بأناملها فى عصبية:

- «خميس!!!».

- «نعم..».

- «عندى فكرة..».

- «ماذا؟؟».

- «لماذا لا أحمل السلاح مثلكم، إن التدرب عليه لا يحتاج إلى وقت طويل.. ما رأيك؟ هذا أعظم عمل، ليتنى أكافح إلى جوارك.. لا شك أنها أمنية رائعة، ثم لا تنسَ أن ما فى قلبى من رغبة فى القصاص من هؤلاء المعتدين تكاد تقتلنى.. هيه.. ماذا قلت!!».

قال «خميس» وهو يتنهد:

- «لم يئن الأوان بعد.. إن ما لدينا من سلاح وذخيرة لا يكفى إلا عددًا قليلاً من الرجال، فتسليح النساء إذن أمنية مبكرة جداً.. أو قولى إنه حلم.. لو كان لدينا السلاح الكافى الصالح للمقاومة لحلت المشكلة، بل لما فكر الأعداء فى تنفيذ مؤامراتهم..».

أحنت «ضحى» رأسها فى أسى، ثم أعطت «خميس» ظهرها، وقالت والدموع تنسكب على خديها من جديد:

- «فى رعاية الله».

- وقبل أن يتركها قال:

- «قد تفكرين فى الكتابة إلىّ حتى أعلم - على الأقل - مكانك الذى ستقيمين فيه إذا ما غادرت هذه البقعة. وأعتقد أن إرسال خطاباتك على هذه القرية قد تصلنى، فسأمر هنا من حين لآخر، وسأوصى أحدهم بتسلم ما يصل رجالنا من مكاتبات..».

وأنهى «خميس» حديثه...

ثم مضى..

كان لوقع خطواته فى أذنيها صدى حزين دامع..

لم تستطع أن تبقى على وضعها الراهن، بل أدارت وجهها نحو الطريق الذى سلكه، كان ينطلق واسع الخطى. فارع الطول، كيف شهره القدر فى وجه قاطع طريق، وكانت «ضحى» تشعر أن قلبها يتململ فى صدرها، ويحاول جاهداً أن ينطلق من سجن الضلوع ويلحق بالراحل الحبيب.. إلى أتون المعركة القاسية.



الفصل الثامن

ثارت مشاعر العرب والمسلمين فى شتى أنحاء العالم، إنه حدث كبير أن تتحقق آمال صهيون فى هذه الآونة بالذات، وأن تقطع أرض عربية لتكون لهم وطنًا، المنابر فى القاهرة وبغداد ودمشق وعمان والمدينة المنورة وعشرات المدن تصرخ داعية إلى الجهاد المقدس، والشوارع الكبيرة تغص بالمئات من الألوف هاتفة متوعدة، المؤتمرات السياسية الصاخبة تعقد، النشرات تملأ الأندية وأماكن التجمعات، الصحف تمتلئ صدور صفحاتها، وتسيل أعمدتها ثورة وحماسة، الموقف يتأزم لدرجة مخيفة، وحكام العرب يجدون أنفسهم مساقين سوقًا إلى خوض المعركة على الرغم من الظروف القاسية.. فالسلاح قليل، والاستعداد للمعركة ليس على ما يرام، وقوات الاحتلال الغربى ترابط فى أكثر الأقطار العربية، لكن ثورة الجماهير لا تؤمن بالمنطق والواقع الأليم، يكفى أنهم أصحاب حق، ولو خرجوا عزلاً وبلا ذخيرة لخاضوا المعركة، إذًا كيف يرون قطعة عزيزة عليهم من الوطن العربى تنتزع ظلمًا ولا تثور ثائرتهم؟!

إن هذه المأساة تجرح كبرياء العرب، وتنال من معتقداتهم . . أنهم يرون أن الاستعمار شيء طارئ قد يزول اليوم أو غداً، أما إقامة وطن قومى لليهود فإنه يحمل فى ثناياه مأساة أكبر من الاستعمار والتسلط الغربى، فإذا ما قامت دولة - كإسرائيل - وأصبحت لها كل مقومات الدول وإمكانياتها، واكتسبت صورة دولية ثابتة، فسيكون القضاء عليها أمراً يحتاج إلى كثير من التضحيات والمتاعب والسنين . .

ومع هذا الغضب الشعبى الجارف، إلا أن القاهرة بدت فى صورتين متناقضتين، فالبكوات والباشاوات ورجال المال يرون أنه من العبث الوقوف فى وجه سياسة رسمتها وأشرفت على تنفيذها الدول الغربية، ومن العسير أن يقف أحد فى وجه الاستعدادات العسكرية التى تغدقها أوربا على إسرائيل، هذه هى القاهرة من خلال أفكار المسيطرين على زمام الأمور فيها، أما القاهرة كشعب فقد كان لها رأى آخر، فالمعركة ضد اليهود هى نفس المعركة ضد القوات الإنجليزية فى القنال وإن تغيرت المواقع والأسماء، وليس المهم- فى نظرهم- أن يكون لنا تفوق عسكرى لكى نخوض المعركة، ولكن المهم ألا نسلم بالمخطط الاستعمارى. فالمهادنة ضرب من الخيانة، والتسليم لليهود بقطعة من أرضنا المقدسة عار أمام الأجيال القادمة، وهكذا رضخت القاهرة ملكاً وحكاماً للقاهرة شعباً ثائراً متعطشاً للمعركة. وعلى الرغم من الحكومة أعلن الجيش المصرى الحرب على إسرائيل . .

وعلى الرغم منها أيضًا نشطت حركة التطوع وجمع التبرعات والسلاح وحركة التدريب فى المعسكرات الشعبية المختلفة . .

وفى حى «السيدة عائشة» بالقاهرة كان يعيش الأستاذ أحمد بدران وهو مفتش لغة عربية فى المنطقة الوسطى ، ومعه زوجه وابنه صالح بدران ، الطالب بالسنة الثالثة بكلية الآداب قسم الفلسفة جامعة القاهرة ، وكان الأستاذ أحمد - وهو أزهرى سابق - يتابع كل ما يقال ويكتب عن فلسطين باهتمام بالغ ، ويوجه النقد اللاذع للعرب وتقاعسهم ، ويعتبر قيام دولة إسرائيل مخالفة صريحة لنص من نصوص الدين ، وبداية سيئة لفساد العالم وقيام الساعة ، فقد كتب الله على بنى إسرائيل - كما قرأ فى كتب الدين - أن يعيشوا مشردين فى الآفاق جزاء عصيانهم وانحراف مفاهيمهم ، ونظرتهم السوداء الحاقدة الأنانية للبشرية كلها . . ولكل ما ليس يهودياً ، وأنهم على عقب التاريخ سبب عديد من الكوارث والخيانات ، ولهذا قرر فى ثقة وإيمان قائلاً : «إما أن يقضى على إسرائيل اليوم أو غدًا أو يعتبر هذا فألاً سيئًا على البشرية جمعاء ، وعلى المسلمين والعرب بوجه خاص» . وكان يقول لزوجه :

- «إذا ما سكت العرب على هذه الكارثة ، وتعاموا عنها فسيأتى يوم يدق فيه الصهيونيون أبواب مصر . . عند ذاك فقولى على عرضنا وعلى مقدساتنا وتراثنا العفاء ! ! انظرى ما يفعلونه الآن فى إخواننا العرب من قتل وتشريد وتمثيل ! ! كيف يحدث هذا فى القرن العشرين ؟ ! وكيف يحاولون السيطرة على أولى القبلتين

وبيت المقدس؟! . . لا يجب أن يحدث هذا، ويجب أن نقاوم لآخر قطرة من دمائنا . . » سمع صالح بدران هذا من أبيه، فأقدم صالح فى ثبات وإصرار، ووقف أما والده مطأطئ الرأس وقال :

- «لهذا قررت الانضمام إلى المتطوعين المسافرين إلى فلسطين . . » فابتسم الأستاذ أحمد، وعبث برباط عنقه، ثم أعاد وضع طربوشه على رأسه، وتنحنح، ثم قال :

- «هذا شعور جميل منك . . تشكر عليه . . ».

- «لذا سأسافر . . ».

- «تسافر؟؟».

قالها أبوه فى دهشة، فأردف صالح قائلاً :

- «أنا لا أهزل . . ».

فقال أبوه وقد اختلجت شفته السفلى وشحب وجهه :

- «لكنك لم تزل صغيراً . . ».

- «إننا نجند فى العشرين، وأنا فى الواحدة والعشرين . . ».

فارتج على أبيه، ودارت الحجرة به، ودق قلبه دقات متلاحقة، لكنه تماسك، وارتسمت على وجهه علائم الجد والحزم وقال :

- «هذا لعب عيال».

- «لماذا ؟؟».

- «الحماس الأجوف لن يجدى فتيلاً . . » .

- «لكنه ليس بأجوف . . إنما يحركنى إلى هذا التصرف الشريف عقيدة ثابتة ، ألم تحدثنا عن الجهاد والتضحية وشرف الشهادة فى سبيل الله ، ووعد الله بنصر المؤمنين ، وأنه كتب التشريد على اليهود شذاذ الآفاق حسب تعبيرك؟؟

فهب الوالد واقفًا ، وأمسك بكنف ابنه ، وهزّه فى سخرية مصطنعة وقال :

- «للمعارك رجالها ! ! أليس مضحكًا أن تذهب إلى الميدان دون خبرة أو تدريب . . » .

فلم تلن قناة صالح ، بل قال فى إصرار :

- «منذ شهر وأنا أتدرب ، وأجيد الآن استعمال قنابل ش . ف (شديدة الانفجار» واستعمال (البرن) . والزحف على الأرض ، والمصارعة اليابانية . . لقد تعلمت حرب العصابات» .

وصمت برهة أمام دهشة أبيه وانهياره ثم استطرد قائلاً :

- «ألم تقل لأصحابك إن الجهاد فى هذا الوقت «فرض عين»؟ ! لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة ، ولما سألته عنها فهمت أن الجهاد الآن واجب على كل فرد . . إن هذا الحكم الشرعى الذى سمعته منك جعلنى لا أستمتع بلذة النوم . . » .

وأدرك الأستاذ أحمد أن ابنه صالح لا يهزل ، وأن قوة كاسحة من الإيمان والعقيدة الراسخة وحماسة الشباب تحركه فى عنف نحو

الأرض المقدسة، ولم ينكر الأستاذ أحمد - بينه وبين نفسه - كلمة واحدة من الكلمات التى قالها ابنه، كان يؤمن بكل كلمة سمعها،

لكنه صرخ وقد تدفقت الدموع من عينيه:

- «أتعنى ما تقول حقاً؟؟».

- «بالطبع..».

- «لكنك وحيدى.. ليس لى أحد سواك..».

- «ليس هذا بعذر..».

- «لكنى أبوك.. وأدرك أكثر مما تدرك..».

- «لا أفهم ما تقول..».

فابتلع الرجل ريقه، وجفف دموعه وقال:

- «المعركة زائفة.. وفاروق يقيم مسرحية دامية ويلعب خلف الستار، والإنجليز أيضًا يلعبون، إنهم يريدون أن يمتصوا الحقد الشعبى والثورة الجارفة التى توشك أن تقتلعهم.. القوات الإنجليزية فى القنال متربصة، وسلاحنا منهم لا نأخذه إلا برضاهم.. هل فهمت؟؟ أيعقل أن يكون الإنجليز هم أول العاملين على إقامة إسرائيل، ثم يعطونا السلاح للقضاء عليهم؟! أنت مجنون.. مجنون ورب الكعبة..».

اختلط الأمر على صالح؛ وأخذت تطن فى رأسه عبارات أبيه

القاسية المثبطة، فتفصد جبينه عرقًا، واجتاحته موجة عارمة من الغضب. وهتف فى نبرات جريحة منهزمة:

- «معنى هذا أنه لا فائدة..».

- «لا فائدة..».

- «لن يخرج الإنجليز لأنهم أقوى منا، ولن نستطيع محاربتهم، لأنهم يحتكرون السلاح. ويضربون من حولنا ستاراً جديداً..

- «أجل يا بنىّ..».

- «ولن ينتصر العرب على اليهود، لأن الإنجليز يؤيدونهم ويحمونهم..».

- «أجل يا بنىّ..».

- «ومعنى هذا أنه قد ضربت علينا الذلة والمسكنة ولم تضرب على اليهود؟».

فصرخ الأب قائلاً:

- «قف.. هذا قرآن.. لقد نزلت آية ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] نزلت فى اليهود.. إنك تحرف الكلم عن مواضعه..».

فدق صالح الحائط بقبضته فى ثورة، ثم أخذ يشد شعر رأسه فى انفعال، ويقول وقد تبللت عيناه بالدموع:

- «من الأذلاء فى القرآن؟؟».

- «الكفار يا حبيبى . . » .

- «ومن الأعزاء؟؟ .

«المؤمنون . . » .

- ومن نحن؟؟ كفار أم مؤمنون . . » .

- «مؤمنون والحمد لله . . » .

فجفف صالح دموعه، وارتسمت على ثغره ابتسامة مباغتة لم يتوقعها أبوه، ثم اقترب من أبيه، وطوقه بذراعيه فى حنان وعاطفة جياشة وهو يقول :

- «سأرحل مع الراحلين يا أبى . . » .

قال الأب فى نبرات جريحة كسيرة :

- «متى؟!» .

- «بعد غد» .

- «سأعيش لك وبك، سأعود لك عندما يبشر الفجر بمولد يوم جديد، وسأعود لك عندما ينسكب الظلام من السماء وسأقول : أعادك الله سالمًا يا صالح . . » .

فقال صالح وهو يقبل رأس أبيه :

- وستقول : نصرك الله يا صالح أنت ورفاقك . . والأعمار بيد الله يا أبى . . » .

وأردف الأب قائلاً وهو يستند على كتف صالح ليعود إلى مكانه فوق المقعد:

- «لكم يسعدني أن أرى فى عينيك، وأشم من كلماتك الفتية روحًا جديدة تطرب لها روحى.. لكنى أبكى.. وسأبكى لأنك ولدى الوحيد.. إننى كأب أقول لك ابق بجوارى؛ حتى أسعد بك وبنجاحك فى الحياة، لكنى كإنسان مؤمن حر.. أقول لك اذهب لتدفع ضريبة الدم، لتحقق لوطنك الكثير، ولعقيدتك السمحاء، النصر، والحرية.. وتؤكد معانى الخير والعدل والحب..».



الفصل التاسع

رأوها قادمة من بعيد، تحمل بيمناها السلاح، وتندفع صوب المنخفض الذى يلى التبة العالية، ذلك المنخفض الذى تحيط به كثبان الرمل والصخور، وصاح أحد الرجال:

- «صوبوا إليها البنادق، إنها تحمل سلاحًا» . .

وأردف «خميس شاهين»:

- «لكن لا تطلقوا . . «إنها فتاة أظنها عربية» .

وكلما اقتربت ازدادت ملامحها اتضاحًا، وحينما أصبح بينها وبين «خميس» ما يقرب من ثلاثين ياردة، هتف بصوت ممتلئ حازم:

- «من القادمة؟» .

وبدون خوف ردت قائلة:

- «نجلاء . . . » .

- «اقذفى بالسلاح على الأرض وارفعى يديك . . » .

- «حسنًا . . ها هو . . ».

وفعلت ما أمرها به، وظلت تتقدم حتى وجدت نفسها بين عدد من الرجال، تطل اليقظة والتوثب من عيونهم، وغمغمت:

- «أنا فتاة من «حيفا» البائسة . . ».

ودقق «خميس شاهين» النظر فى وجهها الشاحب الحزين ونفض عن يديه وسترته التراب ثم وقف قبالتها وقال:

«إننى أكاد أعرفك».

- «وأنا أعرفك يا معلم . . نحن أبناء المدينة المنكوبة . . ألم تكن تسكن بيت الشيخ إسماعيل ريحان، وتعلم الصبية فى مدرسة المدينة . . ».

- «بالضبط . . لكن من تكونين؟ . . ».

وروت باختصار كل المعلومات التى تتصل بها، وبأبيها ومسكنهم ومأساة أسرتها . . راحت ضحية التوحش والغدر، وشرد «خميس» بضع لحظات، ثم قال:

- «لقد عرفتك الآن، لكن أباك لم يمت . . ».

- «رأيت الرصاص يخترق ظهره بعينى رأسى ويخر صريعًا».

- «وأنا رأيته بعينى رأسى أيضًا . . كان جريحًا مذهولاً، وكان يخترق معنا عرض الصحراء مع قافلة اللاجئين الهاربين من وحشية الصهيونيين فى حيفا . . ».

فقالت وهى لا تكاد تصدق ما تسمع :

- «ماذا تقول؟؟ أأبى حى؟؟ لست متأكدًا أيها الأخ . . أليس كذلك؟؟ إن أسرتى فنيت عن آخرها . . رأيتهم جميعًا يصرعون، ثم اختطفنى اليهود و . . وأخيرًا هربت من معسكر الاعتقال وأتيت إلى هنا . . ».

وبدأ الانفعال يجتاحها، وتجسمت لخيالها المأساة من جديد، الأرواح التى أزهقت هدرًا . . أعز الناس لديها كيف ذهبوا جميعًا إلى العالم الآخر فى لحظات، وبطريقة بشعة «العدوان الرهيب» على كرامتها كفتاة ترى الشرف كل شىء فى الحياة، وامتلأت عيناها بالدموع، ودارت رأسها، وتهالكت، فامتدت إليها أيدى الرجال، وأسندوها حتى أضجعت وهى تهمس بصوت واهن :

- «إلىّ بجرعة ماء».

عندما لامست «الزمزمية» شفتيها الجافتين، كانت كطفل جائع يتوق إلى ثدى أمه، وأخذت تجرع الماء فى نهم حتى ارتوت، ثم همست قائلة :

- «أشكركم يا رجال».

وفتحت عينيها من جديد، وأخذت تعيد النظر إلى الوجوه المغبرة التى تحيط بها، الوجوه العربية التى لوحتها الشمس وأضناها السهر، إن هؤلاء الرجال لا شك يفكرون بالليل والنهار . والتفكير يقلقهم ويبعث الأرق فى ليلهم، فى الليل ينقضون كالصقور، وفى

النهار يقبعون فى حرص ويقظة، إنهم يحملون على كواهلهم مستقبل أمة، ويتكلفون بالحفاظ على مصير شعب، آلاف مثلهم ينبثون فى أعماق الصحراء العربية فى أرض فلسطين، ويختفون فى البيارات، ويحاصرون مشارف المدن والمستعمرات الإسرائيلية ويضحون بالنعيم الدنيوى والراحة المادية، وزهرة أعمارهم من أجل مبدأ.

وأفاقت «نجلاء» مرة أخرى على صوت «خميس» يقول:

- «أنا أعرف أبا نجلاء كان معنا.. لقد تركته منذ وقت قريب مع العم إسماعيل ريحان وباقى اللاجئين فى قرية تبعد عن هنا عشرين كيلوا متراً، لكنه بكل تأكيد قد غادر القرية الآن..».

وغمغم: «هذه معجزة يا معلم..».

- «بالتأكيد لم تكن إصابته قاتلة».

- «وباقى الأهل..».

ولما أطرق «خميس» صامتًا، قالت:

- «ألم ينجُ منهم أحد؟؟».

- «للأسف..».

- «قضاء الله أيها الإخوة.. كنت أتمنى أن يعيش إخوتى وأن يكونوا الآن إلى جواركم يخوضون هذه المعركة المقدسة. ولو نجوا من الغدر وماتوا هنا على هذه الأرض فى معركة مكشوفة لما بكيت

عليهم . . لكن ما الحيلة وقد انتهى الأمر . . » .

ثم رفعت رأسها وقالت :

- «أين قائدكم؟!

- إنه هنا . .

وتقدم رجل قصير ذو لحية سوداء، وبنظرات حديدية ثابتة :

- «أنا فى خدمتك . . » .

- «من أين؟؟» .

- «من مصر . . كلنا إخوة» . .

- «أتقبلنى ضمن رجالك؟؟» .

وهنا تدخل فتى ظل صامتًا طوال الوقت، ينظر إليها ويستمع إلى حديثها دون أن يعلق، قال صالح أحمد بدران طالب الآداب القادم من القاهرة :

- «إنه لأليق بها أن تنضم إلى هيئة التمريض فى أحد المستشفيات أو مراكز الإسعاف . . » .

قالت «نجلاء» فى إصرار :

- «آلاف غيرى من الفتيات يستطعن أن يقمن بمهمة التمريض فى الحرب . . تختلف المشارب، منا من يهوى تضميد الجراح ومداواة المصابين، ومنا من يطلق مدفعه ليقتل المعتدى . .

ليقتص . . أنا واحدة من الصنف الأخير . . هل فهمت؟» قال صالح متفلسفًا :

- «الحقد وحده يعمي ويقود للتهور والخطأ» .

فقالت بسرعة :

- «لكنى صاحبة مبدأ وقضية ، وعلى هدى مبدئى أسير . ليس بالحقد المقدس وحده نخوض المعركة ، وليس بالسلاح وحده نضرب فى صدور العدو ، ولكن بمنطق الحق والعدالة والسلاح نسير فى الطريق الطويل الدامى إلى تخليص وطننا السليب . . هل فهمت؟!» .

وتقدم فتى نحيف العود فارع الطول اسمه نادر ، وقال فى لهجة رقيقة : «يسعدنا أن تكونى إلى جوارنا» .

وحسم القائد القصير ذو اللحية السوداء الأمر قائلاً :

- «حسنًا : لك ما تريدين . . نحن هنا سبعة ضمن كتيبة عمر بن الخطاب ، عهد إلينا بالبقاء فى «سور باهر» فى مواجهة نقطة حراسة يهودية شديدة المراس . . وستكونين أنت الثامنة . . » .

وافتر ثغرها عن ابتسامة حزينة وهى تقول :

- «أشكرك سأكون عند حسن ظنكم جميعًا . . » .

وأردف القائد القصير ذو اللحية السوداء :

- «ليس المهم أن نضحى ونموت دون خوف ، بل الأهم من هذا

كله أن نصنع شيئًا . . أن نحافظ على حياتنا من أجل المعركة التى قد تطول، إن موت واحد منا عزيز علينا لأبعد مدى، ولهذا نحن نعمل هنا فى شجاعة لكن دون تهور، ونفكر طويلاً لا ترددًا وجبنًا، ولكن من أجل الوصول إلى أسلم النتائج وأضمنها وبأقل الخسائر . . » .

وهزت «نجلاء» رأسها قائلة :

- «فهمت . . سترون أنى أستحق زمالتكم وثقتكم» .

كان التعب يبدو فى عينيها، وكان التراب العالق بأهدابها وخصلات شعرها وثيابها ينبئ عما كابدته من مشاق طوال سفرها الطويل المليء بالعقبات والأخطار، ولم يفت ذلك «صالح» الذى همس فى أذن القائد قائلاً :

- «إنها فى حاجة إلى الراحة . . » .

وتدخل «نادر» دون حاجة إلى ذلك وقال :

«إنها متعبة . . مسكينة . . يجب أن نهيئ لها أسباب الراحة فورًا . . » .

قال القائد وهو يخفى نظراته :

- «هذه نوبة صالح وخميس شاهين . . وأنت أيتها الأخت تستطيعين أن تأوى إلى الكهف القريب لتتناولى بعض الطعام الجاف وكوبًا من الشاى الساخن ثم تنامى قليلا . . » .

فقالت مجاملة :

- «لكنى أستطيع القيام بما يجب علىّ من أعمال فورًا . . » .

قال القائد فى حزم :

- «نفذى الأمر دون مناقشة . . أنت جندى الآن . . » .

فهبت واقفة ، واتجهت إلى حيث أشار القائد وهى تقول :

- «سمعًا وطاعة . . » .

وخطت إلى طريق ملتــو هابط ، حــتى بلغت البــاب الموارى للكهف ، ثم دلفت إلى الداخل ، كانت بالكهف كومة من القنابل اليــدوية ، وكــمــيــة لا بأس بهــا من الذخــيــرة ، وبعض المدافع والمسدسات ، وقفص كبير به بعض المواد الغذائية ، وموقد غازى ، وبرميل كبير للماء ، وبعض الأغطية والمفارش والمهمات الخفيفة ، واتخذت لها جانبًا ، ثم لفت بطانية حتى جعلتها أسطوانية الشكل ، وألقت برأسها عليها ، وشعرت باطمئنان كبير يسرى فى كيانها .

وسرعان ما راحت فى سبات عميق .



الفصل العاشر

استطاع قائد كتيبة «عمر بن الخطاب» أن يقضى على ألوان الحرج التى ترتبت على وجود فتاة واحدة بين سبعة رجال، لم يكن هذا شيئًا مألوفًا لدى عقلية الرجال وتقاليدهم والخجل التقليدى الذى لازمهم، لكن القائد أمكنه أن يعد لها ركنًا منزويًا تمام الانزواء فى تجويف صخرى مجاور للكهف الذى يقيمون فيه، كما أمكن الفتاة بحزمها وصلابتها وأحزانها التى لا تفارقها أن تزيل الحرج، ولا شك أن عنف المعارك وخطورتها قد جعل الجميع مجرد جنود يفكرون فى القنابل والألغام والهجوم والموت والحياة، وعند تناول الطعام كانت «نجلاء» تقوم بتوزيعه عليهم، وإذا ما وجبت الصلاة وقف القائد ذو اللحية السوداء فى المقدمة كإمام ثم تلاه الرجال، ومن خلفهم تقف «نجلاء» خاشعة بين يدى الله تؤدى الصلاة، وفى نوبة الحراسة تلتزم مكانها، لابسة سروالاً خشنًا، وسترة ضافية، وطاقية من القماش الأصفر، وفى أغلب الأحيان كانت تلف شالاً حول رأسها وجانبى وجهها وعنقها، فلا يمكن - عندئذ - التفرقة بينها وبين الرجل. . ولم يكن يضايق القائد سوى مرح «نادر»

المبالغ فيه، وتبسطه في الحديث معها، والثرثرة بمناسبة، وغير مناسبة، غير أن القائد كان يكتفي بلفت نظره، مقدراً طبيعة المرحلة، وميله للترفيه البريء، ومع ذلك فعندما انفرد صالح بدران بخميس شاهين قال له:

- «لم أكن أتصور أن قائدنا يقبل امرأة معنا..».

- «ولم لا؟؟ إننا في حاجة إلى أيد كثيرة تهدم الفساد ثم تقيم على أنقاضه دعائم حياة جديدة حرةً.. وفي رأيي أن قائدنا رجل عاقل ذكي، ألا ترى أن «نجلاء» مريضة النفس من جراء المأساة التي عاشتها، وأنه لا علاج لها إلا بالانغماس في المعارك العنيفة، إنها بذلك تؤدي واجبًا وفي الوقت نفسه تجد في ذلك شفاء،..».

وهز صالح رأسه قائلاً:

- «معقول..».

- «ثم لا تنسَ أنك في الجامعة ترى الفتيات إلى جوار الفتيان، وفي الشارع يسير الرجال إلى جوار النساء، وفي المصانع ودواوين الحكومة أصبح طبيعيّاً أن يعمل الجنسان جنبًا إلى جنب، فلماذا لا يحدث ذلك في حقول الألغام والنضال؟».

فقال صالح مغضن الجبين:

- «صناعة الموت رهيبة، والنساء رقيقات..».

-«ربما، لكن «نجلاء» قد انصهرت في بوتقة الأسى الحارق وهي ترى بعيني رأسها أهلها يذبحون..».

- «هذا مؤلم . . » .

ثم أردف «خميس» بعد فترة صمت :

- «وفى الحرب القادمة إذا ساء حظ العالم واندلعت شرارتها فإن أى فرد - امرأة كان أم رجلاً - يمكنه أن يضغط على زرار فى لوحة صغيرة ، فتنطلق الصواريخ ذات الرءوس الذرية ، والأسلحة الرهيبة إلى مجالات بعيدة ويفنى آلاف . . بل ملايين البشر . . يا صديقى إن العالم يتطور ، ومقاييسه تنقلب رأسًا على عقب . . »

قال صالح وهو يحاول تنظيف مدفعه ، وينفض عنه الغبار ويتأكد من صلاحيته للعمل :

- «كان الله فى العون . . » .

- «مدينتنا متوحشة منحرفة ، برغم ما حققته من تقدم علمى رائع . . » .

فقال «خميس» على الفور :

- «لأنها مدنية كافرة نسيت الله . . » .

- «بل عزلت الله والدين فى الكنائس والأديرة ، ونحته عن معترك الحياة الصاخبة . . » .

- «وهذا الانفصام يا عزيزى صالح قد يؤدى إلى الكارثة» .

- «فليرحمنا الله ! » .

صاح القائد بصوت حازم: «اجمع هنا».

وتلاقى السبعة ومعهم «نجلاء» بعد لحظات..

كانت العيون مركزة عند شفتى القائد، وكأنهما مغناطيس يجذب اهتمامهم ونظراتهم، كان قائدهم غريبًا، انفعالاته دائمًا غامضة لا تبدو على وجهه، وفى أحرج الأوقات لا تبدو الارتعاشة فى يديه أو شفتيه، يصدر الأوامر الرهيبة بنبرات هادئة، وكأنه يتسامر مع أصدقاء أصفياء فى ليلة مقمرة جميلة، حتى الانتصارات الضخمة التى يحققها أحيانًا لا يتحدث عنها إلا وكأنها شىء طبيعى يجب أن يكون دائمًا، يشعر بالتقصير، ويشعر رفقاؤه -مهما فعلوا- أنهم دون المستوى، وأنهم يستطيعون أن يضاعفوا الجهد ويحققوا ما يسمى بالمعجزات، حتى نومه.. إنه يستلقى وكأن الموت أو الحياة لا يعنيه فى قليل أو كثير، وإذا ما هتف به أحد ولو بصوت خفيض فتح عينيه وأجاب وكأنه لم يكن نائمًا... وبعد أن تجمعوا قال القائد:

- «أيها الإخوة.. جاءتنا رسالة عاجلة من قائد القطاع، على كتيبة عمر بن الخطاب.. س. ب قنّاصة.. أن تهاجم الموقع اليهودى ٤ ش فى منتصف الليلة.. يجب الاستيلاء على الموقع ٤ ش بأى ثمن..».

ثم قال القائد مستطردًا:

- «إن هذا الموقع اليهودى أيها الأصدقاء يبعد عن هنا خمسة كيلو مترات، فوق تبة متوسطة الارتفاع، وهذا الموقع يغذى النقاط اليهودية

ومراكز الحراسة بالمعلومات والأوامر والمؤن . . إنه منطقة رئيسية مهمة من الناحية الإستراتيجية . . ومن ثم فإن احتلاله سيكون خسارة كبير للعدو، وسيربك خططه فى هذه المنطقة : بقدر ما سيكون كسبًا كبيراً لنا . . يجب أن نبادر بتنفيذ الأوامر الصادرة لنا قبل أن تقترب القوات العربية النظامية من هنا . . يجب ألا يكون فى طريقها عوائق تؤخر الزحف . . من يدرى قد نطبق على «تل أبيب» مع أيام العيد؟؟

وسادت فترة صمت قصيرة قال خميس بعدها :

- «الطريق إلى الموقع ٤ ش مكشوف تمامًا، والموقع على تبة عالية، ومن ثم فإن القناصة اليهودية قد تقضى على أية قوة تزحف نحوالموقع . . ».

كانت «نجلاء» فى شوق جارف لخوض المعركة، لم تكن تحب أن تسمع أى اعتراض، أو تقبل أى تأجيل، لهفة مجنونة تدفعها إلى التقدم السريع والعمل البطولى، لهذا قالت :

- «شجاعتنا وإصرارنا ستسهل لنا المهمة وسترون أننا سنطبق على الموقع ٤ ش دون أن نفقد نقطة دم واحدة . . ».

قال القائد :

- «أمنيات جميلة يا عزيزتى لكنها غير عملية . . الطريق مكشوف وتقدمنا على أرض منخفضة يتحكم فيها العدو من مركز مرتفع كيف نهاجمه؟؟ هذا هو السؤال . . ».

الدم الثائر يجرى فى عروقها حاراً دفاقًا، وقشعريرة عجيبة تهز جسدها هزاً، وأصابع يدها تنقبض وتنبسط وهى ممسكة «بالبرن»، لكم تحدثها نفسها أن تترك أفراد الكتيبة وتجرى.. بكل ما وهبها الله من قوة، ثم تزحف إلى حيث يقبع ثعالب اليهود فى خنادق محكمة يسمونها «الدشمة»، ثم تصب نيران مدفعها فى ثغرات تلك الدشم ومنافذها وتقضى على وكر الثعالب.. لكن ما الحيلة وقائدها حريص حتى توشك أن تتهمه بالتردد، يريد أن يدرس كل الاحتمالات حتى لتكاد ترميه بالحذلقة وتضييع الوقت؟ لكنها أدركت أن المسألة ليست مجرد حياة أو موت، بل هى فى الوقت نفسه أمر انتصار أو هزيمة، وهى الآن فى حرب ضمن مجموعة من الجنود يفكرون ليحققوا أعظم الانتصارات بأقل الخسائر، ثم إن عليها الطاعة وعدم التهور.

قال القائد القصير ذو اللحية السوداء:

- «عندى فكرة..».

فتطلعوا إليه باهتمام، وأعطت «نجلاء» كل سمعها وبصرها وكيانها، وحدست أن هذا الرجل يوثق به، وأنه لا شك سيأتى بأفكار رائعة، واستطرد القائد:

- «سنهاجم الموقع ٤ ش من الخلف..».

قالت «نجلاء»:

- «كيف؟؟».

فجلس القائد على الرمال، وحاول أن يرسم خريطة للموقع اليهودى المواجه، ثم قال:

- «يجب ألا نتحرك من هنا إلى الموقع ٤ ش مباشرة.. لأننا لو فعلنا ذلك سهل اقتناصنا، وهذا الميدان المكشوف هو الجهة الوحيدة التى يؤمن اليهود أنه لا يأتى هجوم إلا منها، لأنه لايصدقون أن يأتى أحد من خلفهم حيث الاتصالات والدوريات مستمرة بينهم وبين مواقعهم الخلفية، لهذا أرى أن ننقسم إلى مجموعتين واحدة تتجه إلى يمين الموقع ٤ ش، ثم تقوم بحركة التفاف حوله حتى تبلغ نقطة خلفه، ويلاحظ أن تمر هذه المجموعة حول الموقع على بعد معقول بحيث لا تقترب منه فيضيع تدبيرنا إذا ما رأوها، أو تبعد كثيراً فيصيبها التعب أو تقع فى كمين موقع إسرائيلى مجاور.. هذه الخطة لن تكلفنا سوى قطع مسافة أكبر على الأقدام، ووقتًا أطول، لكنها ستكون ذات نتيجة حاسمة بإذن الله..».

وابتسمت «نجلاء» لأول مرة فى نشوة، لشد ما تسحرها تلك الأفكار النيرة الواثقة، لو كان كل الرجال فى المعركة على هذا النمط فسيكون النصر أكيدًا لا محالة، لكن خميس أفسد عليها استمتاعها حينما سمعته يقول:

- «لكن قد يتصادف وتكون هناك دورية صهيونية فى طريقها إلى الموقع آنذاك..».

فقال القائد ببساطة:

- «جائز جداً . . ».

فقالت «نجلاء» فى حدة :

- «إن «خميس» يحاول تعقيد كل شيء . . ».

فقال القائد :

- «كلا يا عزيزتى إنه اعتراض وجيه . . ».

- «إذن لن ننفذ الخطة ، وسنضيع وقتنا فى المناقشات . . ».

كان صالح يقف إلى جوارها ، ونظر إلى وجهها الشاحب المنفعل ، وشفتيها المزمومتين ، وعينيها الحزينتين الغاضبتين ، وأنفها الدقيق المتناسق ، واستدارت بوجهها الذى يزيده الشال الملفوف استدارة ، ثم قال :

- «صبرًا يا أخت . . سنصل فى النهاية إلى عمل ترضين عنه . . لا تنسى أن قائدنا قال : يجب المحافظة على حياتنا دائمًا لا جبنًا من الموت ، ولكن من أجل امتداد المعركة والحصول على النصر بأدنى الخسائر . . ».

والتفتت إليه عازمة أن تقهر منطقه ، لكن الصدق الذى خالط نبراته ، والوداعة التى ارتسمت على ملامحه منعتها من الكلام ، وأسرع القائد قائلاً :

- «إذا حدث وتصادف مرور دورية فى هذا الوقت خلف الموقع ، فعلى المهاجمين أن ينتظروا حتى تتوارى أو تنضم إلى قوات

الموقع ٤ ش، ثم تبدأ المعركة، وعلى العموم لن تبدأ المعركة إلا إذا وصلت مجموعتنا الثانية من الجهة الأخرى المقابلة . . » .

هز «خميس» رأسه قائلاً :

- «كلام سليم . . » .

أخذ القائد معه ثلاثة أفراد، وكانت «نجلاء ثالثتهم، وقاد خميس شاهين المجموعة الثانية يرافقه صالح بدران ونادر، وتصافح الجميع، ثم افترقوا كل فى طريقه، وسار القائد فى مقدمة مجموعته، كان الظلام دامسًا، وذئاب تعوى من بعيد، ورأس «نجلاء» يدور بآلاف الذكريات والأفكار والآمال، كلها متداخلة غير محددة تمامًا كالأفق الأسود الذى يبسط وشاحه القائم على العالم الممتد الفسيح، لم يعد الجو حارآً، لكن قطرات العرق كانت تتراص على جبينها الناصع كحبات الخرز الصغيرة، وساقاها النحيلتان تغوصان فى الرمال أحيانًا كثيرة، لكنها لم تكن قد شعرت بالتعب بعد، وعادت إلى ذاكرتها صورة «الميجور» الصهيونى الذى مزق قميص نومها، وأخوها الذى أفرغ فيه رصاصاته ثم قتلوه، وأفراد أسرتها الذين واجهوا الحائط، ثم دهمهم الرصاص من الخلف، والليلة السوداء، ليلة المخدر الذى حقنوه فى جسدها ليسرقوا عزيزًا غاليًا . . آه . . ما أقسى الحياة . . لكم تمنت الموت فى هذه اللحظات .

وصحت من أحلامها على صوت القائد يقول :

- «على الرغم من أن هذه الأرض أرض الأنبياء والروحانيات، إلا أنها شهدت معارك غزيرة، وسالت عليها الدماء غزيرة.. مصير الرومان تحدد هنا.. ومصير التتار وكذلك الصليبيين الذى تحطمت آمالهم على هذه الصخور الشماء.. ومعارك الحرب العالمية الأولى وثورات العرب ضد الترك.. أليس غريبًا أن تكون أرض الأنبياء بحيرة للدماء على حقب التاريخ؟؟».

قالت «نجلاء» وهى تفكر بإمعان:

- «حماقة الإنسان.. لو كان منصفًا لقبّل ثرى هذه الأرض المقدسة.. لكن الأطماع دائمًا تلوث المقدسات..».

قال القائد وهو يغز السير:

- «لذا نحن هنا للحفاظ على هذه المقدسات.. ثم إن إعطاء الباغى درسًا قاسيًا أمر لا بد منه حتى تستقيم أمور الحياة..».

وبعد فترة صمت قالت «نجلاء»:

- «أتعرف حائط المبكى؟».

- «لقد زرته فى القدس..».

- «كنت صغيرة، وفى أحد أعياد اليهود رأيت بعضًا منهم يتزاحمون جوار الحائط ويبكون.. قلت لأبى لماذا يبكون؟؟ قال إنهم يبكون هنا كل عام.. لذا سمى حائط المبكى.. هم يبكون مجدهم الغابر، يا ابنتى إنهم سيبكون أبد الدهر لأنهم يبكون الوهم والأحلام».

قال القائد:

- «أعرف ذلك، لكن ما مناسبة هذا الكلام؟..».

- «إن مما يغيظنى أن كل إنسان - مهما كان ظالمًا - يعتبر نفسه صاحب الحق، كثيراً ما يخدع الإنسان نفسه، حتى اللص الذى يسرق يعتبر نفسه صاحب حق فى مال الأغنياء..».

- «لكن الأمر بسيط.. إن الحكم الموضوعى العادل ينفى كل شك.. فمن العدل أن يفهم اللص أنه بدلاً من أن يسرق يجب أن يسعى ويجد، ويكوّن لنفسه ثروة.. أما أن يسرق ليأكل فهذا انحراف صريح.. يجب أن يكدح ليأكل ولا يسرق ليأكل.. وفى خيرات الأرض متسع للجميع.. مثلاً.. كان اليهود يعيشون هنا كمواطنين شأنهم شأن المسلمين المسيحيين واللادينيين، ولكن الطمع والأثرة دفعتهم للأنانية، واغتصاب أرض العرب.. لو حاول كل أتباع دين فى كل دولة من الدول أن يستقلوا بوطن، ولو تطور الأمر وفكر أصحاب كل مذهب فى الدين الواحد أن يستقلوا بدولة، لتحول العالم إلى مجموعات صغيرة ممزقة متحاربة تمامًا كالعهود القبلية، حيث القبائل تتحارب من أجل الآبار والكلأ واتساع الرقعة.. إنها حماقة كبرى يا عزيزى وواجب العقلاء أن يقضوا على هذه الحماقات..».

قالت «نجلاء» وقد تشربت نبراتها بالبكاء:

- «حق ما تقول.. كلما تساءلت لماذا قتل أهلى على تلك

الصورة البشعة؟ ولماذا عاملونى تلك المعاملة الوحشية؟ تدور الأرض بى ولا أجد سببًا معقولاً اللهم إلا شراهة الإنسان وحقارته . . ».

وعاد الصمت يغلف المكان، لم يعد يُسمع غير وقع الأقدام التى تضرب الأرض ضربات مكتومة، والأنفاس اللاهثة من جراء الخطوات العجلى، والانفعال المستولى عليهم . . وقطع القائد الصمت قائلاً :

- «ترى كيف حال رفاقنا الآن فى الجهة الأخرى . . ».

قالت «نجلاء» :

- «لا شك أنهم بخير . . ».

- «الله معهم . . »

- «أرجو ذلك . . ».

وامتد بصرها عبر الظلمة، ثم همست :

- «تواجهنا هضبة صغيرة . . ».

- «هذا عظيم . . إنك ترين الأشياء بقدر من الوضوح فى الظلام . . عيون قطة يقظة . . ».

ولدى حافة الهضبة توقف الأربعة، وأخرج القائد من جيبه بوصلة ثم قربها من عينيه، وقال لنجلاء : «انظرى معى . . » وبعد فترة تأهيل ومناقشة قال :

- «نحن فى الجنوب الشرقى من الموقع على بعد ثلاثة أميال».

قالت «نجلاء»:

- الطريق طويل وشاق..».

فأجاب القائد:

- «أجل.. لكننا سنصل بإذن الله..».

- «أتعتقد أننا سنستولى على الموقع؟».

- «ولم لا؟؟ كل شىء جائز.. ليس أول موقع نستولى عليه ولا هو آخر المواقع.. قد نفرح لاحتلاله، وقد نحزن إذا ما فشلنا، لكنها كلها انفعالات طارئة سرعان ما تذوب بمرور الوقت.. الذى يهمنا هو النتيجة النهائية..».

- «أجل..».

***

وأخيراً تلاقت المجموعتان خلف الموقع ٤ ش، لم يكن يفصلهم عنه سوى نصف كيلو متر، وانتظروا قليلاً حتى استردوا أنفاسهم اللاهثة، وقاسوا المكان بنظراتهم الكليلة حتى يحدها الظلام وطبيعة الأرض المنعرجة، ثم قال القائد فى هدوء:

- «على القطة أن تسد نظراتها أمام وخلف.. هل ترين شيئًا.. أو تسمعين حركة؟».

قالت رابطة الجأش:

- «كل شيء هادئ تماماً . . ».

- «حسناً، سنهاجم الموقع زاحفين على هيئة نصف دائرة أو أكبر من نصف دائرة بقليل . . أنتم تعرفون بناء «الدشمة» وتصميمها . . ليس هناك طريقة للقضاء عليهم سوى وضع أصابع الديناميت المشتعلة والقنابل شديدة الانفجار في ثغرات، «الدشمة» إنها الوسيلة الأكيدة لإتلاف الرجال والعتاد معهم . . ثم المباغتة ستقضي على كل مقاومة . . ».

وتفرّقوا على هيئة دائرة يفصل بعضهم من بعض مسافات كافية، في هذه اللحظات الحاسمة حيث الخطر، نسي كل منهم جميع مشاغله حتى نفسه نسيها، لم يعودوا يذكرو سوى المهمة الملقاة على عاتقهم، لكن «خميس» طرأت في ذهنه فكرة وسرعان ما ترك مكانه وأسرع نحو القائد قائلاً في همس:

- أرى أنه لا بد أن يهاجم أحدنا الموقع من الأمام . . إنهم لا شك سيوجهون رصاصتهم نحوه إذا ما اكتشفوا الأمر، عندئذ سيكون كل اهتمامهم منصباً نحو الجهة الأمامية وهي الجهة التي يتوقّعون أن يأتي الخطر من ناحيتها، وبهذا تنكشف ظهورهم تماماً . . ».

وشد القائد على يد «خميس» في حماس قائلاً:

- «عين الصواب . . فلأذهب أنا . . ».

- «كلا، لتبقَ كما أنت، وسأقوم بتنفيذ فكرتي، وسأعرف كيف أفلت من رصاصهم . . ».

شد القائد على يده فى حماس وقال :

- «على بركة الله . . » .

وازداد اقترابهم من الموقع ، وفجأة انصبت النيران من الدشم ، لكنها كانت فى الاتجاه الأمامى ، ورأى «خميس» أن خطته قد نجحت إذ وجه الأنظار إليه ، وبدا له أن التقدم بالنسبة له انتحار أكيد ، لهذا بحث لنفسه عن ساتر واختبأ خلفه ، ثم اكتفى بأن ظل يطلق نيران مدفعه من آن لآن حتى يظل جاذبًا أنظارهم نحوه ، دون أن يطمع فى أكثر من ذلك . . كانت النيران الصهيونية تُقذف بجنون ، وبقى الأمر هكذا بضع دقائق ، وفجأة دوّى انفجار مريع ، تبعته بعض الصرخات الهالعة ، وخفت على أثره نيران العدو . . ثم انفجار ثانٍ وثالث . . وهمس القائد :

- «أحسنت صنعًا يا نجلاء . . لقد أسقطت المتفجرات فى سرعة ودقة غريبة . . ﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧]

ثم التفت إلى الرجال ونجلاء ؛ قائلاً :

- «انتظروا . . سوف أتقدم وأحاول دخول الدشمة . خذوا هذا المدفع . . يكفى مسدس . . » .

عندما بلغ الدشم ، سمع أنينًا خافتًا فهتف بصوت أجش :

- سلموا أنفسكم . . لن تصابوا بسوء . . » .

فتحول الأنين الخافت إلى استغاثة ضارعة :

- «أنا مصاب . . لا أستطيع الحركة . . » .

- «أين الطريق إلى الدشمة؟» .

- «ارفع الغطاء الحجرى . . وادخل . . » .

- «إنى أحذرك من أى تصرف أحمق أنت ورفاقك . . إن معى مجموعة كبيرة من الرجال، واستعدادات هائلة . . » .

- «تقدم . . الرفاق ماتوا جميعًا . . وأنا أكاد أموت . . أنقذنى . . » .

رفع القائد الغطاء الحجرى، ونظر عبر الدهليز المعتم فلم يستطع أن يرى شيئًا، واصطدم أنفه برائحة الدم والدخان والاحتراق، فأخرج من جيبه كشافًا صغيرًا وأرسل نوره عبر السرداب . . فرأى الأرض وجزءًا من الدشمة . . وعول على أن يثب داخلها بسرعة فإذا ما بلغت قدماه الأرض، كان عليه أن يتحول عن موضعه بسرعة؛ حتى لا يعطى فرصة لحركة غادرة تودى به . . لابد أن يدخل الدشمة مهما كانت التضحية . . وتصرف بلباقة ومرونة وما كاد يصل أرض الدشم حتى وثب فى اتجاه آخر وهو يضىء نور الكشاف بيد، والمسدس فى اليد الأخرى، حركة سريعة لم تستغرق لحظات، ولا يدرى متى ولا كيف انطلقت رصاصة أصابت ذراعه اليسرى، فعاجل الجانى بعديد من الطلقات حتى قضى عليه . . كان الدم ينزف من جرح سطحى فى ذراعه لكنه لم يكن يشعر بألم بعد . . وجاس بنظراته خلال الحجرة الصغيرة . . آثار احتراق هنا

وهناك . . ومدافع ومسدسات ومهمات لم تزل تحترق . . وخمسة من الرجال . . خمسة فقط لكنهم ممزقون . . واتخذ وضع التحفز والاستعداد حينما هبط عليه ثقل من أعلى .

- «لا تخف» رأيت أن أتبعك بعد أن سمعت طلقات الرصاص . . » .

- «نجلاء؟؟» .

لم تكد تمر دقائق معدودة حتى كان كل شيء هادئًا تامًا ، وتم الاستيلاء على الموقع ٤ ش حسب أوامر القيادة ، وعندما اجتمعوا عند الموقع ، تساءل القائد : «أين "خميس"؟؟» .

فجاءه صوت على مقربة : «قادم إليك . . أنا بخير . . » .

وغمغم القائد :

- «نحمد الله على أن وصلنا إلى هذه النتيجة المشرفة فى وقت قصير وبلا ضحايا . . » .

قال صالح بدران :

- «لم تكن شجاعتنا وحدها هى السبب ، بل التفكير السليم والخطط البارعة . . » .

قال القائد : «وتوفيق الله . . » .

ثم استطرد القائد :

- «عشرات . . بل ألوف يفعلون الآن ما نفعل . . نفس التضحيات والبسالة من أجل تصحيح القيم الخاطئة، والموازين المقلوبة . . لكن تذكروا يا إخوانى، أنه ليس دائمًا أن نرجع من المعارك بلا خسائر . . دائمًا يموت رجال شجعان فى ميادين الشرف ولا يقلون عنكم خبرة وذكاء وبطولة . إنها مشيئة الله . .

مرة ثانية يقول «نادر» وهو يهز رأسه فى حركات تمثيلية مضحكة :

- «نحمد الله»، ثم يردف القائد :

- «ليس المهم أن نستولى على الموقع ونطهره، بل الأهم أن نحافظ عليه، وأن نقضى على جيوب العدوان المجاورة، إن ما فعلناه أمر سهل ميسور . . » .

وشرب الرجال الماء، وجلسوا يستريحون، لكن «نجلاء» انفجرت باكية، ثم أخذت شهقاتها المتلاحقة تتناهى إلى أسماعهم مكلومة دامية، فاقترب منها صالح بدران :

- «ما الذى يبكيك يا أخت؟» .

قال القائد باسمًا :

- «دعوها تنفث عن نفسها، لقد قامت بعملها على خير وجه . . » .

وتغضن جبين صالح أسى وشعر بالحرج وهو يقف إلى جوارها، لكنه على الرغم من ذلك استمر يقول :

- «يجب أن تسعدى بهذا النصر . . » .

- «أنا لا أدرى لماذا أبكى ، إننى أخجل من نفسى . . معذرة أيها الإخوان ، . . سامحونى . . لن أفعلها مرة ثانية . . » .

ثم جففت دموعها ، وعادت إلى الرجال المتجمعين حول قائدهم ، ثم قال القائد :

- «يجب أن تنامى ساعتين ، وعند الفجر اتجهى نحو موقعنا القديم ، سيفد إليك فى الصباح مجموعة من الرجال ويقولون لك : أتينا للمرابطة فى الموقع س . ب قناصة ، احملى إليه نتيجة المعركة وتلقى من عندهم أنباء وأوامر ثم عودى إلينا . . أعرف أنك متعبة لكن لا شك سعيدة . . » .

وابتسمت «نجلاء» هذه المرة وقالت :

- «أشكرك . . سمعًا وطاعة . . » .



الفصل الحادى عشر

خرج «خميس شاهين» من الموقع ش ٤ قاصداً الكهف القديم س. ب قناصة، ومن الموقع الأخير ركب عربة «جيب»، ليقوم ببعض المهام التى كلفه بها قائده، كان عليه أن يجمع عشرة من المتطوعين الأشداء، وأن يقوم بتدريبهم فى مكان أمين، ثم يعود بهم ومعه بعض المؤن والذخائر والأخبار التى سيتحركون على صوتها، وقصد لتوه القرى التى لجأ إليها مع إخوانه المهاجرين منذ أيام. كان يخترق المسارب غير المطروحة، ويصعد ويهبط عبر الطرق المتعرجة تحت حر الشمس اللافح، ورأى بعينيه الطرق التى تعج باللاجئين من جميع الجهات أطفالاً ونساء ورجالاً، إن بنى قومه يهيمون على وجوههم فى الطرقات، بعد أن فقدوا الأمن وساد حياتهم الارتباك المخيف، ومن آن لآخر يرى معسكراً للفدائيين يزاولون أعمالهم فى صمت عاصف، وأحياناً أخرى يرى قرى صغيرة مهجورة فقدت الحركة والحياة، وحقولاً واسعة قد تلف الزرع فيها أو جفت عيدانه، وأشجار الفاكهة مثقلة بالثمار التى تتعفن وتتساقط. وشعر «خميس» بأحزان قاسية تعمل فى قلبه

الرقيق، ما أعجبه!! فى المعركة، ووسط جماهير شعبه المشرد يشعر أنه مسئول وقائد، وهذا الشعور يحوله تمامًا إلى رجل قوى الشكيمة متفائل إلى أبعد حدود التفاؤل، لا يعرف الحزن ولا اليأس، فإذا ما آب إلى نفسه، ورأى المصير التعس الذى حاق بشعبه، تدفقت فى قلبه دموع لا ترى، وهاجمته آلام مبرحة، واستبدت به خواطر مزعجة؛ ترى ماذا يكون موقفه إذا ما سارت الأمور على غير ما يهوى، واستطاع الطغاة أن ينفذوا مخططهم الغاشم، ويضربوا مقدسات شعبه فى الصميم؟؟

وحينما بلغ «خميس شاهين» القرى قصد لتوه بيت حاكمها الذى استقبله استقبالاً طيبًا، وأفسح له عنده مكانًا، وبعد أن استراح قليلاً وتخفف من بعض ملابسه العسكرية، أخذ يشرح له السبب الذى جاء من أجله والأشياء التى تلزمه، ثم تشعب الحديث بهما عن المعركة وتطوراتها. قال رجل القرية الأكبر:

- «أقسمنا جميعًا ألا نغادر هذا المكان أحياء.. سنقاوم العدو حتى النهاية، وإذا ما داهم قريتنا فلن نخليها بأى حال من الأحوال، خير لنا أن ندفن هنا من أن نهرب أحياء إلى أى مكان آخر: نحن لا نرضى العار يا بنى.. كلما رأيت اللاجئين فى أسمالهم وتعاستهم وخطواتهم الكليلة أحسست بمرارة قاتلة. لن أكون لاجئًا وأنا صاحب الأرض والدار، ويوم يضطروننى لعمل ذلك فسأفضل الموت..».

قال «خميس» فى اقتضاب :

- «هذه روح طيبة . . » .

والتفت إليه الرجل فى انفعال وقال :

- «إن ما أقوله ليس مجرد تنفيث عن انفعال طارئ . . إنه شعور حقيقى جاء بعد روية وتفكير . . لقد تحولت قريتنا إلى معسكر للتدريب ، كلنا يجيد استعمال السلاح الآن حتى النساء ، وسنكون على أهبة المعركة دائمًا . . » .

قال «خميس» فى حماسة :

- «لو تحولت فلسطين كلها إلى معسكر كبير ، واستطاعت أن تحصل على السلاح لما استطاع العدو أن يتقدم شبرًا واحدًا ، بل لما استطاع الحفاظ على مواقعه التى استولى عليها غدرًا . . » .

- هو ذاك يا بنىّ . . بعد أن تستريح ، سترى بنفسك أماكن التدريب ، والحركة الدائبة ، والإصرار على المقاومة حتى النهاية . . » .

واستطاع «خميس» أثناء ذلك أن يقرأ بعض الصحف الصادرة فى دمشق وعمان والقاهرة ، كما سمع من الرجل بعض التفصيلات ، وعلم أن الجيش المصرى فى القطاع الجنوبى والجنوبى الشرقى استطاع أن يتقدم بسرعة مذهلة ، ويطوق كثيرًا من المستعمرات والمواقع اليهودية ، وأن يقضى عليها قضاء تامّاً ، وأن يثير الارتباك فى خطط العدو ويقطع خطوط تموينه ، وخاصة أن

الطائرات المصرية قد أقدمت على مغامرات بطولية فوق الخيال، بل إنها تهاجم «تل أبيب» نفسها، وتثير فى شوارعها الذعر والقلق، كما علم «خميس» أن القطاع الشرقى الذى تعمل فيه القوات الأردنية متطوعين وعسكريين نظاميين، قد خطا خطوات موفقة بعد أن عبر الحدود، وعلى الرغم من إعجابه بهذه الانتصارات إلا أنه لم يكن مرتاحًا تمامًا للجبهة الأردنية، ولم يكن هذا خافيًا على صاحب البيت الذى قال:

- «إن ما يزعجنى هو أن أثق فى جيش يقوده «جنرال» إنجليزى يدعى «جلوب باشا». . .».

قال «خميس» حانقًا:

- «إنها مهزلة».

فرد الرجل وهو يدق المنضدة بقبضته المتشنجة:

- «أمن المعقول أن يكون «جلوب» الإنجليزى أخلص للعرب من بنى قومه الإنجليز أصحاب الفضل الأول فى إنشاء إسرائيل؟؟».

- «مستحيل. . مستحيل. .».

«صدقنى يا بنىّ. . إن المعركة فيها كثير من الأخطاء. . فباسم وحدة الصف العربى نجبن عن الصراحة، وتسمية الأشياء بأسمائها، إننا نجامل ملك الأردن حتى لا يحدث تصدع فى جبهتنا وجميعنا يعلم أن جيش الأردن قيادته إنجليزية وميزانيته إنجليزية،

وأبناؤه الأصلاء الذين يحترقون فى المعركة لا يدرون بما قد يدبر لهم فى الخفاء، ولا يستطيعون أن يوجهوا أى نقد أو اعتراض».

قال «خميس» فى أسف:

- «يبدو لى أنه ليس من الحكمة أن نفتح جبهات متعددة، كأن نحاول إصلاح الوضع فى الجيش الأردنى فى الوقت الذى تحتدم فيه المعركة على أرض فلسطين، وإن معنى ذلك تشتيت الجهود، وتعميق أوجه الخلاف بين الدول العربية، وهذا يخدم الصهيونية أجل الخدمات.. إن تقدم الجيش المصرى هذا التقدم الموفق السريع، والانتصارات الرائعة التى يحققها الجيش العربى السورى عند الجبهة السورية، والجهد الأكبر الذى يؤديه الفدائيون الوافدون من أنحاء العالم العربى، كل هذا قد يغتفر الهنات الصغيرة، ويقضى على المخاوف التى يثيرها الوضع الراهن فى الجبهة الأردنية..».

وأطبق الصمت، كان كل منهما يشرد بأفكاره بعيدًا، هناك حيث المعارك الدامية، والصراع الرهيب، وهناك فى العواصم العربية حيث يحاول الاستعمار بما له من نفوذ ودهاء أن يصيب المعركة بالتميع، ويثبط من روح الثورة الشعبية المتدفقة كالسيل الجارف. وغمغم الشيخ فى مرارة:

- «يا للعار.. الشعب المشرد الذى ظل يبكى أحلامه لدى حائط المبكى منذ آلاف السنين.. يقهقه اليوم فى سخرية...».

- «ستنقلب قهقاته بإذن الله إلى عويل واستغاثة . . » .

- «يا ليت يا ولدى . . إن جيلنا يحمل تبعة ضخمة . . لكن ثق بى يا بنى أن المعركة طويلة المدى . . ولكنها أيضًا ستشعل النار فى أرجاء العالم العربى ، ومن لم يستيقظ من نومه سيحترق ، وعندما يشرق فجر اليقظة العربية ، ويتقدم الصفوف رجل عربى صميم ، وقائد مخلص ملهم . . فسيجمع ملايين العرب من حوله ويجمعهم على هدف واحد وقلب واحد . . عندئذ نستطيع أن نقول إن القضية الفلسطينية قد حلت على وجه يرضى العدالة ويحفظ لنا شرفنا وأمجادنا ومعتقداتنا . . » .

ترعرع الأمل فى قلب «خميس» وأطربته هذه الكلمات السحرية ووجد فيها المنطق السليم ، والتفكير العاقل الواقعى ، على الرغم مما وشاها من جمال الأحلام ، وروعة المنى ، وقال «خميس» :

- «كل ما يجب الآن هو أن تستمر المعركة . . لن يموت شعب بهذا الإصرار وهذه الروح العالية . . لأن الحق لا يموت . . » .

***

طاف «خميس» بأنحاء القرية ، واطمأن على سير الأمور سيرًا طيبًا ، بعد أن رأى حركة التدريب والإصرار على المقاومة ، واستطاع أن ينتقى عشرة من الرجال الأشداء الذين قطعوا مرحلة كبيرة فى مجال الاستعداد والتدريب ، كما استطاع أن يملأ العربة «الجبب» بما احتاج إليه من مؤن وذخائر ، كان يطلب كمية من

الأطعمة فيأتون له بضعفها، وكان يطلب أى شىء فيكون طلبه أمرًا واجب التنفيذ، وأسعده أن يرى روح التعاون تسود الجميع، وعند مروره بأحد مساجد القرية سأل عن مصير اللاجئين الذين حطوا رحالهم بالقرية منذ وقت مضى، فقال له الرجل :

- «لقد واصلوا السير صوب الشرق . . وأظن بلغوا مدينة «القدس» . . ثم إن أفواجًا أخرى من اللاجئين أتت من نواحٍ متعددة، وأقامت بعض الوقت ثم رحلت بدورها . . » .

وقضى «خميس» بالقرية ثلاثة أيام، أدى مهمته خلالها على أتم وجه، وفى اليوم الأخير، جاءه أحد أصدقائه القدماء وقدم إليه خطابًا . .

شاع الخجل فى حركاته، وتشربت وجنتاه بالحمرة، وتحول الأسد الشرس عند المعارك إلى شاب وديع، تتراءى فى عينيه الصافيتين الرقة والحب والحنان، وفض الغلاف بيد مرتعشة، ونشر الورقة أمامه، وفى ذيلها لمح اسم «ضحى» .

وخفق قلبه خفقات حلوة شجية، وأغمض عينيه ليحلم بالوجه الوادع الحبيب ذى التقاطيع الفاتنة المتناسقة، والنبرات التى تفيض شوقًا وودًا، والنظرات الخجولة التى تحمل كل معنى رائع من معانى الحب والوفاء، وغمغم بينه وبين نفسه : «عندما يعود السلام فسنعيش فى جنة وارفة الظلال، وسنحاول أن ننسى أحزان الماضى ومآسى الفرقة والضياع . . ستكون «ضحى» إلى جوارى وسنسعى

فى أرض حـرة، لنكسب رزقنا، والزروع الخضـراء من حـولنا والينابيع الصافية تتدفق بالفضة الذائبة، ورائحة البرتقال والليمون والتفاح تملأ خياشيمنا، والسماء الزرقاء الصافية ذات الشمس المشرقة من فوقنا.. سيكون كل شيء رائعًا وجميلاً، بلا انفجارات أو قتل أو حرائق، أو زحف على الشوك والصخور وكثبان الرمال تحت جنح الظلام الذى يكمن فى الرعب والموت.. أجل.. سوف نحيا كبشر شرفاء فى ظل الحرية والحب والسلام.. آه ما أشد شوقى إليك.. يا ضحى.. يا حلمى الجميل..».

كانت العيون ترمقه وهو شارد ذاهل، ونظراته القلقة تتردد بين أسطر الخطاب الذى لم يقرأه بعد وبين السماء الممتدة إلى بعيد، ولم يخف عليهم ما شمله من انفعال. أيكون المحاربون الأشداء الذين يعيشون بين الدم ورائحة البارود، ويُقْتَلُونَ ويَقْتُلُوهم أيضًا يمتلكون قلوبًا رقيقة، قلوبًا تلين وتخضع للعواطف الإنسانية العالية.. عواطف الحب والوفاء؟؟

قرأ «خميس» هذا السؤال فى عيونهم. وتمنى فى هذه اللحظات أن يكون صريحًا، وأن يعلن أمامهم بملء فيه: إن المحاربين بشر وأنهم يحبون كما يحب باقى الرجال، إن الحرب أمر طارئ والسلام هو طبيعة الإنسان.. لم يخلق الإنسان ليحارب أخاه الإنسان بل ليساعده، ويحنو على جراحه. ويأخذ بيده، ويبعث فى دفء الحب والحنان.. لكن المنحرفين والمرضى والشواذ أصحاب النفوس المريضة، هم الذين يميلون بناموس الحياة

الوادعة، ويحيلونها إلى جحيم وعدوان وجشع، ومن ثم كان لا بد من تأديبهم. . إنها مأساة. . واللوم على صانعى المأساة. .

كان «خميس» يريد أن يقول هذا الكلام وأكثر منه، لكنه آثر الصمت، وطوى الخطاب مؤجلاً قراءته بعد حين، وعاد قناع الصلابة والحزم يتخذ مكانه فوق ملامحه الصارمة»، وأخذ يواصل ما انبت من حديث، وإن كان طيف «ضحى» ظل يحوم فى حياته، متشحا بثوب رقيق أبيض يشبه إلى حد كبير ثوب الزفاف الجميل. . وفى المساء كان وحده. . وأخرج الخطاب. . وأخذ يقرأ والعرق يتقاطر على جبينه الأبيض الذى لوحته شمس الصحراء القاسية. .

«شقيق الروح والفؤاد. . أكتب إليك من القدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة من المدينة العريقة ذات التاريخ والأمجاد. . لكن صدقنى «يا خميس»، إن المدينة تبدو فى نظرى كالرجل المريض المتهالك. . إنها مدينة تعيش الآن بلا رونق، يزحم شوارعها لاجئون ممزقو الثياب، كسيرو النظرات، كلهم يحسون بالغربة والهوان. . أقسم لك، لقد مررت بشوارع المدينة ذات يوم قريب فلم أرَ إنسانًا واحدًا يبتسم حتى لكأن الابتسام جريمة. . المدينة تعيش النكبة بكل مشاعرها برغم وصول بعض القوات الأردنية إليها، وبرغم الذين يحرسونها من متطوعين وجنود نظاميين. . وقد أقيم خارج المدينة معسكر اللاجئين الذى احتشد فيه الآلاف. . وهكذا أصبحت أنا وأبى والصغير «وليد» نعيش فى خيمة بالعراء بعد أن كان لنا بيت كبير يرفع هامته نحو السحب. . الخيام قميئة وكأنها متسول ذليل،

يمد يده طالبًا الإحسان فى الطريق العام . . من الحماقة ألا يحقد الإنسان على من تسببوا فى هذه النكبة!! وقد لاحظت يا عزيز أن كثيرًا من الأطفال يموتون فى هذه الأيام . . فلا رعاية صحية ولا غذاء جيد ولا ابتسامات تعلو الشفاه . . أشياء كثيرة تموت تحت بصرنا . . بل وفى أعماقنا . . أتذكر «ميمون» الذى قتلوه أمام أعيننا ؟؟ لا شك أنه أسعد حالاً منا . . لكن عبر الظلمات المدلهمة تنطلق شرارات أمل . . الناس هنا ما زالوا يؤمنون بالله وبالحق الذى يناضلون من أجله . . كلما تذكرت أن «خميس» وآلافًا من الرجال مثله مرابطون على سفوح الجبال، وفى بطون الصحارى، وعلى مشارف المدن والقرى والمستعمرات؛ كلما تذكرت ذلك ازداد إيمانى بالمستقبل . .

عزيزى «خميس» . .

معذرة إن كنت أقدم لك فى أول خطاب لى تلك الصور القاتمة التى تستدر الدموع، وتثير النفس، فنحن لا نستطيع أن نزيف الواقع المرير الذى نعيش فيه . . نحن نحيا المأساة بكل عواطفنا وجوارحنا، وواجب علينا أن نفعل ذلك، وإحساسنا بالكارثة المروعة، وبمبادئنا وتراثنا ووجودنا المهدد هى المنطلق إلى صنع شىء كبير يكتب لنا الخلاص والعودة والحرية . .

عزيزى «خميس» . .

أمورنا تمضى حسبما أراد لها الله، أبى رفض الإقامة الدائمة فى معسكر اللاجئين، وقرر أن يفعل شيئًا إيجابياً، وقد استطاع

الحصول على عمل، إنه الآن فى مؤخرة القوات المحاربة يساعد فى نقل المؤن والذخائر، ويملأ النفوس بالثقة والصبر والاستمرار فى النضال حتى النهاية، إن إحساسه بأنه يؤدى عملاً ما قد ملأ قلبه بالرضا، وجدد من نشاطه وقواه حتى ليخيل إليك إذا ما رأيته أنه قد صغر عشر سنوات. . وأنا الأخرى كان لى موقف مشابه. . إنه جو الخيمة التى نأوى إليها ليلاً ونهاراً قد بعث الضيق فى نفسى. . أشعر كأنى أعيش فى زنزانة سوداء. . لهذا توترت أعصابى، وأيقنت أنى على وشك الانهيار. . إن الطاقة الحسية المتمردة فى داخلى تكاد تقتلنى وتحطمنى. . أريد أن أنطلق، وفكرت وسرعان ما اهتديت إلى حل. . ففى صبيحة يوم مشرق قصدت من فورى إلى مركز من مراكز الإسعاف بمدينة القدس القديمة، وهذا المركز يستقبل عديداً من جرحى الميدان كل يوم، وطلبت من المختص بأمور المركز قبولى فى هيئة التمريض. . وبعد فترة وجيزة استطعت أن أجيد هذا الفن، أحسست أنى أفعل شيئًا ما يناصر معركتنا. . إن كل جريح أنظر فى وجهه أرى فيه سمات «خميس» ورجولته وشجاعته. . إننى أبش فى وجوههم، وأضمد جراحهم، وأسهر الليل إلى جوارهم وأنا فى منتهى السعادة. . إنهم يحاولون أن يدمروا الحياة ونحن نحاول أن نقاوم عوامل الفناء، ونصنع الحياة من جديد، فالمعتدون أغبياء بحق السماء. . كلما تصورتك ممسكًا بسلاح وأنا ممسكة بمبضعى، أيقنت أننا نخوض معركة واحدة. . أعنى زملاء كفاح. . أليس هذا رائعًا، لكن الصغير ينشأ

فى جو رهيب، لا يسمع غير كلمات الرعب: «الحرب. . الموت. القتلى. . اليهود. . الغارات. . ». . إنه قد أصبح صامتًا شاردًا تبدو عليه سيما التفكير، وكأنه رجل عجوز. . وكلما جاء ذكرك بيننا يشرق وجهه، ويطلب منا أن نأخذه إليك. .

«أبو نجلاء» أفاق من صدمته، والتأمت جراحه. لكن الرجل أصبح محطمًا، إن إضافة ستين عامًا - وهى عمره - إلى ما شهده من أرزاء كفيلة بأن تحطم الجبال. . وفى كل صباح يقصد الرجل المسجد الأقصى، ويقضى اليوم بطوله هناك، ثم يعود فى المساء ولسانه لا يفتر عن قراءة القرآن والتسبيح لله. .

«خميس». .

ماذا بقى؟؟

كلمة واحدة، هى أنى «أحبك». . لماذا؟ لأنك رجل تتمثل فيك أحلام أمة تأبى أن يقهرها الطغيان، ولأنك تشق الطريق مع رجال أفذاذ لا يرجون من الناس جزاء ولا شكورًا. . أنتم ملائكة فى عالم من الأبالسة. . فليحرسكم الله، وليكتب لكم النصر. . وسأنتظر يوم العودة على أحر من الجمر». .

«ضحى»

●●●

الفصل الثانى عشر

كان «نادر» ذا طابع خاص بين الرجال السبعة فى الموقع ٤ ش من رجال كتيبة عمر بن الخطاب، ولم يكن يعيبه غير نحافة مفرطة بالإضافة إلى عوده الفارع، كما كان فى حركاته بطء ملحوظ، وغير قليل من الكسل يغطيه بالنكات والمرح، ولم يضايق هذا الوضع قائده كثيراً، إذ المفروض أن الرجال ليسوا على وتيرة واحدة، ولم يفت القائد أن «نادر» ابن لثرى من أثرياء «حيفا» الكبار، ويبدو أن حياة الرفاهية والنعيم قد طبعته بهذا الطابع من التراخى والكسل، لكن المعركة كفيلة بأن تقلب حياته رأساً على عقب، وتحيل رقته إلى خشونة، ورفاهيته إلى تقشف، لكن الأمر الذى ضايق القائد بعض الشيء هو أن «نادر» لا يأتى الصلاة إلا قليلاً، قد يكون هذا أمراً بسيطاً، لكنه كان بالنسبة للقائد المتدين ورفاقه الحريصين على إقامة الشعائر شيئاً غير مقبول.

ولم يكن صالح بدران يرتاح إليه كثيراً، وخاصة منذ أن أتت «نجلاء»، فقد لاحظ أن «نادر» يلجأ إليها بمناسبة وبغير مناسبة، ويناقشها فى أمور تافهة، ويطيل النقاش معها دون حاجة ظاهرة

إلى ذلك، وصالح ليس ساذجًا، فقد رأى فى عينى «نادر» ونظراته رغبة، لم يستطع أن يقنع نفسه بأنها مجرد عاطفة بريئة بين أخ وأخته، لكن انشغال الجميع . . وصالح معهم . . بالأمور الكبرى التى تتعلق بتطورات المعركة، ومصيرهم هم، لم يعطِ الصورة الملحوظة أهمية تذكر، ومع ذلك فإن صالح أرغم نفسه علَى قبول الوضع، وحاول أن ينفى الشكوك عن قلبه، والخير له أن يتهم نفسه من أن يرمى أخاه فى المعركة بالظن، فبعض الظن إثم، وواجب عليه أن يفترض حسن النية فى الجميع، ولهذا كتم ما يثور فى نفسه من انفعالات متشعبة بخصوص «نادر»، وأغمض عينيه ومضى فى طريقه، لكن أيستطيع صالح أن ينتصر على شكوكه دائمًا؟ هذا فوق طاقته كبشر، وذات ليلة - بعد أن انتهت نوبة صالح فى الحراسة، قصد لتوه إلى حين ينام «نادر»، وحاول إيقاظه، لكنه كان يفتح عينيه ليغمضهما، ويتحرك فى رقدته ثم يسكن من جديد، فإذا ما هزه تثاءب ثم عاد إلى وضعه الأول، لم يحتمل صالح هذا التصرف فى معركة، وبين صفوف رجال فدائيين، فأمسك كتفى «نادر» النحيلتين بعد أن ألقى بسلاحه جانبًا، ثم هزه فى عنف وجفاف وهو يقول :

- «لا وقت للهذر والميوعة . . » .

وفتح «نادر» عينيه ونظر إليه فى دهشة :

- «ماذا تقول؟؟» .

- «هيا بسرعة إلى نوبتك».

كانت عينا صالح تتقدان ثورة وغضبًا، ولولا الحياء لأهوى بيده على وجه زميله صفعًا ولكمًا، ونظر «نادر» إليه فى شىء من العناد وقال ببساطة:

- «لا أستطيع.. إن رأسى مصدع..».

وفغر صالح فاه وقال:

- «ماذا؟ إنك تهذى. ليس الصداع مرضًا هنا..».

فقال «نادر» وهو يضغط على جبهته:

- «ليس من المعقول أن يحرسكم فى الليل رجل مشتت الذهن رأسه يكاد ينفجر.. هل فهمت؟».

ورأى «خميس شاهين» - وقد كان مضطجعًا إلى جوارهما - أن المناقشة تتجه وجهة لا تسر، فتحامل على نفسه وهب واقفًا وهو يقول:

- «لا تقلقا.. سوف أحل محل «نادر» فى نوبته.. إن أربع ساعات لن تتعبنى كثيرًا.

وخجل صالح بعض الشىء من نفسه، فتمالك زمام نفسه، وعاد يقول:

- «بل سأقوم أنا بنوبته.. وابقيا كما أنتما..».

- «إن بعض الأرق ينتابنى، فلا داعى مطلقًا لأن أظل مستلقيًا هكذا دون نوم حقيقى..».

وأصر كلاهما على أن يحل محله، وانتهى الأمر بأن صحب «خميس شاهين» صالح بدران، وذهبا معًا إلى نوبة الحراسة، كان الليل ساجيًا، لكن ضوء القمر يكشف الطريق، والليالى القمرية هى أقل الليالى اشتباكًا وصدامًا وخطورة، واتخذا مأواهما فى بطن كتلة صخرية مفتوحة من جهة واحدة تطل على المواقع اليهودية التى تتوارى بعيدًا، وبعد أن استقر بهما المقام، وعاد الصمت يغلف المكان، وأشباح لا وجود لها تتراقص عبر الليل الفضى، ومخاوف مبهمة ترقص من حولهما، همس «خميس»:

- «نحن إخوة..».

- «أعرف.. لكنه لا يطاق..».

- «لتقبله على علاته.. لكل منا سلوكه وطباعه..».

- «لا مجال للتدليل هنا «يا خميس»..

- «وإذا لم تحن على أخيك فى المعركة فمن يحنو عليه.. نحن نواجه الموت كل يوم، وهذا شىء فظيع فى حد ذاته، إنه يزلزل أعتى الرجال شجاعة..».

- «نحن نعيش تحت نفس الظروف القاهرة..».

- «لكن يا صالح مدى احتمال كل واحد منا يختلف عن الآخر، ليسد كل منا نقص أخيه، وليأخذ بيده، ليس المفروض أن نكون جميعًا على وتيرة واحدة، والمثالية المطلقة خيال، إننا نسعى إليها ولكن لا نصلها.. منا من يبلغ منتصف الطريق، ومنا من

يشرف على الكمال، والبعض يقطع إليه مدى قصيراً. . لسنا ملائكة، ولكننا بشر يعيشون فى جحيم معركة قاسية. . هل تفهمنى؟».

قال صالح بصوت خفيض:

- «أجل. . لكن. . ».

- «لكن ماذا؟ ألم تقرأ الحكمة القائلة: ارحموا عزيز قوم ذل». .

كان «نادر» يعيش فى بحبوحة من النعيم. . يمتلك عربة وعدداً من البيارات الكبيرة، أبوه كان أكبر الموردين للفاكهة إلى القاهرة. . وانتهى كل شىء فى غمضة عين، هو لا يعرف أين أبوه. . فقدوا كل مالهم وضياعهم. . وفقدوا أيضًا وطنهم. . أصبحوا مشردين غرباء مثلى. . هذه كارثة أنت تدركها. .

قال صالح فى ألم:

- «أنا مؤمن بكل ما تقول. . لكن اعذرنى. . إنى لا أرتاح كثيراً له، لست أدرى لماذا، إنه شىء فى القلب لا حيلة لى فيه، ومع ذلك فسأحاول جاهداً أن أحبه. . ».

وفجأة أمسك «خميس» بمعصم «صالح» وقال بلهجة حادة:

- «إنك تخفى شيئًا. . ».

قال صالح وقد ارتعشت مفاصله:

- «ماذا تعنى؟».

- «لنكن صرحاء . . » .

وساد الصمت لدقيقة ثم قال «خميس» بصوت مبحوح :

- «أنت تحبها . . » .

وكمن يتهاوى تحت وقع صدمة قاسية همس صالح :

- «من؟» .

- «نجلاء . . » .

- «مستحيل . . » .

- «وهو يحبها أيضًا . . وهنا نقطة الخلاف بينكما . . » .

توترت أعصابه ، وضغط على كف «خميس» دون وعى . . أخذت أنفاسه تتلاحق ، ثم انفرطت دموعه وهو يقول :

- «مستحيل . . إنها خيانة . . لا يمكن أن أفعل ذلك . . جئت هنا لكى أقدم حياتى ثمنًا لقضية غالية مقدسة ، كيف أحيل جهادى الخالص إلى نزوات حقيرة . . إنك تطعننى فى أعز ما أملك . . » .

وأخذ جسده كله يهتز من أثر البكاء والانفعال ، بينما حاول «خميس» أن يخفف عنه ، ويربت على رأسه وظهره فى ود أخوى ، ثم قال بعد أن هدأت أعصاب رفيقه قليلاً :

- «آسف . . إنه مجرد مزاح . . قد يكون ثقيلاً بعض الشىء . . أنا هكذا دائمًا ، لى بعض الانحرافات والفلتات المؤلمة ، لكن

سرعان ما أتبين حماقتي.. معذرة.. أنا أحب «ضحى»، وضحى هناك بعيداً في القدس، إنها فتاة طيبة مجاهدة على خلق وجمال رائعين.. أنا سعيد بها، ونعمل في حقل واحد من أجل تحرير فلسطين، وحبنا هو الظل الوارف الرطب الذي يمدنا بالصبر والسلوى في هجير المعارك الدامية.. لتغفر لي حماقاتي.. أليس كذلك يا صالح؟».

وتتابع إطلاق الرصاص فجأة من جهات ثلاث: شمالاً وجنوبًا وغربًا، وانبطح كلاهما على وجهه في وضع استعداد، وإلى جوارهما بعد لحظات وجدا القائد يزحف، ويقول:

- «إنه هجوم عنيف غادر.. يتبعون نفس الخطة التي اتبعناها ونحن نحتل هذا الموقع.. كونوا على حذر، إنهم يهاجموننا بما لا يقل عن عشرين.. يجب أن تفترقا الآن.. لا تطلقا الرصاص قبل أن آمركما.. «نجلاء» وحدها في الدشمة.. «ونادر» ورفاقه الثلاثة نائمون.. لا شك أنهم استيقظوا.. اذهب إليهم، وتأكد أن كل فرد في مكانه الذي رسمناه من قبل.. مرة ثانية لا تطلقوا الرصاص قبل إصدار الأمر.. هيا..».

ولدى «الدشمة» وجد القائد «نجلاء» متحفزة خلف مدفعها كالنمرة الشرسة، فأعطاها أوامره ثم انصرف إلى «نادر» ورفاقه الثلاثة، كانوا يحملون أسلحتهم ما عدا «نادر» الذي اعتذر لمرضه، وفي دقائق كانوا جميعًا في وضع استعداد، وشحب وجه القائد

وقد تبين لديه بعد فترة أن المهاجمين يحتمون فى مصفحات ثلاث، وضوء القمر يكشف الطريق حتى كأنها معركة نهارية. . حاول الأعداء أن يكتشفوا مراكز أفراد الكتيبة العربية، لكنهم كانوا أحرص من أن يقدموا أنفسهم لقمة سائغة للهجوم الغادر الذى لم يكن متوقعًا. . لم يتوقف المهاجمون عن إطلاق الرصاص، ثم أطلقوا بعض المصابيح الكاشفة لعلهم يتبينون معالم «التبة» ومن عليها من رجال، وغمغم القائد لنفسه: «معركة قاسية غير متكافئة، لكن ما منعنا من الذخيرة يكفى للاشتباك يومين كاملين».

وطرأت على ذهن القائد فكرة، وسرعان ما عاد إلى حيث يرقد «نادر» وقال:

- «نادر. .».

- «نعم. .».

- «تستطيع أن تحتمل آلام الصداع. . إننا فى مأزق، ليس المطلوب منك أن تحمل السلاح وتخوض المعركة، لكن فى الإمكان أن تزحف من الجهة الشرقية قاصدًا الموقع س. ب. قناصة، إننا فى حاجة إلى النجدة السريعة، ستصل إلى هناك فى ساعة وربع على الأرجح، وستعود إلينا النجدة فى مثل هذه المدة، إنهم لن يستطيعوا دحرنا هنا خلال ساعات ثلاث بالتأكيد، إذا ما جاءت النجدة، أمكننا أن نكبد العدو خسائر فادحة، ونستولى على بعض معداته. .».

تغضن جبين «نادر»، وتحامل على نفسه، وقد ارتسمت على وجهه سيما آلام مبرحة، وقال:

- «إن هذا انتحار . . ».

- «لكنها الحرب . . ».

- «قد يتصيدنى الأعداء، وقد يكون هناك كمين آخر فى الجهة الشرقية، ومن ثم فإن هذه الرحلة الخطرة نتائجها معروفة سلفًا . . وهى أننى سأقتل فى الطريق، ثم لا تأتى النجدة . . فما هو كسبنا إذن؟».

قال القائد فى حزم:

- «لكنى آمرك . . ».

- «سأنزل إلى المعركة، ولن أقوم بهذه الرحلة . . ».

تركه القائد ومضى، لم يكن قلقًا إلى حد بعيد، فإن نطاقًا من الألغام حول الموقع قد وضع منذ يومين، واختراق هذا النطاق سوف يكبِّد العدو خسائر فادحة، لكن بعد نصف ساعة، استطاعت إحدى المصفحات أن تخترق النطاق، فتفجرت الألغام المبثوثة، وبهذا استطاع المهاجمون - بعد أن خسروا مصفحة ورجلاً - أن يجدوا منفذًا يتسللون منه إلى الموقع، وتأزم الموقف أكثر من ذى قبل، فأسرع القائد إلى حيث يقبع صالح بدران، وهمس . . ».

- «إن نجاحك الليلة إنقاذ للموقع وللإخوة جميعًا . . » .

- «أعرف واجبى تمامًا . . » .

- «لا أقصد ذلك . . ما أريده هو أن تغادر موقعك الآن . . ثم تتجه صوب الشرق قاصدًا الموقع القديم س . ب قناصة ، نحن فى حاجة إلى نجدة لا تقل عن عشرة رجال . . النجدة معناها حياتنا والموقع . . لا بد أن تصل سالمًا وتبلغ الرسالة . . لا تشتبك فى معركة . . خذ حذرك ، وتأكد أنك لو استطعت أن تبعد عن هنا كيلو متر واحد ، فلن تصاب بسوء باقى الرحلة . . أتفهمنى؟» .

وفى صمت وسرعة خرج صالح من مكمنه ، ثم تجنب أماكن الألغام ، كانت كل طاقته مركزة فى يديه ورجليه وعينيه ، إنه يزحف بسرعة غير معقولة ، عيون المهاجمين لا ترى سوى الموقع الذى خسرته وتريد أن تسترده ، وبديهى لديهم ألا يحاول أحد الفرار تحت ضوء القمر ، فالفرار معناه الموت ، ومن ثم استطاع صالح بعد ربع ساعة أن يجتاز منطقة الخطر ، ثم انتصب واقفًا ، وأخذ يجرى بكل ما وهبه الله من قوة ، قاصدًا الموقع س . ب قناصة ، كان عليه أن يقطع ستة كيلو مترات فى أقصر مدة ممكنة .

بقى «نادر» وحده جالسًا على الرمل ، كانت عيناه تدوران فى المخبأ فى قلق ظاهر ، نوبة من الملل والعتيق قد أثقلت رأسه ، الرصاص فى الخارج يئز ، والموقف يتأزم ، ورجال الكتيبة فى خطر كبير ، كل واحد يحمل سلاحه ويستعد لصد العدوان ، ولا شىء

يحتل فكره غير المعركة والموقع والحفاظ على الحياة لأنها غالية وعزيزة، والحرص على النصر من أجل الوطن لأنه غال وعزيز، لأنه الحياة الكبرى لهم ولأجيالهم، وحام طيف «نجلاء» فى رأس «نادر». . النار مشتعلة وتوشك أن تأكله، وروحه تهفو إلى «نجلاء» وعلى الفور حمل سلاحه، وتسلل إلى «الدشمة»، وعندما شعرت «نجلاء» بوقع خطواته خلفها، هتفت فى انفعال: «من؟!».

- «نادر. .».

- «هل شفيت؟».

- «لا يعقل أن أتركك وحدك، بجوارك أنسى الألم والمرض وتهبط علىّ شجاعة غريبة. . .».

لم تفكر كثيرًا فيما قال، ولعلها لم تعِ شيئًا من عبارته، فقد كانت كل مشاعرها متجهة إلى حيث يتقدم الأعداء، وإلى حيث يقف القائد الذى لا شك سيعطى إشارة البدء بعد قليل.

- «قف فى الاتجاه المضاد لى، وجه مدفعك ناحية الشمال. . وكن على أهبة الاستعداد. . أسرع، إن دور «الدشمة» فى المعركة مهم جدًا. .».

وكم كانت دهشتها عندما سمعته يقول:

- «أعطنى يدك لأقبلها أولا. .».

- «ماذا؟؟ هل جننت؟؟».

- «إنك بذلك تمدينني بطاقة روحية خارقة . . أنت قديسة» .

فقالت باسمة دون أن تلتفت إليه ، ودون أن يتسرب إلى ذهنها أدنى شك : «الرجال فى المعارك العنيفة قد يفقدون عقولهم ويتصرفون كأطفال . . أليس كذلك؟» .

- «بل فى تمام وعيى يا نجلاء . . » .

- «حسنًا . . لكن يدى على المدفع . . أسرع واتخذ وضعك الاستعدادى . . لا تضيع الوقت . . » .

ولم تدرِ كيف وثب ثم قبل رأسها خطفًا وهو يقول :

- «إن هذا زادى فى المعركة . . » .

قالت دون أن تتحرك أو تلتفت إليه :

- «ألم أقل إنك جننت؟» .

وانبعث صوت قوى لا أثر للتلعثم أو الخوف فيه يقول :

- «اضرب . . » .

كان المهاجمون قد اقتربوا ، وبعضهم يزحف صوب الدشمة بغية احتلالها ، والبعض الآخر ، يقذف من بعيد بالقنابل اليدوية الشديد الانفجار والتحم الفريقان ، كان المهاجمون يأبون أن يتراجعوا ؛ ورجال كتيبة عمر بن الخطاب مصرين على أن يعطوهم الفرصة يتقدموا أكثر من ذلك ، وخلال نصف الساعة الثانى سمعت

صيحات استغاثة . . وغمغم القائد وهو فى الجبهة المقابلة للناحية الغربية «واحد من رجالنا يموت . . ».

كانت النيران الخارجة من الدشمة قوية متلاحقة، حسنة التصويب، مما أصاب مصفحة أخرى بالعطب، وأودى ببعض المهاجمين من رجال العدو، وكم كانت دهشة «نجلاء»، عندما شعرت بيد نادر تقبض على ذراعها ثم يقول :

- «كفى عن الضرب . . ».

- «ماذا تقول؟».

- «إننا ننتحر . . ».

فجذبت ذراعه بعنف، وواصلت الضرب قائلة :

-«لست فى حالة طبيعية . . بالتأكيد . . ».

فعاود مسك ذراعها وهو يقول :

- «سيحتل الأعداء الموقع مهما قاومنا . . وسنقتل جميعًا . . خير لنا أن نسلم أنفسنا، وستكون أمامنا فرصة للنجاة وهى أن يعاملوننا كأسرى . . ».

ودار رأسها بالذكريات المريرة، «حيفا» وبحر الدماء، النذل الذى صوب بنادق رجاله إلى ظهور أفراد أسرتها، الغدر وعدم احترام حقوق الإنسان، اليهود . . أنذال، إنهم لا يعرفون شيئًا اسمه الأسرى، يعرفون الضحايا والذبائح والتسلى بمنظر الدماء،

وسلب أعز ما يمتلك الإنسان الحر من شرف وعرض . . وصرخت :

- «عد «يا نادر» إلى مكانك وإلا أطلقت عليك الرصاص . . » .

- «موتى بيدك أمنية غالية . يا أعز من عرفت . . » .

- «اضرب . . يا أجبن من عرفت . . الرجال يموتون خارج الدشمة ، والعدو يضيق الخناق . . نموت ولا نسلم الموقع . . »

وبدا الارتباك فى صفوف الأعداء ، وسمعت طلقات نارية أبعد مدى من مواقع العدو ، وصدرت استغاثات عن المهاجمين ، وتمتم القائد فى مكمنه «ماذا»؟ هذا غير معقول . . لا يمكن أن تتم المعجزة على هذه الصورة لو ذهب صالح طائراً ، وعادت النجدة طائرة لما أتوا بهذه السرعة . . لكن المعجزات لا تكون معقولة ولا منطقية فى غالب الأحيان وذلك لأنها معجزات . . وصرخ «اضرب» وعاد الضرب من جديد ، لكن قوات العدو توقفت عن الزحف نحو الموقف ، كما توقفت عن الضرب . . ويبدو أنها لن تعاود الصراع . .

لم يكد صالح بدران يخترق نطاق الخطر وهو يتسلل إلى الموقع س . ب قناصة لطلب النجدة ، حتى فوجئ بقوة من الرجال تزيد على العشرة عداً ومعهم مصفحة واحدة ، وعلى أتم استعداد ، وسرعان ما رفع يده ، وعندما طلبوا منه كلمة السر ، نطق بها فوراً ثم روى لهم باختصار كل ما يتعلق بأخبار الهجوم اليهودى على الموقع والخطة التى ينفذونها ، وحرج موقف قواته ، فأفهموه أن

إحدى دورياتهم اكتشفت منذ مدة قصيرة جهة العدو، فخمنوا أنهم في حاجة إلى نجدة ولذلك أسرعوا إليهم. .

هكذا تمت المعجزة، وهكذا سيق أغلب أفراد الكتيبة المهاجمة أسرى، واندحر اليهود، وثبتت كتيبة عمر بن الخطاب في موقعها، لكن بعد أن استشهد اثنان وجرح القائد وخميس جراحًا ليست ذات خطورة كبرى. . والتفتت «نجلاء» إلى «نادر» وقد فاض وجهها بشرًا وسماحة:

- «أرأيت يا نادر. . لقد انتصرنا، الأسرى هم لا نحن. . السبب بسيط. . لأن الله معنا. . أرجو أن يكون الصداع والمرض قد ذهبا، ويكون عقلك قد عاد إليك. . لا بد أن أغفر لك هذيانك لا شك أنك محموم. .».

فامتلأت عيناه بالدموع وطأطأ رأسه.

***

أشرق الصباح، كان القائد كابيًا حزينًا لا يتكلم، لشد ما آلمه أن يفقد اثنين من إخوته، رفاق الكفاح والألم والتضحيات، إن الحياة في نظره غالية ومقدسة على الرغم من ممارسته صناعة الموت. . الإنسان يموت وتموت آلاف الآمال والأمنيات العذبة. . ما أقسى المصير!! ورفع بصره، كان هناك عشرة من الأسرى اليهود يقفون منكسي الرءوس، واقترب منهم، كان الخوف الشديد ينبثق من عيونهم المحتقنة، قال لهم وهو يصر على أسنانه:

- «خبِّرونى. . لماذا تحاربون؟».

فرد ضابط برتبة ملازم أول:

- «هل ستقتلنا؟».

- «لماذا تحاربون؟».

- «إنها خطيئة يا سيدى...

- «أنتم تكذبون..».

- «نستطيع أن نكفر عن خطيئتنا..».

- «كيف؟».

قالها القائد وهو يهز رأسه فى أسى عميق، بينما هتف الملازم اليهودى وهو يتلفت يمنة ويسرة:

- «سأريك كيف نكفر عن خطيئتنا على أن تعاملنا كأسرى..» ثم استطرد وهو يتفحص الفدائيين العرب:

- «أين نادر سليمان؟».

وانبعث صوت «نادر» فجأة:

- «أنا هنا..».

كان مسدسه فى يده، وسرعان ما انطلقت منه رصاصات مجنونة نحو الملازم اليهودى، فانقض القائد على «نادر» واختطف منه مسدسه وأمسك بيديه النحيلتين، بينما قال الملازم اليهودى وهو يتهاوى:

- «نادر خائن.. إنه جاسوس لنا.. يريد أن يسترد أبوه ضياعه

فى حيفا، ويبقى ثرياً كما هو . . أبوه يعيش مع رجالنا فى «حيفا» معززًا مكرمًا، وابنه يدفع الخيانة ثمنًا لثرائهم . . لا تتركوا هذا الخائن يعود لأبيه . . ».

وجمد المتطوعون كالتماثيل، ونظراتهم تنصب كالحمم على «نادر سليمان»، جرده القائد من سلاحه، ثم ربط يديه من الخلف، ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع الملازم الجريح يقول:

- «ومعه جهاز لاسلكى صغير سلمته له بنفسى . . ابحثوا عنه فى جرابنديته (حقيبته) . . ومعه مفتاح للشفرة . . ».

وتسلل صالح إلى المأوى الذى ينام فيه الرفاق، وسحب حقيبة «نادر» ثم فتحها ووجد الجهاز الصغير بداخلها، ثم عاد وقدمه للقائد فى صمت، وانفجر «نادر» ضاحكًا كالمجنون وهو يقول:

- «أيها البلهاء . . أنتم تحاربون إنجلترا وأمريكا وفرنسا . . تحاربون أوربا . . لنقبل الأمر الواقع . . أنتم مغرورون . . ».

فقالت «نجلاء» وهى تبصق فى وجهه:

- «لكننا أصحاب الحق يا وغد . . ».

- «وهم أصحاب القوة يا قطتى الجميلة . . لكم أحببتك . . كان فى الإمكان أن أتحول إلى رجل وطنى مثلك، لو امتدت الفرصة».

ثم أخذ يجذب يديه، ويحاول الانفلات من القيود، ويضرب المسكين به برأسه ورجليه، دون جدوى، وصاح الملازم الإسرائيلى:

- «أتعتبرونى كفرّت عن خطيئتى؟».

فلما لم يجب أحد همس:

- «بالله لا تقتلونى.. أعطونى الحياة وخذوا ما تشاءون.. لم أفهم بشاعة ما نقدم عليه إلا بعد أن وقعت فى قبضة الموت.. نحن ضحايا أفكار فجة مغرضة.. لكنكم لا شك ترحمون ضعف الإنسان..».

وفى إيجاز وهدوء قال القائد وقد بدا عليه الإنهاك والضعف من أثر الجراح الجديدة:

- «نحن لا نقتل الأسرى.. خذوهم إلى معسكر الأسرى فى القطاع الجنوبى للاستجواب.. وخذوا «نادر» إلى السجن حتى يحاكم..».

***

وبعد ساعة خيم السكون، كان الشهيدان قد ووريا التراب، والأسرى سيقوا إلى الجنوب، و«نادر» إلى السجن، وصالح يجلس محتقن العينين، وخميس شاحب الوجه، مرتعش الشفتين، و«نجلاء» تذرف الدموع فى صمت، وتكتم شهقاتها، والقائد يعيد ربط الضمادة على ذراعه فى حركات ميتة، وفكره شارد إلى بعيد.. إلى حفرتين صغيرتين تغطيهما الرمال ويرطبهما دم طاهر حر..

الفصل الثالث عشر

كان لانكشاف أمر «نادر» رنة أسى فى صفوف المجوعة، لو مات فى إحدى المعارك لكان أروح لنفوسهم مليون مرة من وصمه بالخيانة، وأقسى ما يصيب المكافحين فى ساحات الموت طعنة من الخلف، كان صالح بدران لا يرتاح إليه، ويجد هاتفًا داخليًا فى أعماقه يدعوه إلى نقده ومؤاخذته والاعتصام بالشك فى كثير من تصرفاته، وعندما انحسر الغطاء، وظهرت الخيانة بوجهها البغيض، لم تهز صالح نشوة طرب، أو تستولى على مشاعره شماتة، كانت المأساة أكبر من التشفى والشماتة، كل ما كان يأخذه عليه هو مطاردته لنجلاء والمعركة مستعرة، والمواقف متأزمة مما بعث فى نفسه ضيقًا وحنقًا بالغين، ولم يكن يتصور أن يأتى يوم ويقف فيه «نادر» موقف الخيانة. .

وذهلت «نجلاء» وهى ترى بعينى رأسها رجلا من «حيفا» يأتمر مع الأعداء ضد قضية وطنه الجريح، لم تكن تتصور أن بين الصفوف العربية خائنًا يحمل السلاح، ويركب المخاطر، إنها لا تستطيع أن تنسى أن «نادر» أحد الذين ساهموا فى احتلال الموقع ٤ ش، كيف استطاع أن يخدعهم؟؟ وما الفرق بينه وبين الصول الإسرائيلى الذى قتل أهلها، وسفك دم عرضها، قد يكون لغدر

عدوها ما يبرر تصرفاته من تعصب لبنى قومه، وإيمان زائف بقضية ظالمة، إنه يعتبر نفسه - مهما كان الأمر - صاحب حق، لكن كيف تجد مبررًا لرجل عربى أظلته سماء فلسطين، وحملته أرضها وأغدقت عليه خيراتها، وأتاحت لأبيه فرصة الثراء العريض بها، ما أتعسها!! لقد أعمتها مثاليتها عن رؤية النقص فى الآخرين، كانت تغتفر «لنادر» سخافاته وملاحقاته لها، وكانت ترى فى حماقاته ضربات من نزوات الشباب، أو تعبيرًا عن الكبت والحرمان، وتنفيثًا عن أهوال الحرب وويلاتها، لكن «نادر» هذه المرة كشف عن وجه الغدر، والتنكر لأشرف قضية، وخان ثقة رفاق المعركة فيه، كان يؤاكلهم ويشاربهم، ويقاسمهم الفراش والخطر، وهو فى حقيقته حية رقطاء يضمر السوء. من أجل ماذا؟؟ لكى يحتفظ لأبيه بثرائه، ما أتفهها من غاية، وما أبشع ما اتخذ من وسيلة!! وشعرت «نجلاء» بيأس قاتل.. كانت تخفف عن أحزانها المتراكمة بالبكاء، وتستميت فى التضحية، ومع ذلك فهى لا تستطيع أن تنسى أن رجلاً خان إخوة الكفاح.. ومن يدرى؟؟ قد يكون ضمن القوات الزاحفة لتطهير فلسطين أشباه لنادر، إذا كان ظنها حقيقيًا فما أتعس الحياة!!

كانت تجفف دموعها حينما اقترب منها صالح بدران قائلاً:

- «لا داعى لكل هذا».

- «إنها كارثة كبرى يا صالح..».

- «لكنى أعدها أمرًا طبيعيًا..».

- «طبيعى؟؟ كيف تقول هذا الكلام؟؟» .

وأقبل القائد عند ذاك، ويبدو أنه كان يرهف السمع لما يدور بينهما من حديث، فقد تدخل قائلاً :

- «الله قد خلق الحمامة البيضاء، وخلق أيضًا الحية الرقطاء . . » .

فقالت وهى تدق الأرض بقدمها :

- «لكن لماذا؟ لماذا؟» .

فاستطرد القائد قائلاً :

- «وفى المجتمع يوجد المريض والصحيح، والمجنون والعاقل، وأيضًا يوجد الخائن والمخلص . . لماذا؟؟ لحكمة يعلمها هو . . تستطعين أن تفكرى لماذا خلق الليل والنهار، والحب والكراهية، ومع كل هذه المتناقضات فإن الحياة تسير، والبناء يرتفع، والحق ينتصر، وكلمة الله هى العليا لماذا جرح محمد ﷺ فى معركة «أحد» ولماذا هزم جنود الله آنذاك؟ لست أدرى السبب فى أن تشغلك هذه الاستفسارات عن النار المشتعلة فى الأرض المقدسة . . إنها أسئلة خالدة، فلنقبل الوضع يا أخت، فلن نستطيع تحويل الليل إلى نهار، لكننا نستطيع إضاءته بمشاعلنا المتواضعة، ونستطيع أيضًا أن نبحث عن أمراض مجتمعنا، ونحاول علاجها . . هذا كل فى الأمر . لكم أحزننى أن يستشهد رفيقان لنا، لكن هذا هو الثمن، لن نحوز النصر بلا تضحيات، ولن يعلو الحق بلا قرابين . . » .

وغمغم «خميس» وقد كان على مقربة منهم :

- «يجب أن تتأهبى للقاء صدمات كثيرة . وخيانات متعددة . . إننا نحارب فى جو رهيب ملىء بأشتات المتناقضات والأعاجيب» .

ولاحظ صالح أن وجه القائد قد شحب بصورة ملفتة للنظر، فالتفت إليه قائلاً :

- «ما بك؟» .

- «لا شىء . . يبدو أن إصابة كتفى قد نزفت دمًا كثيرًا . . »

- «ولهذا أرى أنه لا بد من رحيلك أنت وخميس شاهين إلى أقرب مركز للإسعاف مخافة أن تتسمم جروحكما . . » .

فأردفت «نجلاء» :

- «هذا عين الصواب» .

فأجاب القائد :

- «لكنه من الضرورى أن نحتل نقطة الحراسة اليهودية الجنوبية . . ثم نستولى على النقطة الأخرى فى شمال موقعنا، معنى ذلك أن تتطهر النقطة تمامًا، ونأمن من شر غدراتهم، يجب أن يتم ذلك فى ليلة واحدة» .

وقال «خميس» :

- «وقد أصبح عددنا كافيًا بعد المدد الذى وصلنا . . » .

فقاطعه «صالح» قائلاً :

- «لكنى مُصر على أن تفكر فى معالجة جراحكما أولاً، ليس من المنطق أن ننجو من رصاص الأعداء، ثم نقتل أنفسنا بأيدينا إهمالاً . . ».

قال القائد وعلى ثغره ترتسم ابتسامة خافتة مقتضبة:

- «حسنًا . . سنذهب الليلة لتطهير الجروح وتضميدها، ونعود غدًا، الأمر لا يحتاج لكثير من الوقت أو العلاج . . ».

***

فى الليلة التى رحل فيها «خميس» والقائد، آوت «نجلاء» إلى مضجعها الصغير وحيدة، وبقى «صالح بدران» على ربوة صغيرة وراء ساتر صخرى فى نوبته الحراسية، كان القمر مطلاً كالأمس، والصمت المقدس يطوى الكون من حوله . . كل شىء هادئ تمامًا، وهو وحده مع الله، الله يتجلى من حوله، فى كل شىء، فى السماء الزرقاء الممتدة إلى بعيد، فى القمر الوادع الذى يفيض بالضوء الرصين الفضى، فى النجوم التى تتناثر. عبر السماء وكأنها ثغور تبتسم بالحب والأمل، فى كل مظاهر الطبيعة من حوله، وشعر «صالح» أن قلبه صاف رائق كالسماء فوق رأسه، كضوء القمر الذى لا تشوبه شائبة، كل شىء يوحى بالبراءة والطهر والصفاء، وهمس «صالح» لنفسه: «المجاهدون فى سبيل الله لا يكذبون . . إنهم رجال الله، والله يحب أن يكون رجاله صادقين مع الناس، ومع أنفسهم . . » وابتلع صالح ريقه، ثم حاول تجفيف العرق الذى أخذ

يتقاطر على جبهته، واستطرد فى أفكاره: «أعترف أن بى ميلاً جارفًا إلى «نجلاء». . حقيقة أنا. . أنا أحبها، أنت تعلم يا إلهى أنى أقاوم هذا الحب، وأحاول قدر طاقتى أن أسحق بذرته، لكنها تنمو وتترعرع على الرغم منى، أنت يا إلهى الذى زرعت البذرة فى روحى، وأنت يا ربى تتعهدها بمائك المقدس. كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أكتم هذا الحب فى قلبى، ولا أصرح به لأحد. . حتى «نجلاء» نفسها، لن ترى فى وجهى وتعبيراته سوى ما تراه لدى الآخرين فى المعركة، يجب أن تشغلنا المعركة عن كل شىء، لقد جئنا لنضحى بحياتنا من أجل أشرف غاية، فليمتد بنا طريق التضحية لأبعد مدى، ويصبح عشقنا منصبّاً على الأرض الطاهرة التى تحاول تدنيسها أقدام الغزاة. . هذا عهد بينى وبينك يا إلهى، وسأبقى حافظًا له حتى النهاية. . سأعيش للمعركة المقدسة، ولن أنصرف عنها لأى سبب مهما كان. . من يدرى؟؟ قد تمضى الأمور على خير ما يرام، ويقصر أمد المعركة، عندئذ أكون فى حل من اعتصامى بالصمت، وكتمانى لمشاعرى، وأبادر فأقدم لها قلبى. . ثم نعيش كأسعد زوجين، بعد أن نعقد قراننا تحت شجرة زيتون خضراء حلوة العبير. . ثم نعود معًا إلى القاهرة الحبيبة، وإلى حى السيدة عائشة بضجيجه وعرباته وأطفاله المرحين. . وعالمه الرائع الجميل. .».

●●●

الفصل الرابع عشر

ارتدت ملابسها البيضاء الناصعة، ووضعت الطاقية المميزة على مؤخر شعرها، ثم شدت حزامًا على خصرها، واختطفت حقيبتها بيمناها، وهتفت في رقة :

- «وليد»، فأقبل مسرعًا وهو يقول : «هأنذا يا أختاه» وكان يمسك بيده كراسًا متسخا بعض الشيء، وقلما قصيرًا من الرصاص، فتناولت منه الكراس وهي تقول : «حسنًا . . هل كتبت ما طلبته منك؟؟ لا شك أن خطك قد تقدم كثيرًا» وفتحت الصفحات ثم أخذت تقرأ ما به :

- «فلسطين عربية . . النصر لنا . . الله أكبر والعزة للعرب» وهزت رأسها وهي تقول : «عظيم . . أريد أن تكرر كتابة هذا السطر عشر مرات، وسأرى ذلك عند عودتي في المساء . . » .

ثم اتخذت سمتها صوب باب المعسكر عازمة على الذهاب فورًا إلى مركز الإسعاف الذي تعمل فيه، لكنها سمعته يصيح من خلفها :

- «يا آنسة «ضحى» . . انتظري . . إن الطفل في حالة سيئة . . » .

وأقبل رجل يناهز الأربعين من عمره، يرتدى زيًا قديمًا من زى المزارعين؛ السروال الأسود، والصدارة المخططة، عمامة على رأسه، واستقبلته «ضحى» فى بشاشة وهى تقول:

- «ألا تزال حرارته مرتفعة؟

- «ونوبة الإسهال تزعجه وتهد من قواه، إنه يرقد الآن شبه ميت..».

- «السوف آتى معك..».

وسارت «ضحى» فى طرقات معسكر اللاجئين، الأرض متربة متسخة، عليها بقايا من طعام ومخلفات آدمية، الأطفال يجرون هنا وهناك شبه عراة، حفاة الأقدام، العيون الخانقة تنظر فى وهن، والوجوه الشاحبة يرتسم عليها الهزال وفقر الدم، والخيام المكتظة بالبشر تزحم جانبى الطريق، تقبع تحت الشمس كالحة ممزقة، ووجوه الرجال تبدو مغبرة غير حليقة، والنسوة يتحركن فى ذلة وانكسار، وروائح غير طيبة، تداهم أنفها الرقيق، ومظاهر الفقر والإهمال والتعاسة تبدو شواهدها فى كل مكان خارج الخيام وداخلها، وخيل إليها أنها تمشى فى حى من أحياء المتسولين.. لا.. بل إن أحياء المتسولين تبدو أكثر نظافة وحيوية من هذا المكان الذى يخط فيه ساكنوه لأنفسهم قبور الضياع..

قال الرجل وهو يفسح لها الطريق إلى داخل الخيمة:

«معذرة.. إننى خجل من هذا الجحر السيئ التهوية، لكن لا

حيلة لنا، كان لنا بيت، وكان نظيفًا أنيقًا، به أثاث مناسب، وجيد التهوية.. لكنها مشيئة الله..».

قالت «ضحى» وهى تبتسم:

- «لا داعى للحرج، إن مظهر خيمنا لا يقل سوءًا.. وعلى أية حال فهى أزمة طارئة، وغدًا نعود إلى بيوتنا، وننعم من جديد بالحياة الوادعة الرغيدة.. لنعتبر أنفسنا فى رحلة قاسية قصيرة، إن من يقاسى الألم فى شدته، لا شك يستسيغ جمال الحياة المنعمة ويقدر نعمة الله ويشكره عليها، أليس كذلك؟».

فهز رأسه بانفعال وهو يقول:

- «حق ما تقولين..».

كان بالخيمة عدد من الصبية والأطفال والنساء، وفى ركن الخيمة وقف طفل ملوث اليدين يمسك بكسرة جافة من الخبز، وينظر فى بلاهة، وإلى جواره رقد طفل لم يتجاوز الثالثة، كان متمددًا غارب النظرات لا يستطيع الحركة، ويصدر عنه أنين خافت، ولدى رأسه جلست امرأة دامعة غارقة فى أرديتها السوداء، تحرك أمام وجهه الضامر النحيل الشاحب منديل مبلل بالماء. وصرخت الأم فى لوعة وهى ترى «ضحى» تقترب:

- «إنه يحتضر يا ابنتى..».

وضعت «ضحى» كفها الصغيرة على جبهته الملتهبة، ففتح الصغير عينيه ونظر إليها فى رعب وصرخ: «أماه..» بينما ابتسمت له «ضحى» وهمست: «لا تخف يا حبيبى..» وآلمها أن تقرأ الرعب فى

عينيه، كل شيء من حولها فقد الأمن والثقة، وتوالى وقوع الكوارث والغدرات أورث الجميع هلعًا وتوجسًا للشر دائمًا، أية جريمة بشعة ترتكب فى حق الإنسان البرىء، وتحطم آماله فى السلام والحب والاطمئنان النفسى!! وكادت تنهمر دموع «ضحى» لولا أن تماسكت، وكزت على أسنانها، ثم فتحت حقيبتها، وأخرجت مقياس الحرارة وحاولت أن تدسه فى فمه فقاوم وبكى، فلم تر بدًا من وضعه تحت إبطه، وانتظرت.. كانت العيون ترمقها فى ضراعة وهى تتوسط الخيمة المحتضرة الضوء، والتى تفوح منها رائحة العفن وعندما سحبت مقياس الحرارة، جاء صوت الأم برعشة البكاء:

- «أنقذيه يا ابنتى.. بحق الله.. إنه حفيدى.. أبوه لقى الله فى الميدان وهو يحارب اليهود، وقد أوصانى به خيرًا ليلة رحيله.. وأمه ضلت الطريق فى ساعات الرعب والمجازر التى أقامها اليهود، ولا ندرى أين ذهبت، وهل هى حية أم ميتة.. ليتنى أموت ويعيش هو.. ليتنى.. ليتنى..».

ثم أجهشت بالبكاء، وهمست «ضحى» وهى تغالب انفعالاتها:

- «أنت تؤمنين بالله. أليس كذلك؟».

- «ونعم بالله يا ابنتى..».

- «لتتركى الأمر له.. إنه أرحم به منك..».

- «الحمد لله..».

ثم أخرجت «ضحى» من حقيبتها بعض الأقراص البيضاء وهى تقول:

- أقراص من السلفا والأسبرين، لسوف تنخفض حرارته فورًا، وبعد ساعات أرجو أن تقل مضايقاته من النزلة المعوية . . أرجو ألا تعطيه إلا سوائل سكرية وملحية كعصير الليمون مثلا . . إنه فى حاجة إلى كمية كبيرة من السوائل . . ».

وأخذت تشرح للرجل طريقة استعمال الدواء، وتكرر له ذلك : ثم قالت :

- «والآن سوف أحقنه بعقار «الكافور» إنه مقوٍّ للقلب والتنفس، ومنشط للجسم، سيفيق فورًا من حالة شبه الإغماء التى يعانى منها . . ما كان أحوجه إلى مستشفى أطفال، لكن، فليرحمه الله ويكتب له النجاة . . ».

ولدى مغادرتها للخيمة رأت ببابها تجمعًا كبيرًا من الصبية والغلمان وبعض الشباب والشابات، فتوقفت عن المسير، وأخذت تحدثهم عن ضرورة المحافظة على نظافة المعسكر وكنسه ورشه يوميًا وعن تعريض المفارش والأغطية للشمس، واتباع أساليب النظافة فى الأكل والشرب والملبس على قدر الاستطاعة، وعزل الذين يصابون بأى مرض فى بعض الأماكن المنعزلة التى يجب تخصيصها لذلك، فجاءها صوت عجوز لم تتبين وجه صاحبه يقول :

- «أكرمك الله . . إننا لا نرى الصابون إلا فى الأحلام . . «حتى الأحطاب التى نستعملها كوقود لم يعد لها وجود . . إنها حياة بدائية قذرة لا تليق بإنسان . . ».

فقالت وهى تطاطئ رأسها فى خجل :

- «يجب أن نفعل أقصى ما نستطيع . . بأقل الوسائل، وأضعف الإمكانيات، يمكننا أن نتجنب كثيرًا من الأضرار والمخاطر . . ».

ورد آخر:

- «الموت أهون من هذا العذاب . . ».

فرفعت صوتها، وصرخت في حدة:

- «ماذا تقولون؟ يجب أن نصبر ونقاوم عوامل الفناء . . ألسنا مؤمنين، إنها محنة وستزول بإذن الله . . كثير من الناس كانوا يقاسون حياة الفقر والضياع قبل النكبة . . كنتم لا تشعرون بهم وكانوا يعيشون، ويحاولون شق طريقهم وسط الصخور والمتاعب، إنه امتحان ابتلانا الله به، ويجب أن نكون رجالاً في احتمال الصعاب . . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ماذا؟ هل أنتم في حاجة لكي أذكركم بهذه المبادئ البديهية . . ».

فهزوا رءوسهم في خجل، وقال شيخهم:

- «صدق الله العظيم . . ».

وشقت لنفسها طريقًا بينهم، ومضت مسرعة، كان في داخلها أنين خافت لا يسمع، وكانت أهدابها ترتعش في توتر، لم تعد ترى شيئًا مما حولها، كانت نظراتها تنظر إلى بعيد حيث تشمخ قبة الصخرة بالمسجد الأقصى نحو السماء، في ثبات وثقة وكبرياء، وكأنها رمز الإيمان الصاعد الذي لا يتزعزع ولا يهتز . .

جفـفت «ضـحى» عينيـهـا قـبل أن تدخل مـركـز الإسـعاف، إن ابتسـامتـها المشـرقـة أمر ضـرورى فى هذا الجـو المليء بالأنين والألم والذكـريات، وتوقـفت قليلاً ثم حـاولت الابتـسام، لم تكن تمثل بل كانت تجذب ابتسـامتها من الأعماق، ألا يسـتطيع الإيمان العميق بالله أن يحـول اليأس إلى أمل، والهـزيمة إلى نصـر، والأنين إلى أغنيـات عذبة حلوة النغم؟ واستقبلها الطبيب باشاً وهو يقول:

- «هل جئت يا ضحى؟ حسنًا. . أنا لم أذق النوم حتى الآن».

قالت شاهقة:

- «ثمانٍ وأربعون ساعة؟. . لا شك أنك متعب».

- «على النقيض مما تقولين تمامًا يا عزيزتى. . إننى أشعر بسعادة قصوى. . إن المحـافظة على حياة الآخرين، تسعدنى جداً، هؤلاء الذين يضحون بأرواحـهم من أجلنا لا أقل من أن نضحى من أجلهم ببضع ساعـات من النوم، والفرق بيننا وبينهم شاسع، فهم يقضـون لياليهم الطويلة يهـددهم الموت والخطر والقلق النفسى، ونحن هنا فى أمان تام، ونأكل ونشـرب ونسـتريح، والبطولة الرائعة يجب أن تلقى منا كل تقدير ورعاية وفخر. . ».

- «صدقنى يا دكتور. . إنك تمدنا بطاقات هائلة من الصبر. . ».

- «لا تبـالغى فـأنا مـجـرد فـرد عـادى جـداً يؤدى واجـبـه لا أكثر. . ».

- «إنها بطولة رائعة أيضًا. . ».

- «لا أظن . . » .

قالها وهو يأوى إلى مقعد خشبى، خلف منضدة بيضاء صغيرة، ويرشف كوبًا من الشاى، ويتناول بعض الأقراص المنبهة، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث فأخبرها أن كمية من العقاقير والمواد الطبية قد وصلت منذ ساعة فى عربة خاصة، بعث بها مدير القسم الطبى بالجبهة المصرية، كما أخبرها أن بعض المرضى قد شفوا، وأصبحوا لائقين للعودة إلى الميدان من جديد، وأن اثنين أو ثلاثة لا بد من نقلهم إلى المستشفى العسكرى بالقاهرة؛ لحاجتهم إلى رعاية أكبر، وبعض العمليات الجراحية الدقيقة، وعلمت منه أيضًا أنهم استقبلوا بعض المصابين الجدد ليلة أمس، ثم قامت هى بدورها وأعطته فكرة سريعة عن الحالة الصحية فى معسكر اللاجئين، وضرورة مدهم ببعض العقاقير المهمة، والثقافة الصحية وإلا انتشرت بينهم الأمراض المعدية التى قد تودى بهم، وتترك عددًا من الضحايا يفوق كثيرًا ضحايا الحرب، عندئذ قال الطبيب :

- «فعلاً . . أنا أذكر أن ضحايا وباء «الكوليرا» فى مصر لا يقارن بمن راحوا ضحية الغارات الألمانية فى الحرب العالمية الأخيرة، يا لها من عظة بالغة!! ما دام الإنسان يموت على فراشه، وتصرعه الأوبئة وهو آمن مستقر فى بيته، فلماذا يحجم بعض الناس عن اقتحام المعارك المقدسة؟! ولماذا لا يتسابقون إلى الاستشهاد من أجل الحق وإعلاء رايه العدالة؟ . . صحيح . . صدق من قال : احرص على الموت توهب لك الحياة . . إننى أسمع عشرات القصص من أفواه هؤلاء الجرحى الأبطال، فكم من مرة يرمون بأنفسهم فى أحضان

الموت، ويقتحمون حقول الألغام والأسلاك الشائكة والرصاص كالمطر من حولهم، ومع ذلك يخرجون سالمين . . إنه القدر . . وقدر الله هو نظامه . . ».

قالت «ضحى» وكلها آذان مصغية لحديثه :

- «أجل . . إن قدر الله هو نظامه . . ».

- «لأن الوجود يمضى على أسس قديمة دقيقة، وتسيره قوانين إلهية محكمة الصنع . . ».

فقالت «نجلاء» وعلامات الجد على ملامحها الدقيقة الفاتنة :

- «فلماذا نقلق إذن؟».

قال وهو يرشف الجرعة الأخيرة ويضحك :

- «لأننا أغبياء . . ».

- «بل لأننا ضعفاء الإيمان يا دكتور . . ».

- «النتيجة واحدة . . ».

واضطجع الطبيب على الحائط، وتدلت ذراعاه، كان يحاول أن يفتح عينيه بصعوبة، لكنها كانت تغلق على الرغم منه، وكانت «ضحى» تحاول أن تستمر فى حديثها، أما هو فقد كان مقاومته للنوم تضعف شيئًا فشيئًا، وإذا ما حاول الكلام خرج حديثه مبعثرًا مشتتًا، أو انطلق ألفاظًا لا رابط بينها، كان يقول : «القدر . . النظام . . الموت . . أجل أن نخيط هذا الجرح . . لنأخذ غرزة هنا . . عملية نقل دم . . جرح بسيط . . لا فائدة مجرد محاولات يائسة، لكن يجب أن

تستمر حتى النهاية . . حتى ننام . . »، وأدركت «ضحى» أن جفنيه قد انطبقا تمامًا، وأن أنفاسه تنبعث رتيبة، والعرق يندى جبينه الأسمر العريض، والصلعة الصغيرة فى مقدم رأسه تلمع، ومسحة من الرضا تشرق على وجهه المتعب، وعلى الفور انسحبت من الحجرة، تاركة الطبيب المصرى وحده؛ لعله ينعم بقليل من الراحة . .

كان عليها أن تذهب توًا إلى عنبر الجرحى لتقوم بتنظيف جراحهم وتضميدها، وإعطائهم بعض الحقن والأقراص المسكنة للآلام، وفى طريقها كانت تفكر . . إن الأمور كلها - كما يبدو - تسير على ما يرام، الروح العالية تسود جميع الجنود، وبسمات الأمل والثقة تضىء على ثغورهم، والعمل الجاد الشاق يسود كل مكان، فالجميع يضحون بأغلى ما يملكون، ولا يعبأون براحة أو نعيم، ويخوضون المعارك فى بسالة منقطعة النظير، القائد فى المعركة، والجندى فى الصفوف، والطبيب فى مركز الإسعاف، وأفواج المتطوعين من أنحاء العالم العربى، والأصحاء والذين أصيبوا فى المعارك، كلهم صورة حية رائعة للبطولة والتضحية وإنكار الذات، ثم إنهم ينتقلون من نصر إلى نصر، والجيش المصرى يطهر الأرض المحتلة فى سرعة عجيبة، والمتطوعون يقضون على جيوب المقاومة قضاء ساحقًا، والدائرة تضيق حول اليهود . . كل شىء يمضى بطريقة مشرفة تنبئ بالخير، فماذا بقى؟ أن ننتظر يوم النصر الأكبر، يوم الخلاص وتطهير فلسطين من كل غاز ومعتد . .

لكن خوفًا مبهمًا كان يخالط مشاعر «ضحى» . . خوفًا لا تدرى

كنهه، ولا تعرف مصدره، إن قلبها يحدثها بأن أشياء كثيرة يطويها المستقبل فى حجبه، لعل روعة الأمل الكبير الذى يداعب خيالها هو الذى يورثها القلق، أتصدق المنى ويتحقق الأمل الكبير على الرغم من مؤامرات الدول الكبرى، وتمزق الصف العربى، وضعف الإمكانيات العربية، وإحكام قبضة الاستعمار على أخطر مرافقنا ومقدراتنا؟ إن تحقيق الحلم الكبير - برغم بشائر النصر المتلاحقة - لهو عين المعجزة..

ولدى دخولها عنبر الجراحة قابلتها مظاهرة من الابتهاج والترحيب، الجميع يحبونها، ويقرءون على ملامحها الوادعة المنيرة الأمل والحب والسلوى، طلعتها المحبوبة تفعل فى نفوسهم أكثر مما تفعل العقاقير فى جراحهم الجسدية، إن أنينهم يخفت عندما يرونها، وانطباعات الألم تنمحى إذا ما أهلت عليهم، والدائبون على الصمت منهم يتسابقون إليها بالحديث، هذا يروى آخر أنباء الصحف المحلية، وآخر يذكر لها آخر بلاغ حربى فى نشرة الأخبار، وثالث قد جمع لها بعض الأنباء المفرحة من آخر القادمين من الميدان، و«ضحى» بين هذه المظاهر الصاخبة تحاول أن تبتسم لهذا، وتمازح ذاك، وتقف إلى جوار بعضهم مشجعة وخصوصًا أولئك الذين لا يستطيعون مغادرة أماكنهم، وبعضهم كان يقرأ لها خطابًا أتاه من أبيه أو أمه أو عروسه، كانت «ضحى» ملتقى أفراحهم، ومصدر سلواهم، ورمزًا رائعًا لفلسطين الأرض الطيبة التى يخوضون من أجل تحريرها هذه المعركة المقدسة، وبينما كانت «ضحى» منهمكة فى تنظيف الجروح وتضميدها، وقف شاب من

الأزهر الشريف فوق سريره وقال: «إننى لا أخوض المعركة بمدفعى فحسب، بل إن لى قلمًا من نار، ولهذا فأنا أكتب من آن لآخر قصيدة ملتهبة من الشعر عن فلسطين الحبيبة . . ».

ثم أخذ فى قراءة آخر قصائده بين تصفيق الجرحى واستحسانهم، وكانت «ضحى» تستمع إليه فى إعجاب واستمتاع إلى أن قال:

«وحيفا والروابى الخضر والشطآن والنهر ... وعذراء لها عينان يهفو منهما السحر

وأغنية مهمومة سداها الحب والبشر ... طواها عاصف الطغيان فى لج من الألم

أخى ومآذن سمقت وأجراس وصلبان ... وخلد مونق الأعطاف بالإجلال مزدان

حضارات وأمجاد . . وأعلام وفرسان ... وأرض تنبت الأخيار والأطهار من قدم لم

لم تتمالك «ضحى» أعصابها، لقد عادت إليها على الفور صورة المدينة الخالدة الجميلة، وأرضها الخضراء والشاطئ الوادع الحبيب، والذكريات العاطرة، ثم تلتها صورة المذبحة الرهيبة التى لوثت معابد الحب والجمال والطبيعة بالدم الطاهر البرىء، ثم رحلة التشرد القاسية بعد أن فروا من المدينة إلى بطون الوديان والصحارى، وجدت «ضحى» أنها على وشك البكاء، فحاولت أن تسرع خارجة، لكن أعصابها انهارات فانفجرت الدموع من عينيها، وأخذت تشهق شهقات دامية، فكف الفتى عن إلقاء الشعر، وكور الورقة فى يده، وأخذ يضغط عليها. فى توتر وألم، بينما صاح أحد الإخوان فى وجهه:

- «كفى . . كفى . . ».

وظلت «ضحى» هكذا دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم انتصبت واقفة، وأخذت تجفف دموعها. . وعادت إلى ممارسة عملها، لكنها كانت هذه المرة صامتة منكسرة الرأس، والشحوب يوشح وجهها.

وهمس الأزهرى الفدائى:

- «ما كنت أحسب أن لشعرى هذا التأثير كله. .».

فصاح به أحد جيرانه:

- لست شاعراً، ولكن أنت «ندابة» فى مأتم. .».

- «أنت لا تفهم فى الشعر. .».

- «وأنت لا تعرف ما هو الذوق».

وابتسم الأزهرى، وأشرق وجهه بالسعادة العظمى وهو يسمع «ضحى» تقول:

- «إنها كلمات رائعة معبرة. . لكأنك كنت معنا فى حيفا. .»
وانتابه فورة حماسة بالغة، فقال وهو يلوح بيده كمن يهتف فى مظاهرة كبرى:

- «أنا معكم إلى الأبد. .».

فجذبه جاره فى ضيق وقال:

- «اعقل يا مولانا. .».

وعاد الضحك والمرح من جديد، وغرق العنبر فى جو المودة والبشاشة والأمل، وسرعان ما رجعت الابتسامة إلى ثغر

«ضحى»، ثم شملت الجميع بنظرة حانية، فشعرت بسعادة قصوى تنساب فى أعماقها البيضاء . .

ونظرت إلى باب العنبر وقد سمعت دقات أجراس مميزة، ولمحت على الفور إحدى الممرضات الصغيرات تقول مسرعة :

- «حالات استقبال جديدة . .» .

- «قادمة حالاً . .» .

وصاح الأزهرى وهو يصفق .

- «مرحبًا بالرجال . .» .

كان الطبيب يقف بباب حجرة الاستقبال متثائبًا، والنوم يغالبه، فقالت وهى تستأذنه فى الدخول :

- «إنك لم تكد تستريح . .» .

- «كلا . . هذه الدقائق، قد جددت نشاطى تمامًا، وأمدتنى بطاقات جبارة . .» .

ووقع بصرها أول ما وقع على رجل قصير حاد النظرات ذى لحية سوداء، ثم رأت من خلفه «خميس شاهين» وأذهلتها المفاجأة فهمست وهى تحاول أن تتماسك :

- «خميس؟» .

فأسرع قائلاً والفرحة لا تكاد تسعه :

- «إنها زيارة خاطفة» .

الفصل الخامس عشر

قال «خميس شاهين» لضحى وهى تحكم الضمادة على جرحه :

- «لست أدرى لماذا لا يعيش الناس إخوة» .

قالت باسمة :

- «لا مجال للفلسفات وسط عواصف الحرب» .

- «كلا يا عزيزتى، فأنا أفكر دائمًا، إن حمل السلاح، والزحف على الحصى والرمل والشوك لا تنهكنى بقدر ما تنهكنى أفكارى الملتهبة. . » .

وشردت «ضحى» ببصرها بعيدًا لبضع لحظات، ثم قالت :

- وأنا بدورى أسألك لماذا لا يعيش الناس كلهم أصحاء . . ؟» .

- «ما دامت هناك جراثيم فلا بد من المرض . . » .

- «وما دامت هناك أحقاد، فالنفوس المريضة وجودها بديهى، ولهذا تهتز وتضعف روابط الأخوة بين البشر . . » .

لم يكن يخفى على «خميس» ذلك التغير العجيب الذى يلحقه

كلما التقى بضحى، فإذا ما رآها استشعر الأمن والرضا، وأدركته راحة نفسية ساحرة، إنها توحى إليه دائمًا بالحب والسلام، ولم يكن هذا تناقضًا فى عواطفه وسلوكه، فهو فى المعركة رجل جهاد، وهو مع «ضحى» ابن أمة مسلوبة الحق، لكن خوضه للحرب لا يعنى عشقه للدم والجراح، إن الحرب شر لا بد منه، كالطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله، وما الحرب فى رأيه إلا وسيلة اضطرارية لردع المعتدى، وإحقاق الحق، وإرجاع الأشياء إلى طبيعتها السوية العادلة.

- أجل يا عزيزتى. . الحرب جريمة. .».

- «بالنسبة لمن؟».

- «بالنسبة لمن أشعلوها يا ضحى. .».

- «ومن ثم فلا مجال لمناقشة هذا الأمر. .».

- «آه. . إنه يعذبنى. . عندما نعود إلى «حيفا»، وتصبح فلسطين كما كانت دائمًا دولة عربية حرة، فسأنسى أن هناك شيئًا اسمه السلاح، سوف أمسك فى يدى غصن زيتون أخضر، وأحلم فى ضوء القمر، وأقرأ الكتب. وأعلم الصبية، وأشترك فى الجمعيات الخيرية، وننعم بالحب والسلام. .».

وضحكت «ضحى» حتى بدت نواجذها بيضاء كاللبن الحليب، وانتهت من رباط الضمادة، ثم جلست قبالته، وأرخت نظراتها قائلة:

- «لو تحقق حلمك، فلن يكون على هذه الصورة المغرقة في المثالية، ستجد نفسك مضطراً لأن تحمل السلاح حفاظًا على ما نلته من نصر، أجل.. لا بد من أن تحمى حريتك واستقلالك ومستقبل أجيالك بوسائل القوة التي وهبها الله لك.. لن تكون معتديًا أو طاغيًا بالطبع، ولكنك ستكون رجلاً يقظًا يحرس أمن أمته ومبادئها.. كثيرًا ما يردد أبي آية عظيمة من آيات القرآن الكريم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ...﴾ [البقرة: ٢١٦].

فهز «خميس» رأسه قائلاً:

- «صدق الله العظيم..».

وعادت «ضحى» تضحك من جديد وتقول:

- «يبدو أن الحرب تورثنا القلق وتقلبات العواطف، اليوم دعاة حرب أشداء، وبعد ساعة، دعاة سلام أوفياء....».

لم يستطردا في الحديث فقد تصادف مرور القائد في هذا الوقت، كان يمر في خطوات قصيرة مسرعة دون أن ينظر هناك أو هنا، واعتدل «خميس» في جلسته، وبدا عليه أنه يكن للرجل احترامًا أكبر بكثير من توقير الجندي لقائده وهتف «خميس» عند مروره أمامه:

- «هل استخرجوا الرصاصة من كتفك؟».

- «حمداً لله . . كل شيء على ما يرام . . ».

- «أرجو أن تكون سعيداً . . ».

فقال القائد وهو يمضى فى طريقه ويتوارى عند منحنى الممشى :

- «القعود هنا ممل».

فنظر «خميس» إلى وجه «ضحى» متأملاً ثم تساءل :

- «ممل؟».

فقطعت عليه استطراده قائلة :

- «من هذا الرجل؟».

- «رجل عظيم . . إنه قائد كتيبتنا».

- صدق ظنى . . كلما رأيت سمته وصمته وحزمه، شعرت أننى أمام رجل من صانعى التاريخ . . أولئك الرجال الذين كان أبى يحدثنى عنهم دائماً . . ».

ثم التفتت مرة ثانية إلى «خميس» قائلة :

- «من هو البطل؟».

- «هو الإنسان الذى يضحى من أجل الآخرين ليحقق لهم السعادة . . ».

- «إنه ينسى سعادته إذن . . فالأبطال أشقياء . . ».

- «كلا يا عزيزتي . . إن تضحيته تغمر قلبه بالسعادة، ومن ثم فهو سعيد حين يقدم السعادة للآخرين . . » .

ثم تنهدت وقالت :

- «آه . . إني مثلك . . أفكر كثيراً . . » .

- «بلا شك، هذه المأساة تصهرنا لتخلقنا من جديد، إنها تهز أسس المجتمع الذي نعيش فيه، ومن شررها المتطاير تتولد أفكار وقيم جديدة، هذه المأساة ستغير معالم الحياة في بلادنا، وستكون بداية لثورة شاملة كبرى . . هذا ما أعتقده، رأيت نماذج جديدة من الرجال والأفكار فوق ثرى فلسطين، وفي لهيب المعارك الدامية . . » .

وهبت «ضحى» واقفة، وأخذت تنسق هندامها، وتبحث عن حقيبتها ثم قالت :

- «آن أن أعود إلى المعسكر» .

***

في منتصف الليل التقى القائد بخميس شاهين وبعض قادة الفدائيين الذين وفدوا من مواقع مجاورة، وفي هذا الاجتماع الصغير دارت أحاديث على جانب كبير من الخطورة، كانت هناك رسائل تنشر، وتقارير تقرأ وحوار عاصف يدور، ومن آن لآخر تدق قبضات الأيدي المناضد الخشبية في عنف واحتجاج . لقد تأكد لهم أن هناك فضائح مستترة برغم التقدم الحربي نحو «تل أبيب»

فالسلاح الجديد الذى استوردوه من بعض دول أوربا، اتضح فساده وضرره، إنها جريمة أن يمسك الجندى المصرى بسلاح ويحاول أن يطلقه، فإذا بالنار تنفجر فيه، وإذا هو يموت بيده لا بيد أعدائه: وقال القائد موجهًا الحديث لرفاقه:

- «إن ثمن هذا السلاح الفاسد مدفوع من جيب الشعب الفقير الكادح، إنه عرق الفلاح والعامل والموظف، حرموا أنفسهم من الرغيف، وحرموا أطفالهم من المتعة ليقوموا بواجبهم المقدس، فإذا بباشاوات القاهرة وملكها يأخذون هذا المال، ويختلسون أغلبه، للملك جزء، ولبطانته جزء، ولتجار الموت الذين سافروا إلى أوربا جزء، والباقى يشترون به مخلفات فاسدة، لا شك أيها الإخوة إنهم اشتروا هذا السلاح من عصابات يهودية بطريق غير مباشر، إن معنى هذه الصفقة من الأسلحة الفاسدة معنى خطير، إن الحكام لا يفكرون فى المعركة إلا من ناحية أنها مصدر لثرائهم واستغلالهم، إنهم بهذا يغتالون أنظف عناصر هذا الشعب من الشباب والضباط والجنود، ويتعاونون صراحة مع الأعداء، وينفذون المخطط الاستعمارى الصهيونى.. إن فاروق وزبانيته مجرمو حرب..».

وهتف «خميس شاهين»:

- «مجرمو حرب؟».

- «أجل.. فأنا أعى كل كلمة أقولها.. لست متهورًا ولا مندفعًا، ما معنى أن تعطينى سلاحًا فاسدًا، ثم تأمرنى بخوض

المعركة ضد جنود مسلحين بأحدث الأسلحة الأوربية والأمريكية ما معنى ذلك؟! إنها أحكام إعدام جماعية مستترة.. إنها خيانة لقضية فلسطين وقضية العروبة.. خيانة لدم الشهيد.. خيانة لله أيها الإخوة.. لو كانت هناك عدالة، لأنزلوا فاروق من فوق عرشه وجمعوا معه بطانة السوء، ثم أشعلوا فيه وفيهم النار في أبرز ميادين العاصمة؛ لتكون عبرة لكل طاغية في مصر أو في غيرها.. ماذا أقول أيها الإخوة؟.. أنحارب اليهود أم نحارب الخونة في صفوف شعوبنا؟ نحن بين نارين..».

أخذ القائد يجفف عرقه، كانت كل عضلة في جسده تختلج، وكانت الأفواه من حوله صامتة جامدة، والحيرة معقودة على الرءوس المرتفعة، وحرارة الجو تزيد الموقف تأزمًا وحدة، وأنين مختلط ينبعث متتابعًا من عنبر الجراحة القريب، وكأنه موسيقى تصويرية لمشهد مؤثر حزين، وصر القائد على أسنانه قائلاً:

- «أليس مضحكًا أن نحارب أعداءنا بسلاح نشتريه منهم.. أتدرون متى ننتصر؟ عندما نصنع سلاحنا بأيدينا، ولن نفعل ذلك إلا إذا كسرنا الأيدي التي تعوق انطلاقنا، هذه الأيدي هي الحكم الفاسد والاستعمار الذي يحميه..».

قال «خميس» تخالط نبراته رنة ألم:

- «ليسمح لي السيد القائد أن ألفت النظر إلى مسألة مهمة، لقد خضنا المعركة، ونحن نعلم سلفًا أن خلف ظهورنا خناجر مسمومة،

وكان لا بد أن نخوضها، وكل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن نركز أفكارنا حول موضوع واحد ألا وهو المعركة التى نخوضها . . ».

قال القائد فى حدة :

- «إنها معركة واحدة . . ».

- «لنستمر فى زحفنا نحو تل أبيب، ونؤجل الأمور الأخرى».

- «أتضمن لنا عدم تسديد طعنات أخرى فى ظهورنا؟».

- «بالطبع لا . . ».

- «أرأيتم؟ الرءوس الفاسدة التى تهيمن على مصائرنا سوف توردنا موارد التهلكة، هذه حقيقة يدركها المخلصون من رجال الجيش فى مصر، إنهم يطوون صدورهم على مرارة قاتلة . . ».

وانتفض «خميس شاهين» واقفًا وقال :

- «إنها مأساة . . لكن ما الحل؟!».

رد القائد فى اكتئاب :

- «أجل ما الحل؟! إننا نبحث عنه جميعًا . . ».

لم تكن هذه المشكلات لتجد الحل السريع، ولم يكن من المنطق أن يستطيع بضعة رجال تصفية الأفق المكفهر بصور من القرارات أو المغامرات الدامية، فلو فكروا الآن فى تأديب المارقين وتطهير أداة الحكم، وتخلوا مؤقتًا عن معركة فلسطين، لانتهى الأمر وابتلعتها

الصهيونية، وانجابت سحب القلق والضياع بعد هذه المناقشة الحادة العاصفة، وقال القائد وقد ترقرقت الدموع فى عينيه:

- «ليس من الحكمة فعلاً أن نفتح أكثر من جبهة».

قال «خميس»:

- «هذا ما أردت قوله، ليس أمامنا سوى المضى فى كفاحنا على هذه الأرض، وانتصار قضيتها انتصار للقيم والمبادئ التى تتوثب خلف ضلوعنا.. ثم لا تنسوا أيها الإخوة أن آلاف غيرنا يقلقهم مصير أمتنا، لا شك أن فى القاهرة وبغداد وعمان وغيرها أحراراً كثيرين يرقبون الأمور، ويتحرقون شوقًا لإصلاح الحال، وتصفية الحكومات الفاسدة..».

واندفع أحد الرجال الصامتين قائلاً:

- «ومع ذلك فلا مجال لليأس، قوتنا لم تتراجع.. إننا ننتصر، ما أكثر السجناء الذين تحرروا من القيود، وسحقوا سجانيهم، بالأمس انتصرت الهند برغم آلاف الجنود البريطانيين، وبرغم فقرهم فى المال والسلاح والغذاء وكل الإمكانيات.. وسننتصر بإذن الله..».

كان الليل قد مضى إلا أقله حينما آووا إلى مضاجعهم، وفى رأس كل واحد بركان يتفجر، وبقيت العيون مفتوحة برغم الظلام والتعب والصور القاتمة، وما كان باستطاعة ضمائرهم الحية أن تجد إلى الراحة أو النوم سبيلاً تحت هذا الأفق الدامى المشحون بشتى الاحتمالات والمخاوف.

الفصل السادس عشر

لم يكن «نادر سليمان» ابن ثرى «حيفا» يفكر أن أمره سينكشف في يوم من الأيام، وما كان يدور في خلده أن خيانته ستتجلى وتصبح فضيحة كبرى تتناقلها الألسن، ويرويها المجاهدون في غيظ وهم يتسلقون قمم الجبال، أو يجتازون بطون الصحراء، ولو كان اللص متأكدًا أنه سيقبض عليه متلبسًا بجريمته، والقاتل تحت جنح الظلام معتقدًا أن عيونًا ترقبه في الخفاء لما جرؤ هذا أو ذاك أن يرتكب الحماقات، دارت رأس «نادر» بهذه الأفكار المؤلمة وهو يقاد ذليلاً مغلول اليدين، فطأطأ رأسه في خجل، وانسكبت دموع صامتة على خديه الخائرين. وكلما تذكر أن الأصابع تشير إليه في اتهام، وأن العيون ترمقه في احتقار، ازداد جريان دموعه، وشعر بما يشبه السياط الحارقة يلهب روحه المعذبة، وتمنى أن تنخسف به الأرض، أو تختطفه يد مجهولة، وتقذف به إلى حيث لا يلحق به أحد، لقد ضاقت الدنيا من حوله، وكاد اليأس يقتله، وهمّ أن يرفع وجهه إلى السماء ضارعًا متوسلاً، لكنه لم يستطع، فكيف يرفع إلى الله وجهًا تلطخه الخطيئة، أو يدين ملوثتين بأوحال الخيانة . .

خان من؟ خان شعبه بأسره وقضية أمته المظلومة، وخان دماء الشهداء والمناضلين الأحرار، وتنكر لدعوة الله، وداس كل القيم الفاضلة، ومبادئ الرجولة والشرف، ولماذا خان؟ من أجل أن يحفظ لأبيه ثروته، ولكى يخلف أباه على هذا الثراء.. يا للعار هل يثق فى وعود اليهود؟ أليس من الجائز أن يقوم بدور الخيانة، ثم يلفظه اليهود ويستولوا على كل ما يملك؟! وهل ضمن لنفسه امتداد العمر بحيث يستطيع أن يؤكد لها وراثة المال والجاه؟ وأى مال وأى جاه فى ظل الاستعمار اليهودى؟ ألم يفش سره واحد من أولئك اليهود الذين وثق فيهم وخان شعبه وضميره من أجلهم؟ إن اليهودى لا يقدر الشرف أو التضحية، لأنه لا يفكر إلا فى نفسه وأطماعه، وهمس «نادر» لنفسه فى نبرات مرتجفة بائسة: «ألا يمكن تدارك ما فات؟» لقد كان انكشاف أمره زلزالاً عنيفًا، هز أصول تفكيره ومعتقداته، لقد استيقظ من نومه وانحرافه على دوى الانفجار الهائل، إذ ما أسهل أن يقارف المرء الرذيلة بعيداً عن أعين الناس، وما أشق أن يجاهر بها وسط قوم شرفاء، يتأذون لمشاهدها القذرة.. «لو يعود الزمان إلى الوراء، وتشطب هذه السطور المخزية من سجل حياتى وأملك زمام نفسى ومصيرى من جديد، لكان لى سلوك آخر، يشابه على الأقل سلوك امرأة شجاعة كنجلاء.. آه.. «نجلاء» هذه الأسطورة الفاتنة، التى كنت أعدها أنموذجًا لا يظهر إلا فى الخرافات التى ترويها العجائز. أو الأكاذيب التى تروجها كتب التاريخ لتغرس فى النشء حب التضحية

والبطولات القومية . . لو امتد الزمن فترة أخرى . . أعنى لو استطاعت «نجلاء» أن تفتح قلبها لى ، وتهبنى هواها ، وتتفرغ لضارعتى ولو لبضع لحظات كل يوم ، لتعرضت حياتى لانقلاب شامل ، ولنسيت أمجاد أبى التافهة ، وثراءه العريض ، وجشعه الذى دفعنى وإياه للخيانة ، ولأصبحت الآن أحد أولئك الأبطال الذى ينتصرون لمبادئ الحرية والشرف على الأرض المقدسة . .

وفى سجن «غزة» استقر المقام ، زنزانة كئيبة لا أنيس له فيها إلا وجه مأساته البشع ، وأشباح الذكريات السوداء تطل عليه من آن لآخر فتورثه الرعب والحسرة ، ثم صورة فتاة تقف خلف مدفعها فى تبتل وإيمان ، وكأنها تؤدى أقدس الصلوات ، ورجال شرفاء يقضون الليل والنهار فى جهاد مستمر ، لا من أجل أعراض الدنيا الفانية وأحلام الثراء ، والأمجاد الشخصية الزائفة ، ولكن من أجل الله ، وانتصاراً لمعانى النبل والوفاء والفضيلة ، وفى ليله الحالك الطويل ، يعيش «نادر» نهبًا لأحزان قاتلة ، وندم كالجحيم حتى لقد أصبح يعتقد أن عذاب الله دون العذاب الذى يقاسيه فى زنزانته ، إن الحارس العربى يقذف إليه بالطعام وكأنه كلب حقير ولا يفكر مرة واحدة فى أن يجاذبه أطراف الحديث ، ونظراته ينبعث منها شرر حاقد يكاد يحيل «نادر» إلى رماد . . إنه محتقر معذب . . ممزق النفس . . يتقلب على ما يشبه الجمر ليل نهار فأهل الأرض يبصقون على نذالته ، والسماء تصرف وجهها عنه ؛ لأن خطيئته من الكبائر ، فأين يذهب؟!

وعندما استدعوه إلى محاكمة عسكرية عاجلة، كان يمشي بين حارسين وكأنه في حلم، لم تستطع ساقاه أن تحملاه، فتوكأ على كتفيهما، كان ينظر إلى ما حوله نظرات ذاهلة مرتاعة، فتتداخل المرئيات، وتختلط الألوان والوجوه والمشاهد، فيشعر بشعور الذى يضرب فى التيه على غير هدى بعد أن كاد يقتله الجوع والظمأ والنصب، وعندما وقف أمام ضابط كبير وإلى جواره عضوا يمين ويسار، قال له الضابط:

- «أنت متهم بالخيانة العظمى. . مذنب أم غير مذنب؟!».

ودوت هذه الكلمات فى رأسه كالمطارق، لم يستطع أن يتكلم فقد خيل إليه أن الرجال والجدران والمنضدة والمقاعد وقطع السلاح. . الدنيا كلها تردد بصوت كالدوى الهائل: «أنت متهم بالخيانة العظمى» كثيراً ما قرأ فى الكتب والروايات عبارة كهذه، لكنها لم تكن فى يوم من الأيام لها هذا الدوى وهذه الرجفة الشديدة. . كان يقرأ أخبار الثورات والخيانات والمشانق والدم بأعصاب باردة، وكأنه يتسلى على رقعة شطرنج ولا يهمه أن يموت الوزير أو يحاصر الملك أو ينتصر أو يهزم. . لكنه اليوم فى وضع مختلف. .

وجاءه صوت المحقق مرة ثانية، لكنه كان جافاً حاسماً:

- «مذنب أم غير مذنب؟».

قال «نادر» فى شرود:

- «ما معنى ذلك؟».

- «أنت تعرف . . لقد تجسست لحساب الأعداء، وبعت وطنك وتنكرت للأرض التى حملتك رضيعًا وصبياً وشاباً، وفتحت أمامك وأمام أبيك فرص الثراء . . تنكرت للقيم الفاضلة التى تجعل من المخلوق البشرى إنسانًا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . . ».

قال «نادر» مرة ثانية :

- «ما معنى ذلك؟».

- «معناه أنك أنانى . . خائن . . تسببت فى سفك دماء إخوانك فأنت قاتل أيضًا . . وكنت تمد العدو بالمعلومات العسكرية، وتكشف عن تحركات المجاهدين، وتتعلل بأوهى الأسباب لتتقاعس عن خوض المعركة، بل تحاول أن تثبط عزائم زملائك ليرفعوا الراية البيضاء . . كنت أخطر عليهم من ألفى جندى إسرائيلى كاملة العدة والتنظيم . . مذنب أم غير مذنب؟!

ورويدًا رويدًا أفاق «نادر» إلى نفسه، تملك أعصابه، واعتصم ببقايا إرادة هاربة، ولعل شبح الموت الماثل فى خياله أمده بقليل من التشبث والاستمساك بأهداب الحياة، فهتف والدموع على خديه :

- «إنها وشاية يهودية تريد أن تمزق وحدتنا بإثارة الشكوك».

قال المحقق فى برود :

- «ولماذا احتفظت بجهاز لاسلكى إسرائيلى وبمفتاح الشفرة معك؟

- «. . . . .».

- «ولم قلت عقب انكشاف أمرك «أيها البلهاء». أنتم تحاربون إنجلترا وأمريكا وفرنسا» تحاربون أوربا. . لنقبل الأمر الواقع. . أنتم مغرورون». . لماذا قلت هذا؟!».

- «لم أقل هذا».

- «لكن أفراد كتيبة عمر بن الخطاب لا يكذبون».

- «. . . . .».

- «ثم لماذا أفشى الضابط اليهودى سرك»؟

- «. . . . .».

وانفجر «نادر» باكيًا، كان يحاول أن يجذب شعره، ويدق رأسه بقبضته، ويضرب بقدميه الأرض الصلدة، ويتأوه ويصرخ كفتاة اختطفها فرسان الزمان الغابر، كان بلا أمل. . بلا منطق، ولا يجد ما يبرر به خيانته، ويحفظ عليه حياته. . وجفف «نادر» دموعه ثم قال:

- «الرحمة يا رفاق. . كان أبى وديعة لدى الأعداء».

- «لكى تنقذ أباك قامرت بمستقبل الملايين؟! أية وحشية وأنانية. .».

- «أنسيت أن مئات مثل أبيك وأشرف منه يموتون كل يوم أبطالاً شرفاء؟!».

وأخذ المحقق يقلب الأوراق التى أمامه.. وران على الجميع صمت صاخب، وبالنسبة «لنادر» كان هذا الصمت هو الموت بعينه، وقال المحقق فى هدوء:

- «لو أرشدتنا إلى الشبكة التى تعمل معك لكان هذا فى صالحك..».

فصرخ «نادر» فى ألم:

- «لست محترف تجسس، إنها نزوة شيطان..».

- «حسنًا.. ألديك شىء تقوله؟!».

رفع «نادر» رأسه وقال فى شجاعة لأول مرة:

- «بقى أن أقول إننى مذنب... لكن...»،

- «لكن ماذا؟!».

- «ألا تتسع قلوبكم للمغفرة؟! أقسم لو أعطيتمونى فرصة الحياة من جديد لعدت إلى الميدان، وبذلت روحى وأبى وأعز ما أملك فى سبيل قضيتنا العادلة..».

هز المحقق رأسه وقال فى حزم:

- «إنه حكم الله.. ولكم فى القصاص حياة..».

- «إنه الموت..».

- «رميًا بالرصاص. .».

- «متى؟».

ولم يجد جوابًا، خيل إليه أن الموت يدهمه من كل طريق، ويضيق عليه الخناق كتنين هائل، واختلطت فى مخه المشوش صور عديدة، أطنان الفاكهة التى يجمعها أبوه، الآمال الحلوة التى داعبت شبابه وذكرياته الذاهبة فى «حيفا» البعيدة ذات العبير، وليالى النضال الزائف على قمم الجبال، وفى سراديب الكهوف الرطبة الخافتة الضوء. ووجه «نجلاء» الملائكى الطاهر، ونظرات الشك فى عينى «صالح بدران» ذلك الفتى الملهم، وخيبة الأمل الكبرى التى ارتسمت على وجوه الرفاق عندما اكتشفوا خيانته، والضابط اليهودى الأسير وهو يقذف بالحقيقة المدمرة ويميط اللثام عن دوره القذر، فتنهار قواه. . ثم أخيرًا. . جسده الضامر النحيل الفارع العود، وهو يراه بعين الغيب يترنح تحت طلقات الرصاص يوم يثأر منه الشرفاء ومن نذالته، وانهمرت دموع «نادر» غزيرة، كان جسده ينتفض، ومن بين دموعه المنسكبة كان يقول:

- «إننى أبكى نفسى، إن الموت فى معركة شريفة شىء رائع أيها الرجال. . لماذا لم أكن شريفًا؟! لماذا؟! لماذا؟!».

وضاعت كلاماته اللاهثة وسط قرقعة السلاح، وصيحات الجند وأوامر القادة، ووقع الأحذية الغليظة وهى تدق الأرض وتذهب به إلى زنزانته الكئيبة السوداء. .

الزنزانة والليل وأشباح الخطيئة والموت، تتراقص إيحاءاتها كلها من حوله، وهو بينها حائر تعس يقوم ويقعد، يتلفت يمنة ويسرة، ويهرول عبر الحيز الصغير جيئة وذهابًا، لكأن لوثة من الجنون قد خالطت ذهنه، فهو يحاول زحزحة الجدار السميك، ثم يحاول دفع الباب الخشبى الصلب، أو يثب إلى أعلى عله يستطيع أن يحطم السقف ويطير بجناحين من الخيال. . إلى أين؟ إلى أرض مقفرة لا حياة فيها ولا أحياء، حيث يعيش وحده وينسى كل شيء أباه. . والذكريات السوداء. . لا. . إنه يهذى، هذه أحلام طفل أبله، يجب أن يكون عاقلاً وحازمًا، وأن يضع حدآ لهذا العذاب والجنون. . لو كان رجلاً حقاً لحاول أن يقتص من نفسه مثلما يقتصون منه اليوم. . قبل أن تشرق الشمس غدًا، فلسوف يقودونه إلى الساحة الرهيبة، ثم يعصبون عينيه، وفى لحظات يكون كل شيء قد انتهى. . لكن، ألا يجوز أن يعفوا عنه؟؟ وقهقه «نادر» ساخرًا. . وغمغم: «لم أزل أحلم. . »، ثم نظر إلى «البرش» الذى ينام عليه، وعلى الفور جلس ليصنع منه حبلاً متينًا. . .

وعندما فتح السجان زنزانته فى الصباح المبكر، كان «نادر» يتدلى مشنوقًا فى حبل مثبت فى أعمدة النافذة ذات القضبان المتشابكة. . ودلو الماء ملقى فى أحد الأركان القريبة. . وصرخ السجان وقد شحب وجهه: «لقد انتحر. . ».

●●●

الفصل السابع عشر

الترام يقترب من حى السيدة عائشة، وعلى الرغم من حرارة الجو وازدحام الترام بالراكبين، فإن الأستاذ أحمد بدران كان يلبس طربوشه ورباط عنقه، ومنهمكًا أشد الانهماك فى قراءة إحدى الصحف اليومية، كان يعيش فى معركة فلسطين بعقله ومشاعره، فارتباطه بالمعركة لأكثر من سبب، فهى إلى جانب أنها قضية الوطن العربى الكبرى، فإن هناك اعتبارًا آخر، له أهميته وخطورته، ألا وهو مشاركة ابنه صالح فى هذه المعركة وارتباط مصيره بمصيرها، كان يقرأ كل كلمة تكتب عن فلسطين فى الصحف والكتب، وعندما يأوى إلى بيته يجلس أمام المذياع ويحرك المؤشر حتى يستمع إلى كل المحطات الإذاعية العربية منها والأجنبية، حتى جلساته مع أصدقائه مفتشى المنطقة ونظار المدارس والمدرسين الأوائل لا يكون له حديث أكثر جاذبية، وأشد قربًا من نفسه من حديث المعارك الدائرة على الأرض المقدسة، وكانت تهزه نشوة الفخر والسعادة إذا سأله أحدهم قائلاً:

- «ألم تأتِ أخبار عن صالح؟».

كان يشعر آنذاك أن صالحًا رجل عظيم، وأن عظمته فى نظره تفوق ما يضفيه المنصب على الوزراء ورئيسهم ومليكهم، إن صالحًا الآن خارج حدود مصر، بعيدًا هناك فى خط النار، تفصله عن بيته آماد بعيدة، يحيا حياة التقشف والنضال والبطولة كرجل حر، وصالح فعل ذلك بناء عن تفكير حر، وانبعاث ذاتى لا دخل لأحد فيه، إن صالحًا الآن ذو إرادة حديدية لا تهاب الموت، ولا ترهب المستحيل. . يا لها من حقيقة رائعة، لو أراد الأستاذ أحمد بدران أن يصنع ابنه على هواه، ويصنع له من الصفات والمبادئ ما يرضاه لما أمكنه أن يفعل أكثر من ذلك. .

وعندما بلغ مسكنه استقبلته زوجه لدى الباب، كانت عيناها متورمتين، وآثار الدموع لم تزل عالقة بأهدابها، وما إن رآها على هذا الحال حتى صاح وهو يلوح بالصحيفة:

- «اللهم اخزيك يا شيطان! ماذا جرى يا امرأة؟».

فأدارت وجهها بعيدًا عنه دون أن تجيب، كانت انفعالاتها فى قمة جيشانها، وكان هو يدرك رهافة إحساسها بالنسبة لفتاها، ومن ثم أراد أن يشغلها بالحديث عما تفكر فيه فقال:

- «لا شك أنى سأجد متعة كبرى فى الدجاج والملوخية، إنها أكلتى المفضلة. .».

ولم تستطع الأم أن تكبت انفعالتها أكثر من ذلك فقالت بصوت باك:

- «الخطأ منى أنا . . لو كنت حازمة لأغلقت الباب دونه ومنعته من السفر . . ».

فقال ضاحكًا:

- «إذن لحاكمتك بتهمة الخيانة العظمى . . ».

- «ماذا تظنين يا امرأة؟ أتعتقدين أن أبًا مثلى يغامر بحياة ابنه الوحيد؟ المسألة ليست إهمالا متعمدًا منى أو منك، إن ابنك يؤدى واجبه، هبيه فى فترة للتجنيد الإجبارى، ماذا كنت تفعلين . . ألا تذكرين أحد أصدقائى الذى مات فجأة منذ سنوات وهو يلقى الدرس على تلامذته؟ الموت والحياة بيد الله يا امرأة؟ لا تكونى ضعيفة الإيمان . . ».

فالتفتت إليه فى ثورة:

«ابنى فقط . . هو ما أفكر فيه، لماذا يذهب رفقاؤه إلى الجامعة، وينعمون بالحياة، ويتنزهون على النيل وفى الحدائق العامة وينامون ويذاكرون وينجحون، وهو هناك يقاسى الحر والحرمان، ويعيش وسط الأخطار المحدقة؟ لماذا هو بالذات؟ إن من يرى الناس فى الشارع، ومواكب السادة وحفلات الترفيه لا يصدق أن هناك حربًا تحرق الآلاف من الشباب اليافع . . ».

فقال وهو يخلع سترته ويقذف بها فوق السرير بعنف:

- «إنها الأنانية . . دائمًا تفكرين فى نفسك، وتنظرين إلى المثل

السيئة . . إن ابنك ليس أنت . . وليس أنا . . إنه صالح نفسه، له إرادته ورأيه الحر، ليفعل ما شاء . . إنه يخوض أشرف معركة من أجلنا جميعًا . . ومن أجل نساء مثلك وشيوخ مثلى . . يجب أن تؤمنى بهذا وإلا قذف الله بك إلى جهنم . . » .

وانتفضت كمن لدغتها حية وهتفت :

- «جهنم؟ ماذا تقول يا رجل؟» .

- «إنك تدوسين كل القيم الغالية من أجل أنانيتك . . » .

فقالت والدموع على خديها :

- «الحرب لا تعرف الرحمة يا أحمد» .

- «وقلبك لا يعرف معنى التضحية» .

- «وإذا مات لا قدر الله؟» .

- «لن يموت . . » .

- «كيف؟» .

فأخذ يرتل بنبرات خاشعة :

- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

فقالت وهى تجفف دموعها :

- «قلب الأم يا أحمد . . » .

نطقت عبارتها الأخيرة فى شىء من الذلة والألم، فأثر فيه منظرها، فوجدت الرقة إلى قلبه سبيلاً، وبدت زوجه فى حاجة ماسة إلى العطف والعزاء، لا شك أنها تعرف نبل الغاية التى يسعى إليها فتاها، وتدرك عدالة القضية التى يدافع من أجلها، إن ابنها أقرب منها إلى الحق.. وإلى الله، ومن ثم فهى تبارك خطواته، وتثق فى صدق نواياه ونظافتها، لكنه الضعف البشرى الذى ينتابها من آن لآخر، أو قلب الأم الرقيق كما تقول، وليست أم صالح بدعًا بين النساء، فكلهن ينشدن السلامة والسعادة لفلذات أكبادهن، ولا يجدن وسيلة للتنفيث عن ضعفهن الفطرى غير الدموع..

واستطردت الأم قائلة:

- «كيف أبتلع لحم الدجاج وحبيبى فى الصحارى الموحشة لا يأكل إلا اللقيمات الجافة والأطعمة المحفوظة.. إنها قاسية.. قاسية يا شيخ أحمد..».

قال زوجها مهونًا عليها الأمر:

- «هذه أمور تافهة.. إذا امتلأت المعدة استوى لديها الديوك الرومى والطعمية، الملايين يأكلون القديد بلا إدام، وكثيرون لا يجدون ما يأكلون، ويمدون أيديهم طالبين الإحسان.. ابنك ورفاقه يأكلون ويشربون.. ويسعدون، يكفى أنهم سعداء.. وعندما يعود تستطيعين أن تذبحى له كل يوم دجاجتين.. هيه، ماذا قلت؟ لا تنسى أنى كنت مثلك فى بداية الأمر وكنت قلقًا على

مصيره، بل اعترضت على سفره، فى نوبة من نوبات الضعف البشرى، لكن الله سلم وأضاء قلبى بنور الحق، كانت كلمات ابنك الفتية الواضحة كالسحر، لقد بددت ضعفى وأنانيتى. . إننا نحمد الله. . وغدًا يعود. . ».

قالت وقد أشرق وجهها بطيف ابتسامة عابرة:

- «أيعود حقاً؟».

- «بإذن الله: هيا يا امرأة. . أحضرى الدجاج والملوخية. . هيا فإن عصافير بطنى تزقزق».

قالت وهى تهرول إلى المطبخ:

- «فلينصره الله. . وليطل عمره».

***

كان الأستاذ أحمد بدران يتصنع الشراهة وهو على مائدة الطعام، والحقيقة أنه منذ سفر ابنه، وانشغاله بالأحداث السياسية، لم يعد يقبل على الطعام بنفس الشهية القديمة، حتى فترات نومه قلت إلى حد كبير، فقد كان يعيش فى بيته بأعصاب رجل فى خط النار، وأدرك الرجل بثاقب فكره أن الناس جميعًا - لا كما تزعم زوجه - يخوضون الحرب سواء فى القاهرة أو فى فلسطين، وما استطاع الشعب فى يوم من الأيام أن ينفصل عن واقعه وعن الأحداث الجسام التى تهز جذوره. . وكانت زوجه

تتناول لقيمات قليلة تكاد تقيم الأود، وكاد الرجل يستغرب كيف تحيا زوجه وتمارس عمل البيت مع هذه الكمية البسيطة من الطعام، لكنه يعود ويقول: «إنها قدرة الله.. فهو الذى يهبنا القوة والصبر والإيمان الذى به نعيش».. كانا يأكلان فى صمت، ويبدا واضحًا أن صالحًا قد ترك فراغًا كبيرًا فى مسكن الأسرة، كان يملأ البيت بالحديث والمرح والمناقشات الحادة مع أبيه، وكان دائمًا يتكلم عن المستقبل الجميل وكأنه أغنية عذبة، وكان يثير عديدًا من المشاكل الفكرية والفلسفية مع أبيه، ولا يكف عن استطراده برغم اعتراض أمه على هذه السخافات والسفسطات التى تصدع الرأس، ألا ما أشد شوقها إلى هذه «السخافات»، وخرجت الأم عن صمتها قائلة:

- «زعموا أن الضباط من أبناء الباشاوات والكبراء لا يذهبون إلى الميدان، وأن من لا تسعفه الوساطة يدفع الرشاوى...».

فقال الزوج فى ضيق:

- «لا يذهبون لأنهم ليسوا أهلاً لهذا الشرف.. لو ذهبوا لأفسدوا المعركة..».

- «لكنه مخجل..».

- «لا تنسَ أن بعض الضباط الأحرار قد تطوعوا قبل دخول الجيش المعركة.. وبعض من لم يصبهم الدور طالبوا بإلحاح كى يسافروا إلى فلسطين..».

وسادت فترة صمت أخرى، ثم قالت وهى تمضغ الطعام دون تلذذ:

- «وسمعت أيضًا أنهم زوّدوا الجيش بأسلحة فاسدة..»،

قال وقد قطب جبينه:

- «من روى لك هذه الأخبار؟..».

- «الناس فى الشارع..».

- «لكن قواتنا تنتصر وتتقدم، ولو مضت الأمور على هذا المنوال فسيقضى على اليهود فى شهرين..».

وعاد الصمت يغلف المكان من جديد، وحطت على حجرة الطعام وحشة من العسير أن تتبدد بمثل تلك الأحاديث القاتمة المبتورة، وتوقفت الأم عن تناول الطعام، ثم سرحت بخيالها، وبان فى عينيها الشرود، وتسللت ابتسامة خفيفة إلى ثغرها، فهمس زوجها:

- «فيم تفكرين؟».

- «أتخيله وقد عاد، والأعلام والرايات تخفق فوق مسكننا، واللمبات الكهربائية الملونة تقلب البيت إلى شعلة من الأضواء وكأننا فى يوم عيد، وجوقة موسيقة تعزف أعذب الألحان، والجيران والأقارب والأصدقاء يتوافدون مهنئين، ويكرعون أكواب «الشربات».. وفى هذا اليوم بالذات سوف نعلن «خطبة» صالح لابنة أختى.. وسنسعد بعودته وبخطبته..».

فقال الزوج وهو يرفع كوب الماء إلى فمه:

- «أما العودة فستكون يوم عيد حقاً، وأما موضوع الخطبة فإنه يحتاج إلى سين وجيم..».

فقالت فى غضب:

- «كيف؟».

- «إنه أمر يخصه هو ولا دخل لنا فيه..».

- «لقد قررت وانتهى الأمر ولن يعارضنى فيه أحد، ثم إنى قد تقدمت لأختى رسمياً..».

- «هذا خطأ..».

قالت محتدة:

- «دائمًا تصف تصرفاتى بالخطأ والحماقة، أما أنت وابنك فلا تخطئان أبدًا.. هذا ظلم..».

قال ضاحكًا:

- «إنه أمر سابق لأوانه..».

- «بل يجب أن نبت فيه فورًا..».

- «عندما يعود صاحب الشأن..».

- «أنا أمه وأعرف مصلحته..».

- «وأنا أبوه.. وأفهم الأصول..».

لم تتطور المحادثة إلى مشادة، فقد دق جرس الباب، وذهبت الأم ثم عادت وهى تكاد تطير من الفرح، بل أطلقت على الرغم منها زغرودة عالية . .

وهب الأب واقفًا، وقد أذهلته المفاجأة:

- «هل عاد؟».

- «بل جاء منه خطاب . . ».

واحتضنت الأم خطاب فتاها، ضمته إلى صدرها فى شوق عارم وكأنه «صالح» وليس قصاصات من الورق، ثم رفعته إلى فمه وأخذت تقبله فى حرارة وتهمس: «يا حبيبى . . ألف نهار أبيض»، ولم يعد بالرجل حاجة إلى الطعام على الرغم من بقاء معظم الدجاجة على المائدة، وبقاء أطباق الملوخية دون نقص يذكر، وتناول منها الخطاب بيد مرتعشة، وهو يقول: «لماذا لم يكتب إلينا من قبل؟ لماذا؟ هذا إهمال كبير منه . . إن الخطابات ترد الروح . . »، وفض الخطاب وأخذ يقرأ:

«أبى . . أمى سلام الله عليكما ورحمته وبركاته . .

أكتب إليكم وطوفان من المشاعر الحلوة الشجية يغرقنى فى بحره . . إننى أتذكركم دائمًا . . وأشعر أنكم إلى جوارى . . دعواتكم الطاهرة يتردد صداها فى قلبها . . دائمًا أنتم فى عقلى وقلبى وأحلامى عندما تغفو عينى . . صلتى بكم دائمة، وحنينى إليكم لا ينفد . .

أبى . . أكتب إليكم بعد أن تقدمنا أميالاً عديدة، وبعد أن

استطعنا فى مدة وجيزة أن نطهر منطقة «بتير» و«سور باهر» وما حولهما من أوكار الصهيونية، إننا نتقدم دائمًا، ولا نتقهقر خطوة واحدة إلى الوراء. . الله معنا يا أبى، وذلك لأن الحق فى جانبنا، لأننا نخوض معركة الشرف والحرية. . وهذه الأرض التى نحارب فوقها تحنو علينا كأم رءوم، تبوح لنا بأسرارها وقدسيتها وتحفظ أسرارنا، وتشى بأعدائنا. . إنها مثل أرضنا تمامًا، ولذا لا تراودنا أحاسيس الغربة والفراق. . أبى. . إنى أكتب إليك بسرعة، من فوق تبة عالية تشرف على منطقة يهودية شرسة، نزمع فى القريب العاجل مداهمتها، وسنحتلها بإذن الله. . إننا هنا مجموعة من الشباب العربى من كل الأقطار. . تمثل الوحدة العربية على أروع صورة، فالمعركة واحدة والمصير واحد. . لكم يسعدنى أن أحارب جنبًا لجنب مع هؤلاء الرفقاء الأطهار. .

أبى. . الوقت ضيق، والمشاغل كثيرة. . ولهذا أرانى مضطرآ لإنهاء خطابى، ولى عودة قريبة إن شاء الله علنى أستطيع أن أكتب خطابًا مفصلا يرضى شغفك وتعطشك لأخبارنا. . ولا تنسَ أن تقبل لى وجنتى أمى ورأسها ويديها. . ومرسل طيه صورة فوتوغرافية مع بعض الإخوان هدية إلى والدتى الحبيبة. . والسلام».

صالح أحمد بدران

كتيبة عمر بن الخطاب

أغمض عينيه للحظات، وظل شاردًا، وتورد وجهه بحيوية ظاهرة، بينما كانت زوجه تحاول جاهدة أن تخفى دموعها بدون

طائل، وأخذ يعيد تلاوة الخطاب، وكأنه يرتل أعذب الألحان. ثم وضع صورة «صالح»، ووجد نفسه يحنى رأسه، ثم يقبلها فى خشوع، واقتربت الأم، ودققت النظر.. كان يبتسم فى سعادة ومن حوله طائفة من الشباب يرتدون الزى العسكرى، وفى الوسط رجل قصير، ذو لحية سوداء، كانت تتأمل الصورة كأنها فى صلاة.. وأيقظها زوجها من شرودها قائلاً:

- «انظرى.. من يقف إلى جوار «صالح»؟.

فقالت بعد فترة:

- «ماذا؟».

- «إنها فتاة..».

- «وتحارب؟».

- «ولم لا؟».

- «ماذا جرى فى الدنيا؟».

- «تغيرت يا زوجتى».

ووضعت الزوجة الصورة فى يد زوجها، ثم فكرت قليلاً وهمست فى قلق:

- «ولماذا وقفت هذه الفتاة إلى جوار صالح بالذات؟».

- تعنين، لماذا وقف هو إلى جوارها..».

ثم انفجر ضاحكًا، ووجهه يفيض بشراً وسعادة..

الفصل الثامن عشر

الحرب دائرة، وعديد من الجبهات يشتد فيها الصراع، ودم يراق صباح مساء، وحماقات ترتكب من قبل اليهود ليس لها مبرر من منطق أو أخلاق، وإذا ما انتصر الإسرائيلى فى معركة من المعارك لسبب من الأسباب الفنية انتفخت أوداجه بالنصر، وخيل إليه أنه قوة ما بعدها قوة، لا تستطيع أية مقاومة أن تقهرها، والأغرب من ذلك أن هاتيك الانتصارات الصغيرة التى نادرًا ما تحدث توهم اليهودى أن حقه فى أرض فلسطين لا شك فيه، ومطالبته بها لا غبار عليه، لكأن القوة والنصر هما العنصران الوحيدان اللذان يدعمان منطقة المهنز، ويبثان اليقين فى قلبه، وعندما يهزم الإسرائيلى سرعان ما تنجاب عن بصره الغشاوة، ويتجلى زيف عقيدته، وينكشف طمعه . . وتبدو الأكذوبة عارية من كل ستار، بشعة كالعار والخطيئة والاستغلال . . وهكذا كانت القضية تتكون أمام أعينهم بألوان متباينة شتى، فقد تصبح باطلاً وقد تمسى حقاً، لا ثبات ولا استقرار ولا يقين، وفى المناطق الساحلية التى كان اليهود قد احتلوها طبقًا للمؤامرة الإنجليزية، بقيت بعض مناطق

نفوذ عربية، ولم يكن لدى اليهود أدنى شك فى أن هذه المناطق المحصورة التى لا تملك الجنود المدربين ولا السلاح أو المؤن الكافية، ستتهاوى تحت ضربة واحدة من ضرباتهم، بل يكفى أن يعلنوا انتقالهم إليها فتفتح لهم الأبواب، ويرفع الآلاف المحاصرون راية الاستسلام، وكم كانت دهشتهم عندما فوجئوا بالمقاومة . . حتى القرى الصغيرة حيث لا يوجد غير رعاة الأغنام أو صيادى الأسماك أو المزارعين، كانوا يقاومون بأتفه الأسلحة فى صلابة واستماتة، ولم يكن يعينهم جموع العدو وهى تطبق عليهم من كل مكان بأعتى ألوان الأسلحة وأشدها فتكًا، وكانت العصابات الصهيونية ترى هذا جنونًا، أما العرب المحاصرون فكانوا لا يفكرون إلا فى شىء واحد، ألا وهو أنهم لا يمكن أن يلقوا السلاح، ويفتحوا الطريق للغزاة بلا مقاومة، كانوا فى هذه المناطق الساحلية- التى ينتشر فيها اليهود ويتخذونها قاعدة انطلاق لتحقيق مآربهم الخبيثة - كانوا يرون الاستسلام عارًا، ويرون أنه من الطبيعى جداً أن يقاوم العربى ولو كان أعزل، فهم يؤمنون بأن الموت أهون من الاستسلام وأهون من العار، ولم يكن فى حسبان اليهود أن يلقوا هذه المقاومة وأن يضحوا ببعض التضحيات المادية والأدبية، ويفقدوا بعض الرجال، فى منطقة يرون أنها قد دانت تمامًا لهم، وزرعت هذه المقاومة الميئوس منها فى نفوس اليهود حقدًا مريرًا، فكانوا إذا ما احتلوا جيبًا من الجيوب الصغيرة، اندفعوا إلى داخلها فى جنون، وتفننوا فى وسائل العدوان والقسوة، كانوا يسوقون الأسرى إلى ساحات

الموت مقيدين بالحبال، ويصبون عليهم النيران حتى يفنوا أكبر عدد منهم، ويشعلون النيران في بيوتهم، ويدوسون على كل شريف وغال لديهم، ولا يعنيهم أن يقتلوا طفلاً، أو يذبحوا شيخًا، أو يغتالوا امرأة.. كل همهم أن يستولوا على الأرض والغنائم، ويتخلصوا من الطاقات البشرية بلا رحمة.. إن حقدهم البشع قد طمس معالم السمات الإنسانية في تصرفاتهم وكلماتهم، على الرغم من أنهم يمثلون حضارات العالم الغربي الحديث، ويعبرون عن ثقافاته ومعتقداته.. ذلك الذي يسمونه العالم الحر، فهم يحاربون بسلاحه، ويسيرون حسب تخطيطه، وينالون منه العون المادي، والتأييد الأدبي، ويشكرون له تأييده لقضيتهم «العادلة» وحمايتهم من التشريد والهوان، متجاهلين أنهم - بعونه - يشردون الملايين صاحبة الحق الشرعي، ويدوسون مقدساتها وأحلامها في حياة حرة شريفة:

ومع مولد كل صبح تنبت آثام جديدة تنبي عن ضراوة المعركة ووحشيتها.

هذا إسرائيلي يقبض عليه وهو يلوث بئرًا عربية بجراثيم فتاكة، من هذه البئر يشرب الجنود والمواطنون على السواء، ويقبض على الجاني متلبسًا بجريمته ثم يساق إلى معسكر الأسرى، حتى المخالفة لكبرى الاتفاقات الدولية التي تحرم حرب الجراثيم لم يقتل مرتكبها.. كان العرب لا يفكرون في قتل الإنسان الخاطئ بقدر ما يفكرون في القضاء على انحرافه ومظاهر طغيانه، ولا يلجئون إلى

القتل إلا عندما لا يرون علاجًا سواه، بل إنهم لا يفعلون ذلك إلا في الحدود المشروعة، وبالطريقة التي لا تزيد في عذاب الإنسان وهوانه، والعربي لا ينسى آداب الحياة التي رسمتها عقائده، إنها جزء من طبيعته وسلوكه وتراثه لا يستطيع منها فكاكًا، ولأنه كان يقرأ دائمًا في كتبه المقدسة لا تقتلوا الأسرى . . لا تمثلوا في القتلة . . لا تسفكوا دم طفل أو شيخ أو امرأة . . حتى الحرب لها آدابها . . الآداب التي لا تعرفها الحضارة الأوربية أو على الأصح لا تؤمن بها . .

وهكذا اندلعت النار في كل مكان من الأرض المقدسة، واشتد أوارها، ووسط اللهيب يموت الإنسان، ويلقى أبشع مصير، ويولد أطفال جدد تتفتح عيونهم أول ما تتفتح على الدم المراق والمجازر الرهيبة، وتصافح آذانهم أول ما تصافح صوت الانفجارات المروعة. والعالم . . العالم الحر المتمدين يشهد المأساة الدامية التي صنعها بيديه وبحماقاته وانحرافاته .



الفصل التاسع عشر

أصبح الشيخ «إسماعيل ريحان» والد «ضحى» إنسانًا آخر، ففى البداية كان يشارك فى المعركة بطريقة سهلة ميسورة؛ إذ كان يكفيه أن يجلس فى خيمته بمعسكر اللاجئين، ثم يفتح المصحف ويقرأ بضع آيات، ويؤدى الصلاة فى تبتل وخشوع، وما أن ينتهى منها، حتى يرفع كفيه إلى السماء والدموع تتقاطر على لحيته البيضاء، ويدعو الله من أعماقه أن يكتب النصر لأبناء أمته المجاهدين، وأن ينزل سخطه وغضبه وهزيمته على الصهيونيين المعتدين. وما إن ينتهى من دعائه حتى يتناول طعامه ويأوى إلى فراشه، ويلقى بنفسه بين أحضان نوم متقطع ملىء بالخيالات الدامية، والذكريات المريرة، وصور المستقبل المجهول الذى لا يعرف حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى.. وكل يوم يشعر أن شيخوخته تزداد، وقواه تضعف، وأشياء كثيرة تشيخ فى قلبه الحزين..

لكن الشيخ «إسماعيل ريحان» قد تغير الآن كثيرًا، وخاصة بعد أن التحقت ابنته «ضحى» بهيئة التمريض، وبعد أن وجد لنفسه

مكانًا بين القوات التى تشرف على نقل المؤن والذخائر خلف المعركة، ومنذ ذلك اليوم وهو يشعر بنشاط وحيوية خارقة، لم تعد آلام المفاصل تنتابه، ولا الخيالات المضطربة المؤنسة تخالط نومه، لقد أدرك أن مجرد الدعاء لا يكفى فالله لا ينصر القاعدين الكسالى، ولا يستجيب الدعاء الأجوف الذى لا يدعمه العمل الشاق المتواصل؛ إذ يجب أن يصدر الدعاء من قلب مؤمن بالنضال والعرق والتضحيات، من قلب يلهب من الكدح الدائم، وطبيعة المعركة الحالية تستلزم هذا اللون من الإيمان والعبادة.

وكان الشيخ يقضى ليالى بأكملها بعيدًا عن المعسكر، يقطع الصحراء شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، لا رفيق له غير الليل والنجوم ورفاق النضال وتوقع الخطر، وهو لا يعتبر الانخراط فى سلك المجاهدين عملاً بطوليًا فحسب، بل يؤمن إيمانًا جازمًا أنه توفيق من الله عز وجل، وعلامة كبرى من علامات الرضا، وطوال الليالى المدلهمة التى كان يقضيها ضمن قافلة التموين فى الخطوط الخلفية داوم التفكير.. إن مصير أمته يقلقه، ليس مصير فلسطين وحدها.. ماذا لو انتصروا؟ أيقيمون البناء الجديد على دعائم قوية، ويتخذون من الماضى عبرة، ويعتصمون بالحرص واليقظة حتى لا تتكرر المأساة، أم سيبطرهم النصر، وتسكرهم نشوته، فيغرقون فى بحر من الكبرياء والغرور، وينسون الدم والعرق وغالى التضحيات؟! ثم ماذا لو شاءت الأقدار ألا ينتصروا حاليًا؟ أيطويهم اليأس والركود أم يتخذون من ذلك حافزًا ليقظة كبرى

تشمل تلك الرقعة الكبرى من البلاد العربية، وتمسح عنها الكسل والنوم والتواكل، وتطهر حياتها من أغلال العبودية والهوان والاستغلال؟ وأيقن الشيخ أن المعركة لن تنتهى على أرض فلسطين بنصر أو هزيمة، وإنما سيكون خلف ذلك مرحلة قاسية شائكة.. فى تلك المرحلة ستتبلور الآمال، وتتحدد معالم المستقبل، وتجد تغيرات هائلة، تهز أصول المجتمع العربى وقوائمه هزاً عنيفًا.. سيسود أمته زلزال ضخم يحول طبيعة الأرض إلى شىء آخر يختلف تمامًا عن الشىء القديم الذى أخذت تفوح منه رائحة العفونة.

***

وكان على «الشيخ إسماعيل» أن يرحل فى إحدى الليالى، إنه لا يكاد يستريح فى الأسبوع يومًا أو يومين، وكان رحيله هذه المرة قبيل الفجر، واستيقظ الرجل من نومه، كانت شمعة قميئة تضىء الحيز الضيق الذى تشغله الأسرة - الأم والابنة والابن والخادمة العجوز - وكان لهبها المرتعش يبدو كرأس طائر ذبيح سيلفظ أنفاسه بعد لحظات، وغمغم الشيخ وهو يغادر مكانه: «أصبحنا وأصبح الملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

ثم تيمم، واتجه صوب القبلة وصلى بضع ركعات، وما كاد ينتهى من صلاته حتى أعاد النظر إلى سكان الخيمة، صغيره وليد نائم وعلى وجهه مسحة الملائكة، وبراءة الطفولة المظلومة،

وابتسامة خفيفة تظهر ثم تغيب. . ترى أية أحلام وردية تداعب أجفان الصغير؟ أيحلم بحيفا والحدائق ورفاق الملعب والمدرسة وحياة الدعة والرخاء؟ وحاول الشيخ الاقتراب من وحيده حتى جلس إلى جواره، وعاد يتأمل ملامحه. . لشد ما يحب هذا الصبي. . يحبه بجنون لا يتفق ورزانة الشيخوخة. ولكم يتمنى أن يوهب قدرة وطاقة خارقة فينطلق إلى الميدان ويخلص الأرض من الطغاة حتى يضمن لابنه ولمئات الألوف من الأطفال حياة الرخاء والحرية. وانحنى الشيخ بوجهه المتغضن ولحيته السمحة، ونذر دموع تبلل أهدابه، ثم طبع على الجبين الصغير المنير قبلة حنان. . . حنان لو قدر له أن يتفجر لملأ الأرض والسماء، ولأنبت فى الصحارى المقفرة الآلاف من أشجار الزيتون الخضراء. . ثم انتقل ببصره إلى «ضحى» فتاته اليانعة التى تعيش المأساة بكل شبابها وأحلامها وطاقتها. هذه الرقيقة الخجولة، الفتاة التى لم تكن تخرج من بيت أبيها فى «حيفا» إلا فى أوقات متباعدة وللضرورة القصوى، والتى لم تكن تجرؤ على أن ترفع عينيها فى وجه أحد حياءً. . هذه الفتاة كيف تحولت هذا التحول الغريب؟! إنها تذهب إلى مركز الإسعاف، وتختلط بالرجال، وتمازح الجرحى، وتختلط بنزلاء المعسكر، وتحث اللاجئين على الصبر والإيمان والنظافة، إنها المأساة خلقتها خلقًا جديدًا، وغيرت من طباعها وسلوكها، وأعطتها قيمًا جديدة للحياة الجديدة التى تعيشها. . آه! لكل جيل ظروفه. . حتى أنا!! من كان يظن أنى سأغير نسق حياتى، القهوة

بعد صلاة الفجر. . قراءة القرآن. . المرور على البيارة والحقول. . المرور على بعض الأصدقاء ومناقشة بعض المسائل الفقهية والنحوية والسياسية. . ثم العودة إلى البيت. . وأقداح الشاى. . الحياة الهينة الممتعة التى ليس فيها شىء من قلق أو هموم كلها راحة وعبادة واستمتاع. . أما اليوم. . آه ما أشد مناقضته للأمس الدابر. . أتراني كنت سعيداً. . لكنى اليوم سعيد جداً. . سعيد برغم القلق والمتاعب والصور الدامية، إننى أحيا، وأشارك فى صنع جيل وأساهم فى تقرير مصير أمتنا التى أخذت تنفض عن أجفانها نوم السنين الحزينة. . ووقع بصره على زوجه. . المسكينة تنام وقد ازداد شحوب وجهها. . نوبة من السعال تقلق راحتها، وتدهمها من آن لآخر. . لم تعد تجد للحياة طعمًا. . المرض والتشرد والمصير المجهول قد ثقلت وطأتها عليها. . إنها ليست مثلنا فى الصبر والتحمل. . عافاها الله طالما سهرت على راحتنا، وقد آن لنا أن نرد لها الجميل، ثم انتقل ببصره إلى الخادمة. . إنه لا يسميها خادمة، كانت بالأمس تأخذ أجرها وتخدمهم، لكنها اليوم لا تتناول أجرًا ومع ذلك فهى كالعهد بها مستمرة فى القيام بعملها، بل إنها أكثر نشاطًا وإخلاصًا، إنها مثلهم تبكى «حيفا» ولياليها الحلوة، وحياتها الناعمة الوادعة، على الرغم من أنها لم تكن تملك بيتًا أو مالاً. . لكنها تشعر أن الأرض كلها، والمدينة بأسرها. . لها. . مأساة الآلاف مأساتها. . فليوفقها الله ويثيبها خير الجزاء.

وهتف الشيخ:

- «أم وليد . . ضحى . . آن الأوان أن تستيقظا . . » .

قالت الأم وهى تتقلب فى فراشها وتسعل :

- «الفجر لم يؤذن بعد» .

قال فى انفعال :

- «لكنى راحل . . » .

وتيقظت حواسها تمامًا عندما رنت فى سمعها كلمة الرحيل . . لشد ما تزعجها هذه الكلمة ، برغم أن الناس من حولها جميعًا على رحيل .

- «أنت لم تقضِ بيننا غير بضع ساعات . . » .

قالت «ضحى» وهى تحاول الجلوس :

- «هذا لا يهم . . » .

قالت الأم فى انفعال :

- «وأنت أيضًا «يا ضحى» بعد قليل تذهبين» .

قالت «ضحى» ممازحة :

- «ألا يكفيك «وليد»؟» .

- «كلكم عندى سواء . . لا أحد يغنى عن الآخر . . » .

قال الشيخ إسماعيل كى يضع حدًا لهذا الحديث الذى يعتبره مقدمة لطوفان من الدموع :

- «وجهتنا اليوم مدينة «الخليل» و«بيت لحم». . . سنعود محملين بأشياء كثيرة لمنطقة القدس. . سلاح وطعام وعقار طبى. . لن نغيب أكثر من يومين أو ثلاثة. . ».

ووشت نبرات زوجه بالبكاء الصامت وهى تقول:

- «الله معكم. . ».

- «لماذا تبكين؟ لقد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من النصر. . قواتنا تتقدم، نحن نقدم التضحيات الغالية لكننا نسعد بالنصر، وفى الغد القريب تتطهر فلسطين، ونعود إلى «حيفا». . ».

فقالت: وهى تتنهد:

- «حيفا؟!».

- أتشكين؟».

- «الله قادر على كل شىء. . إن خوفًا مبهمًا يعشش فى قلبى».

- «إن الوقائع الملموسة تتكلم يا امرأة. . وهى أصدق برهان».

قالت وهى تجفف دموعها:

- «فلينصركم الله. . أنتم لا تأتون منكرًا، إنكم تجاهدون فى سبيل الله، ومن ثم فالنصر معقود لكم. . ».

قال وهو يبتسم:

- «هذا هو الكلام الذى يجب أن يقال. . ».

وكز على أسنانه وهو يقول :

- «والآن أستودعكم الله . . » .

ووثب «وليد» أمامه فجأة ، ثم طوق رقبة أبيه بذراعيه النحيلتين ، وقال والنعاس يغالب أجفانه :

- «خذنى معك . . لن أتركك هذه المرة . . » .

- «حتمًا يا عزيزى سآخذك معى . . لكن ليس الآن . . » .

- «أكثرت الوعود ولم تنفذ وعدًا واحدًا . . » .

- «لم تزل صغيراً . . » .

- «لكنى رجل . . انظر . . إن رأسى يقترب من كتفيك . . ثم ألم ترَ ذلك القائد القصير ذا اللحية السوداء الذى كان مع أبى «خميس شاهين» فى مركز الإسعاف؟؟ إنه قصير يا أبى . . » .

- «لكنه يكبرك سناً وقوة . . » .

- «إذن فأنت لن تأخذنى معك . . » .

- «أعدك فى المستقبل . . » .

- «فى الصباح سأفر وألحق بك . . » .

قال الأب وهو يربت على رأسه فى حنان :

- «أيها المشاغب أعطنى قبلة . . » .

- «لا . . » .

- «سأحضر لك لعبة جميلة . . » .

- «بندقية صغيرة مثلاً؟» .

- «أجل . . من بيت لحم . . » .

ومد الصغير جبينه ، وانحنى الأب حتى لامسته شفتاه .

- «مع السلامة يا أبى . . » .

- «سلمك الله يا حبيبى . . » .

***

اكتظت عربات القافلة بالمؤن والذخائر ، وتم ربطها ربطًا محكمًا ، ونظرًا للنقص فى عدد العربات ، فقد وزعت كمية من هذه المواد التموينية على عدد من الجمال والحمير والعربات «الكارو» ، ولن تستطيع القافلة بهذا التقسيم أن تسير فى سرب واحد ، ومن ثم كان على العربات أن تنطلق مسرعة وعليها أهم الأشياء الضرورية ، وأعطى القائد إشارة البدء مع غروب الشمس ، وسارت فى المقدمة عربة استطلاع «جيب» ، وكانت تصحب القافلة قوة من الحراس المسلحين قليلة العدد لمجرد الحيطة ، وتجنب المفاجآت ؛ إذ إن القافلة ترسم خط سيرها دائمًا فى الخطوط الخلفية وفى مناطق عربية مأمونة ، وجلس الشيخ إسماعيل ريحان أعلى عربة نقل كبيرة فوق المؤمن المتكدسة ، وفى يده مدفع محشو بالذخيرة ، كانت يده على المدفع وعيناه تجوبان السماء والأرض ،

تحملقان فى النجوم اللامعة، أو تحاولان كشف أستار الظلمة المتكاثفة، ورأسه نهبًا لعاصفة من الأفكار العديدة، ووليد الصغير يومض فى قلبه كالشهاب اللامع، ترى أى مستقبل ينتظر هذا الصبى، «ضحى» تنتصب بعودها الريان وأرديتها البيضاء الناصعة، وهامتها المرفوعة، وكأنها أميرة من الأميرات الساحرات، وضجيج العربات لم يعد يقطع عليه أفكاره أو يقلقه، فقد اعتاده منذ مدة، فهو يستطرد فى أحلامه دون أن يزعجه شيء، ماذا لو امتد هذا الهدوء حتى شمل العالم من حوله؟! ماذا لو انطفأت هذه النيران المجنونة التى تحرق البشر؟! النار فقط لإنضاج الطعام للجائعين، وبعث الدفء فى أجساد المقرورين، وتشكيل أدوات الراحة لبنى الإنسان، وما خلقت قط لتأكل لحم الأبرياء.. الأيدى الآثمة وحدها هى التى تفسد طبائع الأشياء، وتخترع وسائل القتل والتدمير. ولامست جبينه نسمة رطبة، بعثت فى كيانه الخدر والاسترخاء، وأخذ النوم يتسلل إلى عينيه، وبعد ساعة لم يشعر بنفسه، كان مستلقيًا على ظهره، ونسمات الليل تخفف حرارة جسده. وعيناه مغمضتان فى نوم هانئ لذيذ والمدفع ملقى إلى جواره، وملامحه تحت الظلمة الضافية تضيء بالسكون والسلام والإيمان.. وكما تثور الزوابع فجأة دون مقدمات، فتقتلع الأشجار، وتثير الغبار وترمى بغزير المطر والرعود، كذلك أضاءت الظلمات الحالكة بطلقات نارية متلاحقة، كانت تبرق كعيون الشياطين، ودوت انفجارات متلاحقة وساد ارتباك واضطراب،

لكأنما زلزلت الأرض زلزالها، ولم يدرِ الشيخ إسماعيل ريحان كيف نام، ولا كيف وجد نفسه يمسك بزناد مدفعه، ويبحث بعينيه المتعبتين عن مصادر الغدر فى الظلام، ولم يكن بحاجة إلى كثير من الذكاء ليدرك أن دورية صهيونية تهاجمهم، وتذكر على الفور التعليمات الصادرة إليه من قبل: فى حالة هجوم مفاجئ يجب أن يترك العربة، وينبطح على الأرض، ويظل يسدد نيرانه نحو المهاجمين، ولا يكف عن المقاومة حتى الموت - لأن حاجة المعركة إلى المؤن والذخائر أكثر من حاجتها إلى الرجال - والشيخ ريحان يعرف نفسه أنه بطيء الحركة، واهن القوى؛ فللشيخوخة أحكام لكنها المرة الأولى التى يجد نفسه مع الأعداء وجهًا لوجه فى معركة صريحة متكافئة، معه مدفعه وحوله عدد كاف من الرجال، وتفصله عن المهاجمين مسافة معقولة، ولم يشعر الشيخ وهو يثب من فوق العربة فى خفة وسرعة، ولم يكن لديه الوقت الكافى ليفكر فى هذه المرونة والنشاط الطارئين، وكان كل اهتمامه مركزًا فى الأوامر الصادرة، والمواد التموينية، والمدفع فى يده، وثعابين الغدر التى تتوارى تحت جنح الظلام وتقذف باللهب، وتبودل إطلاق النيران، وزحف بعض الفدائيين بعيدًا عن القافلة مزمعين الاقتراب من العدو والالتحام به فى معركة مباشرة؛ كى يضعوا حدًا لمضايقاته، إنها الخطوة الحاسمة الوحيدة لإنهاء المعركة؛ إذ إن فى إمكان اليهود أن يظلوا فى مواقعهم وأوكارهم يمطرون القافلة بوابل رصاصهم حتى الصباح، لكن قوة الحراسة قليلة، وليس من الممكن

تقدير العدد التقريبي للدورية الصهيونية لا مفر إذن . . ولا بد من الهـجـوم على المهـاجـمين . . وليـفـعل الله مـا يشـاء . . وأعطيت الأوامر ، وأخذ الشيخ إسماعيل ريحان يزحف ، والمدفع في يده ، والرصـاص ينطلق من آن لآخـر ، ولا أحـد يعـرف الأحـيـاء من الأمـوات ، والموت أعـمى ، ويشـتـد عـمـاؤه في غـمـرة الظلام وفي معـمعات الحروب التي لا تزن الرجال ، ولا يدرى الشيخ كـم مضى من الوقت ، لكنه أيقن أن نارًا تشتعل في صـدره ، وأن سائلاً سـاخنًا لزجًـا يبلل سـترته ، وعندمـا هم بـالتـقـدم لـم يسـتطع ، لكأن قـوة مجهولة معجزة تشده إلى الأرض ، وتربطه بها .

بشائر الفجر تغزو الأفق ، وعربات القافلة تقف جامدة يوشحها السواد ، وكأنها بيوت صغيرة متناثرة من الطين متباعدة المواقع . . وشعر الشيخ إسماعيل ريحان بشيء بارد يرطب جبينه وأيد حانية رقيقة تهزه ، وأفاق الرجل من غيبوبته على أصوات خفيضة تهتف باسمه وتغمغم : «لم يزل حيًا» ، وفتح عينيه . . نفس الوجوه الحية الصابرة التي يعرفها . . نفس العيون التي يمتزج فيها الألم بالأمل ، وغـمـغـم : «هل أنتم بخير أيهـا الإخوان؟؟» وهمس أحـدهـم : «لا تجـهـد نفسك . . نحن على مـا يرام ، وأنت؟» . فلم يهـتم بما قـالوا واستطرد :

- «القافلة بخير؟» .

- «أجل . . » .

- «والأعداء فروا؟».

- «نحمد الله».

- «أجل.. ألف حمد.. لا شيء يهم بعد ذلك..».

وغاب عن الوجود لحظات، ثم عاد فابتسم وانفرج جفناه وشفتاه:

- «لكم تسعدني هذه النهاية!! طالما اشتهيتها وحلمت بها.. إني أحب لقاء الله.. هذا لقاء رائع.. لكن روحي ستظل تحوم حول هذه الأرض الغالية.. أكان من الضروري يا رفاق أن أعيش حتى أرى عودة المظلومين إلى ديارهم.. وإلى «حيفا»؟ إنها أمنية عزيزة ولن ينال من جلالها موت واحد أو اثنين أو ألف.. إذا لم أعد أنا فإن «وليد» سيرث هذه الأمنيات الحلوة عني سترثونها جميعًا.. آه.. ما أعجب أمري!! عين هنا وعين في الجنة.. فلسطين هي الأخرى جنة يا أبنائي.. جنة الله في الأرض.. وأرض الأنبياء.. أنا.. أنتم.. كل ذلك معنى واحد كبير اسمه الحياة.. آه.. إليّ بجرعة ماء..».

وتسابقت الأيدي المعفرة ذات الخدوش تحمل إليه «الزمزميات».. لكنه لم يستطع أن يفتح شفتيه.. فقد مات..

وسارت القافلة في الطريق المرسوم.. نحو القدس..

●●●

الفصل العشرون

فى الطريق إلى القدس رأت «ضحى» حادثًا آلمها أشد الألم، إن أى اعوجاج تشهده فى مجتمع اللاجئين يؤذى مشاعرها، وينغص عليها هدوءها، فالذين يتحملون أعباء المحنة الكبرى يجب أن يكونوا أرحب صدرًا، وأبعد نظرًا، فلا يحفلون بالسفاسف، ولا يقيمون وزنًا للعنجهيات والمظاهر الفارغة، وكثيرًا ما تصرفها مثاليتها عن تدارك النقص فى مجتمعها، ورؤية عيوبه، فماذا حدث؟؟

أثناء خروجها من المعسكر تناهى إلى سمعها شجار عنيف، ورأت عددًا من المتجمهرين، إن طفلين تشاجرا، وهذا أمر يحدث غالبًا فى مجتمع بائس متزاحم، يحيا تحت وطأة التوتر والخطر والمستقبل المجهول، وكم كانت دهشتها عندما سمعت والدى الطفلين يتصايحان، وأحدهما -كان يلبس بزة أنيقة بعض الشيء- يقول:

- «من أنت حتى ترفع صوتك فى وجهى؟!».

- «أنا مثلك.. آدمى..».

- «ليس الذنب ذنبك . . وإنما ذنب الأيام القاسية التى جعلت صعلوكًا يتطاول على سادته . . » .

رد الرجل الآخر الذى يلبس عقالاً وثيابًا ضافية حال لونها :

- «احترم نفسك : ليس هناك سادة ولا عبيد . . » .

- «فعلاً . . لقد انقلبت موازين المجتمع . . لكن هذا لن يدوم . . سيظل السادة سادة ، والصعاليك صعاليك . . » .

قال لابس العقال ساخراً :

- «كل ما أعرفه أن كلينا لاجئ . . » .

- «والناس يعرفون من أكون . . كنت حاكم قرية كبيرة . . وكان يعمل عندى عشرات مثلك يرعون الأغنام ، ويجمعون المحاصيل . . » .

- «لولا احترامى لمأساتنا جميعًا لكنست بك الأرض . . » .

- «أما أنا فسأعلمك كيف تحسن تربية أولادك الأجلاف . . » .

ووثب كل منهما على الآخر يريد أن يفترسه ، وصياحهما يغطى على توسلات أهل الخير الذين يتوسطون لحسم الخلاف ، وسحق الشر قبل أن يستفحل ، ولم يتمكنا من الالتحام ، لقد أقام الحاضرون بينهما سداً منيعًا أوقف كل اندفاع أهوج ، كانت «ضحى» ترقب المشهد المثير بنظرات حزينة . إن مضاعفات النكبة تتولد يومًا بعد يوم ، والأمراض النفسية تتفشى بين الجموع كما

تفشت الأوبئة فى أجسادهم منذ أمس. إن فى أعماق كل فلسطينى ثورة تريد أن تنفجر معبرة عن أسى الإنسان المظلوم وعذابه، منهم من يعبر عن ثورته بحمل مدفع والاندفاع فى جحيم المعركة، ومن لم يستطع ذلك لسبب أو لآخر، يأبى إلا أن يرتكب الحماقات، ويثير الأحقاد الشخصية والطبقية التى كانت سائدة فى مجتمع ما قبل الحرب.. مجتمع التراخى والإقطاع والعبث، والخيام الضيقة قد أورثتهم ضيقًا وحنقًا، والشمس الحارقة التى تسيل عرقهم وتكوى جباههم تغرس فيهم القسوة والشراسة. والفقر، وقلة الإمكانيات، بعد رغد وسعة، حملهم على التهور والتمرد وعدم الرضا، واغتصاب اليهود لمتاعهم وضياعهم وأموالهم، أفقدهم الثقة فى العدالة، وسوَّد فى أعينهم المصير المحتمل، وكانوا بالأمس يعيشون كسادة يملكون الكثير، ومعدمين يبذلون الجهد ويؤدون الخدمات ويقبضون الثمن، أما اليوم فقد سوت بينهم المحنة وأصبح كل واحد منهم مجرد لاجئ.. لا أكثر.. عليه أن يحمل عبئه بنفسه.. لا فرق بين سيد الأمس وخادمه.. وطبيعة البشر لا تقبل التحولات الجريئة الضخمة بسهولة، وخاصة ما يتعلق منها بامتيازات طبقية راسخة اكتسبت صفة المشروعية.. أدركت «ضحى» كل ذلك وهى ترى المشاجرة الحامية، وتبادل الشتائم، فاقتربت منهم، وقالت:

- «ما هذا الذى تفعلون؟!».

ولما لم تجد لتساؤلها جوابًا سوى الصمت المطبق، قالت:

- «تعبثون هنا . . وآلاف غيركم يقدمون دمهم فى صمت . . » .

قال لابس البزة وهو يجفف عرقه :

- «لسنا فى حاجة إلى وعظياتك . . » .

فاحتقن وجهها وعضت على شفتها السفلى ووجدت نفسها تقول :

- «يجب أن نكبر . . ونتسامى حتى نصير فى مستوى المحنة . . » .

- «حسنًا تستطيعين أن تمضى فى طريقك وإلا اضطررت لتعليمك . . ما هو الأدب، وكيف تعاملين من هم أكبر منك سنًا ومقامًا . . » .

وساد اللغط، وتسابقت كلمات الاحتجاج واللوم، كان الواقفون يرون أنه قد تمادى فى تهوره تحت قناع الكبرياء الفارغة، والماضى المتعفن الذى لم يخلف لهم غير المأساة القاسية . و«ضحى» وأبوها وكل أسرتها تبدو فى نظرهم رمزًا للأخلاق الحميدة، والتضحية النبيلة، وتضايق الرجل وهو يشهد عاصفة الاحتجاج تثور فى وجهه، وصرخ :

- «أنتم غوغاء . . لا تعرفون الوقار . . ولا حقوق السادة . . » .

- «وصاح لابس العقال محنقًا وهو يلوح بيده :

- «من هم السادة؟» .

- «جهلك بهم لا ينفى وجودهم، ولا ينقص من قدرهم . . ».

فصاح مرة ثانية :

- «من هم؟!».

- «هم . . هم نحن، برغم هذه الخيام الحقيرة . . ».

- «تستطيع أن تحمل أسرتك إلى قصرك القديم . . ».

وارتسمت البسمات الساخرة الشاحبة على شفاه الواقفين ثم حلت محلها علامات الامتعاض والضيق، إن هذا الرجل يجرح كرامتهم، وينال من كبريائهم. وهمت «ضحى» أن تقول شيئًا، لكن أحد الشيوخ الواقفين أوقفها عن الحديث وقال :

- «لا يمكن أن يكون الجبناء سادة . . ».

وحاول الرجل أن يندفع نحوه، لكن سد الجموع الواقفة منعه من التحرك، فهدر :

- «كل ما أستطيع قوله هو أنكم غير مهذبين . . ».

ورد عجوز آخر :

- «السادة هم الذين يزهدون فى كل نعيم الحياة، ويقضون النهار والليل خلف المتاريس، ونذر الخطر تشتعل فى الأفق، ويقبلون على الموت، دون أن يتساءلوا من هم السادة . . ودون أن يطلبوا من الناس أجرًا أو توقيرًا لهم . . وقد يكون من بينهم بعض المعدمين الذين لا يملكون شيئًا يموتون من أجله . . لكنهم يؤمنون بشىء اسمه

فلسطين . . لا يتكلمون إلا عن القضية العادلة . . أما أنت فتعيش فى عفونة وخيال ساذج . . لكم يؤسفنى أن يوجد بيننا من لا يفكر إلا فى نفسه . . ويلتمس أتفه الأسباب - كأن يتشاجر طفله مع طفل آخر - ويحاول تأكيد أنانيته وغروره . . أيها السيد فلتخرج إلى عرض الصحراء ولتبحث لك عن قرية وافرض نفسك عليها سلطانًا ، ولتضحِّ فى سبيل ذلك بأعز ما تملك . . هذا هو اللائق بك . . أما نحن هنا فطائفة من الهمج لا تعرف للسادة «المهذبين» حقهم . . نحن آسفون . . فلننصرف جميعًا . . معذرة يا آنسة «ضحى» . . إن وقتك أثمن من أن يضيع فى مثل هذه الأفاعيل الصبيانية . . » وجمد الحاضرون فى أماكنهم ، إن صدى كلمات الشيخ يرن فى آذانهم . ويتغلغل بعيدًا فى أعماقهم ، إن هذه الكلمات البسيطة الواضحة تكشف القناع عن قيم زائفة فى طريقها إلى القبر ، وتجلو الصدأ عن قيم جديدة تنمو وتترعرع وتزدهر فى تربة المأساة العتيدة . . التربة التى ترويها دماء الشهداء . . وصرخ الرجل العجوز :

- «دعوه وحده . . واذهبوا إلى أعمالكم . . اجمعوا الأحطاب ، وابحثوا عن قوت . . وزاولوا أى عمل . . وأسرعوا إلى معسكر التدريب . . فكتيبتكم الجديدة المكونة من مائة رجل سترحل إلى الميدان بعد أسبوع» .

وتسللوا فى كل اتجاه ، كانت موجاتهم تنداح بعيدًا ، وتتوارى بين الخيام الكالحة التى تنتصب كقبور مهدمة . وكان عليهم أن يزيلوا معالم

هذا الشقاء، ويحيلوا إليها رونق الحياة من جديد . . وتلفت السيد الوقور - حازم بك وهذا هو اسمه-، فوجد نفسه وحيداً منبوذاً، لا أنيس له غير أساه وقبعته، وعار الانعزالية يبعث الشكوك فى قلبه التعس، وتنهد فى مرارة، وهمَّ بالرحيل لكنه سمع صوتًا من خلفه :

- «سيدى . . » .

- «ضحى؟» .

- «أجل . . إننى آسفة . . كل ما حدث لم يكن يرضينى . . كثيراً ما تضعف أعصابنا المتوترة المنهكة عن تحمل النكبة الدامية . . كلنا بشر وفينا ضعف فطرى . . » .

نظر إليها الرجل طويلاً، كانت نظرته فى بداية الأمر تحمل معنى التحامل والعدوان، لكن حدتها أخذت تخف رويداً رويداً، ثم همس فى نبرات تنضح بالأسى :

- «هذا كثير . . » .

- «أعرف . . » .

- «لشد ما أتعذب!! لماذا لا أموت وأستريح؟؟ لست راضيًا عن نفسى، ولا أشعر بالرضا نحو من حولى، وهم أيضًا لا يرتاحون إلىَّ . . لقد افتقدت كل شىء . . نفسى والناس من حولى . . وسلطانى ومالى، وماذا بقى إذن؟» .

قالت فى نغمة صوفية تشرق بالحنان :

- «بقى الأمل فى الله يا حازم بك» .

وراقته كلمة «الأمل» كما طرب لدى سماعه كلمة «حازم بك».

إن هذه الكلمة تحمل انعكاسات المجد الغابر، وتنبئ عن ماض عريق، وسلطان لم يتقادم به العهد. . لم تزل «ضحى» تقول له يا «بك» برغم الخيمة الحائلة اللون، وبرغم فراغ يده من كل مال وسلطة، وتماديه فى الحماقات والأخطاء.

أجل لم تزل الدنيا بخير. . ولم يزل الأمل فى الله حيّاً لن يموت. . وتمتم وهو يغالب دموعه:

- «آسف يا ابنتى. .».

- «تعجبنى حكمة رجل روسى عظيم «هذه الحكمة تقول: إن التعساء لا يتحمل بعضهم بعضًا. .» وليس علينا إلا أن نصبر والفلك يا سيدى يدور، وحركة الكون مستمرة، والتحول هو سنة الحياة. . بالصبر والإصرار سنكسب المعركة.

ثم مدت يدها قائلة:

- «إننى أمد يدى إليك مصافحة كى نعقد صلحًا. . وسنسوى الأمور بين الجميع حتى نقضى أيامنا هنا إخوة متحابين. . هات يدك. .».

وتلاقت اليدان فى حرارة وإخلاص وقوة. .

ثم استأذنت «ضحى» وحثت خطاها نحو مركز الإسعاف. .

لم تدهش «ضحى» عندما بلغت المستشفى ورأت حركة دائبة وانهماكًا شديدًا فى العمل، ولما لم تجد الطبيب فى حجرته لم تشعر

بشيء جديد يلفت النظر، إنها الصورة المألوفة التي تقع تحت بصرها كل يوم، جرحي وعمليات جراحية. وأناس يلقون الله باسمين أو متألمين، وآخرون يتماثلون للشفاء فيعودون للميدان، أو يرجعون إلى بيوتهم إذا ما تخلفت عن جراحهم عاهة مستديمة تعوقهم عن المشاركة الفعلية في المعركة..

وسرعان ما ألقت بحقيبة اليد جانبًا، واتخذت أهبتها للعمل، ولما صعدت الطابق الأعلى رأت الطبيب يخلع زي العمليات مزمعًا الراحة، قالت باسمة: «صباح الخير..» فرد عليها متلعثمًا، والشحوب يلون محياه، والقلق يرتسم على ملامحه: «صباح النور» وعاد الصمت، وحاول الطبيب أن يشغل نفسه بأشياء تافهة، ويسعى جاهدًا في الابتعاد عن مواجهتها وتلاقي نظراته بنظراتها، رجحت «ضحى» أن هناك شيئًا ما يطويه الطبيب في صدره فقالت محاولةً أن تبدد جو القلق:

- «كان عملاً مرهقًا لا شك الليلة..».

- «أجل..».

- «من أين جاء المصابون الجدد..».

قال الطبيب مستجمعًا شجاعته وهو يخطو نحوها:

- «قافلة المؤن والذخائر:

وزلزلت كلماته كيانها، وانفجرت في سمعها كبركان محموم وصرخت:

- «القافلة؟».

- «نعم».

- «وأبى؟».

كان انتباهها وعواطفها وكل حواسها تلتقى عند شفتيه، وبدت اللحظات الخاطفة التى اعتصم فيها بالصمت دهرًا طويلاً ينزّ أسًى وعذابًا، وهمس وقد ازداد شحوب وجهه، واختلجت شفته:

- «يجب أن نستقبل الأمر بشجاعة..».

وصرخت وقد زايلها كل رصيدها من الشجاعة والصبر:

- «ما معنى ذلك؟».

ولم يستطع الطبيب أن يفتح فمه، كانت كلماته واضحة، وكانت الكارثة المتوقعة تظهر فى نبراته الحزينة، وتحركاته العصبية، لكنها لا يمكن أن تصدق هكذا بسهولة، لا يمكن أن يحدث ذلك بهذه السرعة وعلى هذا الوجه المفاجئ الذى لا تتوقعه.

- «تكلم يا دكتور.. هل مات أبى؟».

- «البقية فى حياتك..».

- «مات؟».

- «أجل..».

- «مستحيل.. لا أصدق.. كان معنا منذ يومين، وكان ينفجر

حيوية وأملاً . . وكان يصلي ويقرأ القرآن ويداعب وليد . . مستحيل . . آه . . لكنه مات . . » .

وأصابتها نوبة تشنجية من البكاء والعويل ، وارتمت على أرض الحجرة عاجزة ذاهلة ، واسودت أمامها كل مظاهر الوجود ، ولم تعد تضيء فى خيالها الكسيح سوى صورة الوجه الأشقر الذى تشع منه التقوى ، واللحية البيضاء التى ينسكب منها الإيمان ، والنظرات الحزينة التى لم ينطفئ فيها بريق الحياة والأمل ، مات أبوها الشيخ إسماعيل ريحان . . كيف حدث هذ؟ ! كان الناس من حولها كل يوم . وأصبحت رؤية الجراح أمرًا مألوفًا لديها ، كثيرون يموتون وهى تحزن من أجلهم . . لكن موت أبيها شيء آخر ، لم يخطر لها على بال ، ولم تفكر فيه من قبل ، وما كان يجب أن تفكر فيه لأنه أبوها ، ولأنه يعمل فى الخطوط الخلفية عملاً لا خطر فيه ، كان يقتل به فراغ الشيخوخة وبرودتها ، ويخفف من هول النكبة وإدمان التفكير فيها . . وصرخت من بين دموعها :

- «كيف مات؟» .

- «كما يموت الأبطال الشرفاء فى صميم المعركة . . كان يحمل مدفعه ويطلق النار ليصد عصابة صهيونية كانت قد بيتت النية على الاستيلاء على أقوات المجاهدين وذخيرتهم . . » .

وانخرطت مرة أخرى فى العويل والانتحاب ، واقترب الطبيب منها ، وربت على كتفها فى انفعال محاولاً أن يمسك دموعه :

- «لماذا تبكين؟» .

- «يجب أن أبكى . . » .

واستخف سؤاله ، وشعر بالخجل والغباء ، فعاد يقول :

- «كفى ، لتجففى دموعك . . » .

- «كان يحب الناس . . » .

- «أعرف ذلك . . » .

- «لم يتلوث قلبه بكراهية أحد . . » .

- «له الجنة . . » .

- «ظل قلبه معلقًا بحب المسجد . . والناس . . ولم يفكر قط فى أنه سوف يقتل أحدًا أو يقتله أحد . . أليس من البشاعة أن تتلون اللحية البيضاء بالدم؟! قل لى يا دكتور . لماذا . . لماذا؟» .

وغمغم الطبيب وقد أفلتت من بين أهدابه دمعة :

- «عالمنا ملىء بعلامات الاستفهام يا عزيزتى . . وليس علينا سوى الصبر والرضا بالقضاء . . دائمًا كنت تتحدثين عن الإيمان ، وقد جاء دورك لتواجهى التجربة المريرة ، وثقتى كبيرة فى أنك ستصمدين ، وتخرجين منها أكثر صفاءً ونقاء . . وسيصبح إيمانك بعد هذه التجربة طاقة روحية لا تتزعزع أو تنال منها أعتى النكبات . لقد استشهد مع أبيك رجلان آخران ، وأصيب أربعة بجراح وجىء بهم إلى هنا . . » .

ورفعت «ضحى» وجهها المندّى بالدموع، كانت نظراتها شاردة وكأنها تجوب عوالم غير مرئية، شاسعة المدى، وغمغمت فى ذهول:

- «ألن يعود أبدًا؟ وهل حكم علىّ ألا أراه بعد الآن؟ ألن يحمل وليد بين ذراعيه، ويغمر وجهه الصغير بالقبلات؟ وعندما نعود إلى «حيفا»، ألن يعود معنا؟».

وعادت إلى البكاء من جديد..

***

واستقبل شعب المعسكر نبأ استشهاده بوجوم، وترقرقت الدموع فى عيون غالبية اللاجئين، وعندما يقول واحد منهم: «لقد لقى الشيخ إسماعيل ريحان ربه» يرد الشيوخ قائلين: «كل من عليها فان.. هنيئًا له.. مات شهيدًا» وتقول النسوة: «الفجيعة فيه كبيرة، وليس فى الإمكان دائمًا العثور على رجل صالح مثله.. فلينزل الله رحمته على أهله بيته»، ويقول الشباب: «مات بطلاً.. ونحن على طريقة سائرون»، ويقول الصبية: «زعموا يا أولاد أن الشيخ ريحان هاجم اليهود كالأسد، وقتل منهم المئات». أما زوجه فقد كانت دموعها تنهمر فى صمت ولا تتفوه بشىء، لكن وليد الصغير عاف الطعام والشراب، وسكب ما استطاع أن يسكبه من الدموع، ثم أخذ ينظر فى حيرة إلى جو الحزن الذى يظلل المكان، وعقله الصغير يتساءل عن أشياء كثيرة يطويها فى أعماقه، ولا يجد

لطلاسمها الغامضة حلاً يبعث فى قلبه الرضا، ويهب صباه السكينة..».

وإذا انسكب الماء إلى كأس ممتلئة فلن يزيدها شيئًا بل سيفيض على جوانبها ويراق على الأرض، كذلك كانت قلوب المشردين فى معسكر اللاجئين، فاضت بالحزن حتى لم يعد بها مكان لأحزان جديدة، وتشبعت بالأسى الغزير حتى باتت فى غنى عن أى أسى وافد، ورحم الله شاعر العرب القديم:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى

فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام

تكسرت النصال على النصال



الفصل الحادى والعشرون

من البديهى أن يختلف الناس فى طبائعهم وقدراتهم، فمن الضرورى إذن أن يختلفوا تبعًا لذلك فى طريقة تقبلهم للكوارث أو استجابتهم لها، وهذا ما حدث بالنسبة لنجلاء وأبيها بعد أن تعرضا للغدر الصهيونى، وتلظيا بنيرانه، يوم الهول الأكبر فى مدينة «حيفا». لقد كانت الكارثة التى انقضت على الرجل أشبه ما تكون بالصاعقة، فقد تركته محطم الأعصاب، كسير القلب، مسلوب الإرادة، أقعدته عن الحركة والاندفاع، وشلت قواه، وفقد الثقة بالعدالة على الأرض، وتخيل البشر على صورة ذئاب ضارية، محمرة الأنياب، مجنونة المخالب، وكيف يؤمن بغير ذلك وقد رأى بعينى رأسه كيف خدعه الطغاة الصهيونيون، أفرغوا فيه وفى أسرته نيران مدافعهم من الخلف، واختطفوا فتاته، ولم يبد فى تصرفاتهم سمة من سمات الإنسانية والشرف؟! لم يستطع أن يقنع نفسه أنه ارتكب جريمة ما فى حق أحد، ولم يستطع يقنع نفسه بأن هناك قانونًا من القوانين الإنسانية يهدر الدم، ويحقر حياة الإنسان، ويثير الإرهاب والفزع مثلما حدث فى ذلك اليوم المشئوم.. ولم يجد مبررًا كافيًا لطرده من بيته ومدينته، وتجريده من كل ما يملك،

ثم تركه في عرض الصحراء هائمًا على وجهه بين براثن الشقاء والضياع والتشرد. . لقد افتقد «أبو نجلاء» عدالة الأرض، فتشبثت يداه بأهداب السماء، ورفع وجهه الدامع الحزين إلى الله، ينشد العدل والعون، وكان قلبه المفجوع يهتف في صمت: «إلهي ضاقت بنا الأرض على رحباتها، فهل أطمع في أن أجد إلى جوارك السعة والصفاء والسلوى؟! إلهي قست قلوب البشر، وتوسلوا بالشر والخطيئة، وقامروا بحياة عبادك ومستقبلهم، فهل تسكب على قلوبنا الملتاعة غيث رحمتك، وجميل هدايتك؟».

وهكذا عاش «أبو نجلاء» مغمض العينين عن الأرض الملوثة بالدم والخطيئة، وما يصطرع على وجهها التعس من شقاء ومظالم وجنون، وفتح قلبه للسماء الصافية وما يتوقعه فيها من رحمة وبر وعزاء، وعاش بين اللاجئين شيخًا محطمًا منطويًا على نفسه، لا يشارك في ضجيجهم وهديرهم، لكنه يأسى لمصيرهم، ويتجاوب مع أحزانهم في صمت العابد المتصوف، واعتبر نفسه - كما اعتبروه هم أيضًا - عجوزًا متهالكًا، يعيش على هامش الحياة المليئة بالمتناقضات. . لم يضايقهم هذا الوضع، أو يدفعهم إلى التحامل عليه، وتوجيه النقد إليه، فقد كانوا - منذ دهمتهم النكبة - يلتمسون الأعذار للمساكين، ويقدرون ظروفهم، هم يعرفون أن «أبا نجلاء» خسر كل شيء - ماله وأبناءه ومستقبله - في لحظة خاطفة، وهم يعرفون أنه بلغ من العمر أرذله، وشيخوخته أضعف من أن تحتمل كل هذا الشقاء والعذاب. . فليقبع في خيمته صامتًا أو راكعًا، وليذهب كل صباح إلى المسجد الأقصى يريق الدمع،

ويسكب الدعوات، ويتمسح بالصخرة المقدسة، وليردد الأوراد والمأثورات، لعله في بحر هذا العالم الصوفي الزاهي ينسى أساه، وتترقرق في خياله بشائر الأمل والوصول إلى رحاب الله . . إلى الجنة حيث يلقى القديسين والشهداء والصالحين . .

ولماذا يشغل نفسه بالدنيا وقد رأى بعيني رأسه فناءها؟ وكيف يستجيب لمغرياتها وقد بان كذبها وغدرها؟!

وسمع ذات يوم خطيب المسجد الأقصى يقول: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . . ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧] . .

ومر ملك على شيخ عجوز يزرع النخل فتعجب من ذلك؛ إذ إن الزارع لن يمتد به العمر حتى يجنى الثمر . . فقال له العجوز، إذا لم نأكل منه فلسوف يجنيه أبناؤنا . . » سمع «أبو نجلاء» كل ذلك، فخاف على إيمانه أن يناله مغمز، ودخله خوف مبهم. لقد فقد الدنيا أو كاد، ولم يبقَ له إلا الآخرة، فإذا زاغت عقيدته، وسقمت مفاهيمه فقد خسر الدنيا والآخرة، ولم يتمالك أن صاح في وجه الواعظ:

- «وماذا يفعل رجل شبه مقعد مثلى ليعمل لدنياه؟!» .

وأثلج صدره أن سمع الواعظ يقول: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ارتاح لهذه الكلمات، لم يعد فى وسعه أن يعمل كثيرًا، قلبه الكسير، وجسده المحطم لن يمكناه من الزراعة أو العمل . . ولم يعد أمامه سوى أن يحث خطاه الواهنة نحو الله . .

وكان تأثير النكبة على «نجلاء» مخالفًا تمامًا، وبالتالى اختلفت استجابتها لها، لقد رأت بعينها الغدر المجسم، فأقسمت أن تحطمه، وشاهدت الظلم والظلام يطبقان على أرضها، فعولت على أن تحمل مشعل العدالة والهدى، وأن تبدد الظلم والظلام مهما كان الثمن، وعلمت فى ذلك اليوم المشئوم أن عرض الآلاف سيكون مباحًا كما فعلوا بها، فقررت أن تحمى شرف بنات جنسها وأن تدفع الثمن من هنائها ودمها. . كانت تنفجر حيوية وشبابًا وثورة، لهذا طلقت حياة الدعة والسلبية، لا بد أن تفعل شيئًا. . وأن تمضى فى طريقها حتى النهاية . . إنها صغيرة السن، ومستقبلها ومستقبل الملايين يجب أن يجد الأمان وظلال الحرية المورقة. . ومن ثم كان أبوها يعيش فى المسجد الأقصى متبتلاً زاهدًا، وكانت هى تمسك بمدفعها وتتخذه موقعها على تبة عالية، تشارك الرجال، وتقذف بالموت فى صدور الأعداء، وتنمو فى داخلها مبادئ جديدة إيجابية تؤمن بالحق، وتنتصر للحياة والحب والحرية. . ».

***

وذات يوم ذهبت «ضحى» إلى «أبى نجلاء»، أخذت تبحث عن خيمته حتى بلغتها، واستأذنت فى الدخول، ورفع إليها الرجل عينين أرهقهما الحزن والسهر، ومن بين أهدابه المرتعشة وقعت نظراته على فتاة كالزهر اليانعة ذكرته على التو بحور الجنة، وقبل أن ينطق بكلمة همست قائلة :

– «معذرة إن كنت أستبيح لنفسى قطع خلوتك، لكنى أحمل إليك نبأ سارآ. . أعرف أنه سيدخل السعادة إلى قلبك. . » لم

ينفعل أو يبدو عليه شيء من الاهتمام. لم يعد هناك شيء يخرجه عن طبيعته الحزينة التي لا تتعشق شيئًا في الحياة مهما عظم، لكن قال في سخرية مرة:

- «السعادة؟».

- «أجل.. أجل..».

- «السعادة في نظري هي لقاء الله..».

- «ألا تعتبر يوم النصر الأكبر - عندما يجيء - سعادة عظمى؟!» فهمس وهو يهز رأسه:

- «إنه يوم عظيم لا شك.. لكنه سيكون مليئًا بالذكريات الدامية والدموع..».

وأرادت «ضحى»، معابثته، لعلها تخفف عن نفسه بعض ما شابها من آلام مبرحة متأصلة، فقالت:

- «خمّن.. ماذا حملت لك من أنباء؟».

قال يائسًا:

- «الموتى لا يستيقظون الآن. وحيفا لم تزل في يد الأعداء».. وأدركت أنه قد تذكر أسرته التي أودى بها الغدر الصهيوني، وتذكر «حيفا» وعهدها الزاهر وأيامها الخالدة السعيدة، وإذا كانت أسرته قد طواها الموت، وحيفا سلبها الأعداء، فأي شيء يبهجه بعد ذلك؟ قالت «ضحى» وابتسامة حلوة تولد كالفجر الندى على ثغرها:

- «نجلاء تقرؤك السلام. . ».

وانتابت رأسه رعشة مستمرة وهو يرفع إليها وجهه الشاحب مرة أخرى، وقال وهو يدقق النظر فيها:

- «نجلاء؟».

- «أجل. . ».

إنه لم يعد يفكر فى مصير أبنائه وزوجه منذ ذلك اليوم، لقد احتسبهم عند الله، وألقى عليهم نظرة الوداع حينما أفاق من غيبوبته بعد إطلاق الرصاص، وخروج العصابة اليهودية، ولم يعد يذكر سوى أنهم قد ماتوا. . ماتوا جميعًا. ولم يعد هناك أمل فى اللقاء إلا بعد أمد بعيد عندما يبعث الموتى فى العالم الآخر. . فما الذى يسمعه الآن؟ إما أنه فى حلم من الأحلام الكثيرة التى تداعب أجفانه كل مساء حيث يلتقى بأحبائه فى الوهم ويحدثهم ويحدثونه، وينعمون معًا كما كانوا ينعمون فى الأيام السعيدة الخالية، وإما أن هذه الفتاة - «ضحى» - تحاول أن تسخر من شيخوخته، وتظنه ملتاث العقل، فجاءت لتوهمه بأكاذيب لا ظل لها من الحقيقة. .

وعاد يقول فى صوت مبحوح:

- «من أنت يا ابنتى؟».

- «ضحى ابنة الشيخ إسماعيل ريحان. . ».

- «أبوك رجل صالح. . لكنك. . ماذا أقول؟».

فاختطفت «ضحى» يده وقبلتها فى حنان وخشوع، ثم قالت:

- «أؤكد لك أنها هربت من معسكر الأسرى فى «حيفا»، والتحقت بالمجاهدين فى منطقة «بتير» و «سور باهر»، وأظهرت بطولات خارقة.. إنها تحارب مع رجال أعرفهم.. منهم خميس شاهين.. لم تكن «نجلاء» تعرف مصيرك.. كانت تحسب أنهم اغتالوك.. لكن زوجى.. أعنى.. خميس شاهين.. معذرة لم نتزوج بعد.. أخبرها بالحقيقة.. وسوف تأتى «نجلاء» لزيارتك بعد أسبوعين على الأكثر..».

وأخذ الرجل يتحسس «ضحى» بيده المعروقة الهزيلة، لعله أراد أن يتأكد أن من تخاطبه كائن بشرى حقيقى، لا طيف خيال..

ليلمس بيديه أهى وهم أم حقيقة، إنه يشك فى كل شىء يتصل بالناس والأرض.. فالناس يغدرون ويكذبون ويقتلون، والأرض تقل هؤلاء الحمقى الخطاة.. وقال الرجل مبهوراً:

- «وما دليلك يا ابنتى؟؟».

- «بعد أسبوعين..».

وغمغم وهو فى شبه نشوة صوفية:

- «وتولد الحياة من بين براثن الموت..».

وأردفت ضحى:

- «كما ينبع الأمل من اليأس، وكما يشرق الانتصار من بين ظلام الهزيمة..».

فرد الشيخ في ذهول:

- «قادر.. سبحانه».

- «كلنا أبناؤك..».

- «مات أبنائي.. وأقرانهم أيضًا يموتون كل مساء وصباح ما معنى ذلك؟؟ لا شيء سوى أن عالمنا مجنون.. متوحش..».

قالت ضحى:

- «لكل شيء نهاية.. ولن تتركنا العناية الإلهية لهذا الشقاء مهما طال..».

- «أجل.. ورحمة الله وسعت كل شيء..».

- «وعندما تعود «نجلاء» فسأصحبها إليك..».

- «أحقًا تعود؟».

ولم يغب عن «ضحى» مسحة السعادة التي ارتسمت على ملامحه، حقًا لن تستطيع «نجلاء» وحدها أن تعوضه عن فقد الآخرين جميعًا، لكنها كالدينار الغالي الذي يعثر عليه صاحبه المفلس بعد أن فقد كل ماله، إن هذا الدينار في يد صاحبه يساوي ملايين الدنانير الذهبية..

***

وبعد موت الشيخ إسماعيل ريحان بثلاثة أيام وصلت «نجلاء»، كان الشوق المبرح إلى أحضان أبيها الدافئة يدفعها دفعًا قويًا،

وكانت تشرد بخيالها إلى معسكر اللاجئين الذى لم تره بعد، وتتخيل أباها جالسا فى صمته الموحش، وشيخوخته التعسة الباردة، فتحاول أن تثب من العربة لعلها تسبقها، ليت لها جناحين يحملانها فى غمضة عين إلى الرجل المسكين الذى يقف وحيداً على شاطئ الحياة، ومن حوله تزمجر العواصف، وتقصف الوعود. . وشابت فرحتها الطارئة الأنباء التى أكدت موت الشيخ ريحان، وهذا ما جعلها تعرج على مركز الإسعاف وتقدم العزاء لضحى. . وبعدها عولت على الذهاب إلى أبيها، وما إن بلغت باب مركز الإسعاف حتى لحقت بها ضحى وهى تقول:

- «لقد وعدته بمرافقتك. .».

- «لكنك متعبة. .».

- «سأتى معك. .».

كان يجلس فى أحد أركان الخيمة وعيناه إلى الطريق لا تطرفان واختلجت نظراته وهو يراها واقفة لدى الباب. .

وصاحت: «أبى. .».

وهتف وقد انسابت دموعه: «ابنتى. .».

وألقت بنفسها بين ذراعيه، كان يقول كلامًا كثيرًا لم تعِ منه شيئًا، وكانت هى الأخرى تتحدث دون انقطاع، ودموعها على خديها لكنه أيضًا لم يع من حديثها شيئًا. . إنها لحظة تائهة مليئة بما لا يستطيع بشر تحديده. .

وجلست إلى جواره تقول :

- «إنه حلم رائع . . » .

وكان يقول :

- «أورقت حياتى من جديد . . » .

قالت «ضحى» - وما زالت تقف بالباب - وابتسامة حزينة تحوم حول ثغرها :

- «لقد نسيتمانى تمامًا . . » .

وعرفها «أبو نجلاء» ، وعلى الفور تذكر أباها ، قال فى نبرات خفيضة تحمل معنى الأسى والعزاء :

- «ادخلى يا ابنتى . . إنه بيتك . . » . .

وبعد فترة صمت قال :

- «رحم الله أباك . . كان من رجال الله . . وكان من حديثه تفوح رائحة الجنة» .

وجلس الثلاثة صامتين لفترة ، وكان فى الصمت نبضات أسى عميق ، أيفرحون؟ أيحزنون؟ إنهم لا يعرفون ، كل ما كان فى وسعهم هو أن يستأنفوا الحديث ، وتمضى الحياة على علاتها . .

ooo

الفصل الثانى والعشرون

انتعشت الآمال فى صدور المحاربين، وفاضت نفوسهم بالثقة والحماسة، واشرأبت أعناقهم نحو «تل أبيب» التى أصبحت على مرمى المدافع، والمجاهدون يطبقون عليها من كل جانب، والمقاومة الصهيونية تنكمش يومًا بعد يوم. وصراخ عملائها ينطلق فى أوربا طالبًا النجدة والتأييد، ووضع حد للزحف العربى الذى يدوس العوائق والسدود، لم تستطع الأسلحة الفاسدة أن تعطل الطليعة العربية المناضلة، ولم يفت فى عضدهم فساد الحكم والحاكمين، ولم يرهبهم ضعف الإمكانيات أو غدر الثعالب التى تعمل فى الخفاء وتبذر بذور الخيانة فى الصفوف الأمامية والخلفية، وأدلى قائد الجبهة المصرى بتصريح للصحف أكد فيه أنه سوف يقضى عطلة العيد فى «تل أبيب» . .

لم يكن فى حسبان الأعداء أن يروا هذه الانتصارات الرائعة من الجنود العرب نظاميين وفدائيين، فقد كانوا يعلمون أنها جيوش لم تمارس تجربة الحرب منذ سنين طويلة، ولم تلق رعاية أو عناية، ما توقعوا أبدا أن يصمد هؤلاء المحاربون تلك الفترة وأن يحققوا تلك الانتصارات، لكن الأعداء أدركوا فى النهاية أن الاستهتار بقوة

العرب لن يودى بهم لغير الهزيمة، وإفساد مخططهم الاستعمارى. إن الحرب التى اعتبروها ملهاة تبعث على التسلية والضحك انقلبت إلى مأساة دامية تهدد مستقبلهم بالخطر، إن الفلاحين والعمال وصانعى الأحذية وطلبة الجامعات والأزهر والمتطوعين من فرق الجيش المصرى والجنود النظامية، هؤلاء جميعًا استطاعوا أن يحققوا المعجزات، ويبدوا من ضروب البسالة والتضحية ما ينبئ عن توقعات لها خطرها ودلالتها العميقة بالنسبة لوضع الصهيونية والاستعمار. . وكان لا بد من توجيه ضربة حاسمة تضع النهاية لهذا الخطر العربى، الذى يولد فى جحيم المعركة وتولد معه قيم وأفكار جديدة، ستؤدى من غير شك إلى انهيار تام فى الجهة الاستعمارية ومستقبلها. . متى تكون الضربة؟ وكيف تكون؟ لم يكن أحد يدرى. .

واجتمع شمل الرفاق فى كتيبة عمر بن الخطاب فى موقعهم المعروف، وكان عددهم يفوق المائتين، بينهم القائد القصير ذو اللحية السوداء، وخميس شاهين، وصالح بدران، ونجلاء وبعض الفتيات الأخريات. وكان دور المتطوعين طوال المعارك الدامية دور الطليعة التى تسير فى المقدمة، وتمهد الطريق، وتقدم أغلى التضحيات، وتقوم بالأعمال الرائدة الانتحارية، وقال القائد القصير لبضعة نفر من حوله، وهو يتطلع إلى بعيد:

- «اليوم آخر أيامنا فى هذا الموقع. .».

قال صالح بدران:

- «لا شك أننا سنترك بالموقع قوة تحرسه».

- «كلا . . ».

- «ما معنى ذلك؟».

- «القوات النظامية ستأتى بعد ساعة، ستستلم منا المواقع وسترابط فيها بأعداد كبيرة وعتاد كاف . . نحن فى سرعة كى نصل مشارف تل أبيب فى أقصر وقت ممكن . . ».

قال خميس شاهين متدخلاً :

- «أى القوات ستحل محلنا؟؟».

- «من الجيش الأردنى . . ».

فبدا على وجهه شىء من الامتعاض وقال :

- «تقصد قوات «جلوب» الإنجليزى يا سيدى القائد؟

لشد ما يزعجنى هذا التصرف . . إنجليرى يقود فيالق عربية . . أليست مهزلة؟!».

قال القائد فى سخرية مرة :

- «إنها سياسة عليا . . أوامر القيادة يا صديقى . . الجندى فى الميدان ليس عليه سوى تنفيذ الأوامر . . الطاعة العمياء . . وإلا ارتبك كل شىء، ووجد الأعداء فى صفوفنا ثغرة ينفذون منها إلى وحدتنا . . أنا مثلك يا خميس . . لن أثق فى هذا الرجل مهما قالوا : إن الدم الإنجليزى البارد الملىء بجرائيم الجشع والوقيعة لن

يشع حرارة الصدق والوفاء . . ولن يقدس أمانينا العربية . . لكن ليس لنا فى الأمر حيلة . . كل ما نستطيعه هو أن نفتح عينًا على الصهيونيين وأخرى على الخطوط الخلفية . . ».

ثم استطرد فى صوت أجش وقد تطاير الحنق من عينيه :

- «وأقسم لو بدرت بادرة خيانة ، فلسوف أوجه مدافع رجالى نحو مصدرها . . الخيانة ذات وجه واحد ، سواء أكانت فى صفوف الأعداء من أمامنا ، أو فى صفوف الحلفاء من خلفاء . . إنها خيانة وكفى . . ».

كانت الشمس تصعد الأفق الشرقى فى ذلك الصباح الندى ، وكانت تتراءى للواقفين على التبة من بعيد قرى متناثرة توشيها النخيل وأشجار الزيتون والفاكهة ، وكانت الروح المعنوية بين الجنود مرتفعة جداً ، تعبر عنها تلك الابتسامات العريضة التى تشع ثقة وإيمانًا ، إنهم يتقدمون وينتصرون وفى نشوة النصر والاستبسال لا تفكر غالبيتهم فى شىء اسمه الخيانة ، إنهم يفترضون حسن النية فى الجميع ، قليلون أولئك الذين يقلقهم المستقبل ، ويخافون أن تفلت من أيديهم تلك الفرصة الذهبية فى الإجهاز على الصهيونية بسبب طعنات يضمرها الغيب ، قد تسدد لهم من الخلف . . وكانت هذه الطائفة تمشى بحذر ، وتدمن التفكير ، وتنقلب - ليلها ونهارها - على أحر من الجمر . . إن الدماء التى بذلت دماء غالية ، والهدف الذى من أجله يقدمون التضحيات أغلى ألف مرة . .

والطريق إلى النصر كان وعرًا شائكا ، والطريقة التى عومل بها

شعب فلسطين طريقة وحشية تثير الحفائظ، وتحرك الضمائر، ونتيجة هذه المعارك العنيفة سيرتبط بمصير العرب ومستقبلهم، ومن هنا جاءت الخطورة وإدمان التفكير والإشفاق من الغد المجهول..
تلفت القائد حوله، ثم قال:

- «أين نجلاء؟».

وأسرع صالح بدران باستدعائها تلبية لطلب القائد، وأقبلت «نجلاء» مسرعة. وعندما وقفت أمام القائد قال لها:

- «أرى أنه لا داعى لبقائك بيننا بعد الآن؟».

وأذهلتها المفاجأة، فهتفت فى حيرة:

- «كيف؟».

- «يجب أن تعودى إلى القدس..».

- «فى مهمة خاصة؟».

- «كلا.. يكفى هذا الدور الذى قمت به على أتم وجه..».

- «هل صدر منى ما يغضبك؟».

- «بالتأكيد.. لا.. لكنى..».

- «ماذا؟».

- «أبوك فى شيخوخته أحق بك منا.. ثم إنك ترين أن عدد الرجال كاف جداً..».

وترقرقت الدموع فى عينيها، وأظلها صمت كئيب، صمت

يعصف بالذكريات الأليمة، والصور البشعة، والعدوان الوحشى في «حيفا» على الرجال والأعراض والطفولة البريئة، والشيخوخة المهدمة، وهتفت:

- «إنك يا سيدى القائد تدفعنى إلى الانتحار».

- «لماذا؟؟».

- «لو أصررت على موقفك، فلن أعود إلى القدس، بل سأحمل مدفعى وأنطلق عبر الصحراء تجاه مواقع الأعداء، وسأحارب وحدى حتى أسلم الروح، دون أن أتراجع.. وهذا هو الانتحار بعينه..».

قال القائد:

- «إصرارك على البقاء لا مبرر له..».

- «وبالنسبة لى، له ألف مبرر..».

ورفعت أهدابها المبللة بالدموع إلى الرجال الواقفين حول القائد، كانت تنظر إليهم نظرة استنجاد وتوسل، وكأنها تطلب منهم أن يقفوا إلى جوارها، ويؤازروا رغبتها، إنهم يعرفون حماستها وتفانيها، ويدركون عمق المأساة التى عاشتها بالأمس الدامى، وخطا صالح بدران خطوة إلى الأمام. وقال:

- «سيدى القائد، إن «نجلاء» قد قامت بدورها فى النضال كأشجع رجل، ولهذا أرجو أن تنحى مسألة الجنس جانبًا..».

فابتسم خميس شاهين فى خبث، بينما أردف القائل قائلاً:

- «لكن أباها فى حاجة إليها . . إنه مريض . . » .

قال «صالح» دون أن تفتر حماسته :

- «المئات هنا تركوا وراءهم عجائز . . ومرضى . . وأطفالاً صغاراً، وتسابقوا إلى شرف المعركة . . والله لن يترك هؤلاء القاعدين المساكين بل سيكون إلى جوارهم، ويرعاهم بعطفه وعونه . . » .

قال القائد باسماً :

- «فى الحقيقة إنى مستريح لوجودك يا نجلاء . . تماماً مثل صالح بدران لكن . . المهم . . على بركة الله . . » .

ولولا الحياء، لاندفعت إليه «نجلاء»، أو اختطفت يده لتقبلها شاكرة، كان هذا واضحاً فى الفرحة التى ترقص فى عينيها، والتطلق الذى كسا ملامحها، ومال خميس شاهين على أذن صالح بدران هامساً :

-«هل استرحت؟» .

وأدرك صالح ما تنطوى عليه عبارة خميس من معنى، فهتف فى غيظ :

- «خميس . . » .

فشد خميس قوامه، وأدى التحية العسكرية وهو يكتم ضحكاً يغالبه، وقال :

- «انتباه . . » .

- «وللخلف در . . للأمام سر . . » .

وفعل خميس ما أمر به صالح ، وقطع عليهما استطرادهما فى الهذر صوت القائد حين قال :

- «ألا تعرفون وجهتنا الجديدة؟» .

فنظر الرجال إليه فى تعطش إلى أخباره ، وقالوا بصوت واحد :

- «كلا . . » .

- «سوف نزمع الرحيل إلى «طولكرم» ، إنها بلدة ريحها طيب ، وخبراتها كثيرة ، ثم إنها قريبة من أهدافنا التى سننطلق نحوها . . » .

قالت «نجلاء» فى سعادة :

- «طولكرم» رائعة حقاً . . أعنابها من الجنة . . ورائحة بساتينها تنعش القلوب . . وينابيعها العذبة تحيى الأرواح . . . والعذارى هناك يغنين أغنيات شجية ، كأنها ألحان سماوية . . » .

قال خميس شاهين ضاحكًا :

- « لا مكان للشعر فى المعركة . . إنها موقع إستراتيجى . . وكفى» .

فوكزه صالح بدران قائلاً :

- «إنك ميت الخيال . . لا تستعذب الجمال . . » .

- «يكفى ذوقك الجميل . . » .

وتضاحكا، بينما همست «نجلاء» فى شبه ذهول :

- «إنى أعشق كل شبر من هذه الأرض . . وأنتم مثلى لا شك فى ذلك . . إن ثراها يحمل نبضات السنين، والتاريخ الكبير، والمجد الذى يموت . . على هذا الثرى خطت أقدام الأنبياء . . الوطن والتاريخ والمبادئ التى نبتت هنا لحن قدس لن يموت، إنها الحياة . . أتعون ما أقول أيها الإخوة؟» .

كانت تبدو وكأنها فى صلاة خاشعة، وكان وجهها الشاحب يشهد بما يعتمل فى قلبها الغض من انفعالات جياشة، وكان الوميض الحى فى نظراتها يترجم عن حرارة وإخلاص . . وكانت حركاتها المتوترة توحى بالجد والثقة والعزيمة الحديدية، ولم يجد الرفاق بدآ من أن يحنو رءوسهم إجلالاً واحترامًا . . حتى القائد القصير ذو اللحية السوداء وجد نفسه يغمغم :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه — نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

***

وربط أفراد الكتيبة متاعهم، وشحنوا عرباتهم بالمؤن والذخائر، وبقوا على أهبة الاستعداد حتى وصلت القوات الأردنية النظامية، واتخذت أماكنها فى الموقع . .

وسارت القافلة كتيبة عمر الخطاب فى الطريق إلى «طولكرم» يروها الأمل، ويدفعها الشوق إلى الحرية والنصر الكبير .

ooo

الفصل الثالث والعشرون

أدرك العدو حركة الالتفات والتطويق التى تضيق عيه الخناق، قوات من الشمال والجنوب والشرق تطبق عليه، وكان العدو منطقياً مع نفسه حينما أيقن أنه من الصعب دحر هذه القوات أو ردها على أعقابها، وكانت خطة العدو تنطوى على معنى واحد هو محاولة تعويق الزحف العربى، والاحتفاظ بما تحت يد الصهيونية من مواقع، فقد كانوا يؤمنون أن تطويل أمد المعركة سيكون فى صالحهم؛ إذ سيعطيهم الفرصة للتدبير، والاتصال بالدوائر الغربية التى تعمل حساب النشاط المالى الصهيونى، والتى يهمها من الوجهة السياسية البحتة أن تصبح إسرائيل قاعدة لنفوذهم فى منطقة الشرق الأوسط، وقنطرة لأطماعهم ومؤامراتهم. .

ورأت القوات الصهيونية المرابطة تجاه «طولكرم» أنه ليس من المصلحة البقاء فى مراكزهم والاكتفاء بصد العدوان، إذ إن تفكيرهم فى الهجوم قد يكون فى حد ذاته لا وسيلة للتوسع فحسب، بل أهم وسيلة للدفاع والاحتفاظ بمواقعهم، والاستمرار

فى المقامة لأطول مدة ممكنة، فضلاً عن أن الهجوم -فى تلك الظروف بالذات - قد يوهم العرب بوجود قوة كبيرة قادرة ليس على الدفاع فحسب، بل على الهجوم أيضًا، وفى الحرب قد تنعكس البديهيات فيهجم الضعفاء، ويتخذ الأقوياء موقف الدفاع طبقًا لخطط مرسومة . .

وفى اليوم الأول من وصول كتيبة عمر بن الخطاب إلى «طولكرم»، عمد القائد إلى تدبير وجبة ساخنة للضباط والجنود، وإعطائهم فرصة للراحة والترفيه والاستمتاع بفترة كافية للنوم، وفى هذا اليوم بالذات خرجت البلدة عن بكرة أبيها لاستقبال الأبطال القادمين من عرض الصحراء وعليهم غبار السفر، وامتلأت الشرفات بالنسوة اللائى كن يزغردن، ويلوحن بأيديهن مرحبات، وينثرن على الكتيبة الورود وأزهار اللارنج والبرتقال والبنفسج، واصطف الأطفال الصغار فى الشوارع يرددن الأناشيد، ويملأن أفق المدينة بالهتاف والصياح، ورفع الشيوخ وجوها امتلأت بالغضون، واستطالت لحاها البيضاء ولوحوا بأيديهم المعروفة، وهم يحمدون الله، ويزجون عبارات الشكر للوافدين الأبطال، ودموع الفرح تترقرق فى عيونهم، لقد عاشت «طولكرم» ليالى مسهدة طويلة، يؤرقهم الخوف، ويقلقهم توالى الإغارات الصهيونية على ديارهم، كانت «طولكرم» تحت مرمى النيران الغادرة، لا تدرى أيدهمها الشيطان فيقيم فيها المذابح،

ويرقص على جثث الشهداء، ويلغ فى دماء الضحايا، أم تتداركها عناية الله فيقيض لها من يقيمون من حولها درعًا واقية، ويثبتون فيها قوائم السلام والرخاء؟ والحياة على حافة الهاوية لحظاتها عصيبة مريرة؛ إذ إن الأحياء لا يشعرون بمذاق أى شىء فى الوجود، إنها حياة أبشع من الموت ذاته، ولهذا شعرت «طول كرم» بأنها تولد من جديد، فلا عجب أن تخرج مهللة مكبرة، وتنشر الورود، وتترنم بأعذب الأغنيات والأنغام، وتمتلىء قلوب أهلها بالشجاعة والأمل، وتنظر إلى أوكار العدوان فى شماتة وسخرية.

وهتفت «نجلاء»:

- «انظروا.. طولكرم فى أسعد أيامها».

ورد صالح بدران:

- «إنها لسعادة كبرى أن يضحى الإنسان من أجل هؤلاء الشرفاء..».

وأردف خميس شاهين:

- «لكأنى أرى الله فى عيون هؤلاء الأطفال الأطهار..».

وبعد يومين اثنين، اتخذ الرجال مواقعهم حول المدينة وعلى مشارفها، وانضم إليهم عدد كبير من رجالها، ظلوا طوال الفترة السابقة يقومون بصد العدوان، وحماية السكان، ومع الأمن والأمل عادت الحياة إلى طولكرم، خرج الرعاة بأغنامهم

وأنعامهم، وتسابقت الأيدى لرى الزروع، وجنى الثمار، وعمرت الأسواق، ونشطت حركة البيع والشراء، وعاد فى الصبايا يحلمن بالمستقبل، ويمرحن فى الساحات، ويأكلن الحلوى، وفقهاء المكاتب والمعلمون فى المدارس أخذوا يذكرون أطرفًا من معارك الزمن الغابر مثل حطين وعين جالوت، ويروون حكايات عن صلاح الدين وبيبرس ونجم الدين أيوب . . وهزيمة الفرنجة، وأعلام النصر وهى ترفرف فى بيت المقدس ودمشق وبغداد والقاهرة، وكأنهم يتغذون بهذه الذكريات الرائعة المجيدة، ويتخذون منها زاداً للمعركة القاسية المحتدة فوق الأرض المقدسة . . ولا شىء يحيى النفوس فى ظلمات النكبات الطارئة أروع من ماضٍ رائع، ينبثق منه فجر الأمل العذب . .

وفى اليوم الثالث هرول رجل أشبه برجال البادية، وكان يقصد مركز القيادة، فاعترضه صالح بدران، فبادره الرجل قائلاً :

- «لا بد أن أقابل القائد» .

- «تستطيع أن تقول ما تريد . . » .

- «لكنه أمر يخصه . . » .

وأمام إلحاحه، قاده صالح إلى القائد فى حجرته، فأشار عليه بالجلوس وأمر صالح بالانصراف، وبعد فترة صمت، تبادل الرجلان نظرات فاحصة، ثم قال الرجل :

- «سوف يهجم اليهود الليلة يا سيدى القائد».

- ولما لم يعلق القائد بشىء استطرد الرجل:

- «وهم يعرفون مواقعكم وعددكم. . ».

وظل القائد معتصمًا بالصمت، قال الرجل:

- «حمل إلىَّ أحد رجالنا نبأ استعدادهم، ورجالنا قلما يخطئون. . . ».

وأخيرًا قال القائد:

- من أنت؟».

- «أتبع مخابرات القيادة العسكرية بالجبهة المصرية، وقد صدرت إلينا الأوامر فى هذه المنطقة بالاتصال بك. . ».

- «ما اسمك؟».

- «اسمى الحركى كنعان».

وغمغم القائد فى هدوء:

- «رقم تسعة».

- «بالضبط. . ».

- «وقدمك اليسرى».

- «ذات أربعة أصابع فقط. . ».

- «حسنًا . . كم ترجح عدد المهاجمين؟» .

- «لن يزيدوا على خمسين رجلاً وامرأة . . يا سيدى القائد» .

- «ألديك معلومات أخرى؟» .

- «السلاح الأبيض سيحسم المعركة، وأنت تعرف السبب» .

- «بالطبع . . إنهم جبناء . .» .

- «إذا التحمتم معهم فسيركعون . . عند الهزيمة يجيدون تقبيل الأحذية، وإذا ما انتصروا افترسوا الضعفاء فى جبن وشراشة . .» .

- «أتشرب فنجانًا من القهوة . .» .

- «هذا واجبنا . . إلى اللقاء . .» .

ومع ليل الحرب تنعكس الآية، فتخاصم الأجفان النوم. وتلمع العيون باليقظة، ويضىء الظلام بشعاع الإيمان، فتعرف الأقدام طريقها، وترى القلوب الطريق وإن لم تره العيون، وتضج الأرواح بالآمال والتوثب والمشاعر المتلاطمة، وخرج ثلاثون من كتيبة عمر ابن الخطاب وقطعوا فى الطريق خارج المدينة ما يزيد على ميلين، وتبعهم عشرون آخرون أوغلوا فى البعد ميلاً آخر، لكنهم تواروا تمامًا عن الأنظار فى حفر عميقة، إذ لا بد ألا يراهم الأعداء إذا مروا بهم، وتسلل أفراد العصابة الصهيونية .

كان فى نيتهم أن يشعلوا المعركة عند مدخل «طولكرم» لعلهم بذلك يثيرون الفزع فى نفوس الأهالى والمتطوعين، ويوهمونهم

بأنهم قوة كبرى على جانب لا بأس به من البسالة والجسارة، إذ يضربون المتطوعين فى عقر دارهم.

همس خميس شاهين وهو يتصبب عرقًا:

- «إنهم يقتربون».

قال صالح بدران وهو ينتفض برغم حرارة الجو:

- «ثق أنى أجيد المصارعة اليابانية».

- «لا يستطيع أحد أن يتفوق على فى استعمال السلاح الأبيض مع أنه عمل أستبشعه..».

- «إننا نجرع الدواء المر برغم كرهنا له.. لماذا؟».

- «كى يتحقق الشفاء من الداء..».

وساد الصمت فترة، كان صمتًا رهيبًا ثقيلاً، يجب أن ينتهى الأمر على أى وجه وبسرعة، إن صالح متعجل، وخطته فى الحياة أن يحسم دون تردد أو انتظار، لم تعلمه الفلسفة الروية والتبصر، وقال:

- «متى نبدأ؟...».

- «الآن!!».

وانطلقت رصاصة فى صمت الليل الرهيب، وفى لحظات كان الالتحام، لم يستطع المهاجمون أن يفكروا طويلاً، كل ما استطاعوا

فعله هو إطلاق الرصاص فى أى اتجاه وبدون هدف، لكن السلاح الأبيض كان له بريق مخيف وحشى، إن المفاجأة أذهلت العدو وكان أسلم شىء بعد أن فشلت الرصاصات الطائشة فى إنقاذ الموقف، أن يفروا متراجعين، لعلهم يستطيعون إعادة النظر فى الموقف من جديد، لقد قتل بعضهم، وأسر البعض، لكن غالبيتهم ولت هاربة، فاعترضها حاجز من عشرين رجلاً، وإن لم يعرفوا عددهم آنذاك، وتبعهم المتطوعون، فوقعوا بين نارين، وصاح قائد الهجوم الفاشل:

- «إننا نسلم أنفسنا . . ».

وهتف القائد العربى القصير:

- «ألقوا بسلاحكم، وارفعوا أيديكم . . ».

وانصب على صف المنهزمين ضوء عدد من الكشافات الصغيرة، كانوا يقفون منكسى الرءوس، لا يقوون على مواجهة الضوء، وأياديهم مرفوعة فى الهواء، كانوا يزيدون على الثلاثين، بعضهم ينزف دمًا، ويبدو أن عددًا قليلا منهم قد استطاع الفرار منذ البداية، وأعطى القائد العربى بعض الأوامر فى صوت هامس، فتقدم بعض المتطوعين، وجمعوا السلاح الملقى على الأرض، بينما قام البعض الآخر بربط يدى كل جندى صهيونى من الخلف، ثم ساقوهم قطيعًا واحدًا ذليلا إلى «طولكرم» . .

وقال خميس شاهين وهم يسيرون تحت جنح الظلام:

- «إن ثلاثين أسيراً صيد ثمين حقاً . . » .

قال صالح فى أسى :

- «لكننا ضحينا بشهيدين ، وثالث فى حالة خطرة ، وخمسة من الجرحى . . أليس هذا مؤلمًا؟» .

- لا يعقل أن ننتصر بلا تضحيات . . » .

وعاد صالح يقول :

- «أحسن القائد صنعًا أن منع «نجلاء» من الخروج معنا الليلة . . » .

- «فعلاً . . إنها معركة لا تتفق مع طبيعة النساء . . » .

ثم عاد «خميس شاهين» يقول :

- «لكن لماذا تفكر فيها الآن؟» .

- «ألسنا إخوة؟» .

«ما زلت عند رأيى يا صالح» .

- «ماذا تعنى؟» .

- «أنت تحبها . . أنك تذكرها وقت الخطر ، وتدافع عن رغباتها إذا ما جد نقاش حاد . . ولا تقدر على رحيلها . . » .

قال صالح فى شيء من الضيق :

- «يبدو أن عنف المعركة قد أصابك بلوثة . . » .

- «لوثة حب . . ها . . » .

ولم يشعرا بالقائد وهو يقترب منهما ويقول فى صرامة :

- «اذكروا شهداءكم . . إن دماءهم الساخنة لم تبرد بعد . . فكروا فى شىء آخر غير هذا المزاح السمج . . » .

●●●

الفصل الرابع والعشرون

وبقدر ما انزعجت «طولكرم» فى المساء وهى تستمع إلى طلقات الرصاص وصراخ الرجال فى المعركة، فقد دقت طبول النصر فى شوارعها فى اليوم التالى، وطرب الناس وهم يتناقلون أنباء ذلك الانتصار الخاطف، وكان على القائد أن يعرض طابور الأسرى فى المدينة فسيكون له أعمق الأثر فى نفوس الأهالى، وبالتالى يسهل مهمة قوات المتطوعين وييسر لهم سبل الحصول على كل ما يحتاجون إليه.

وعلى الرغم من أن «نجلاء» لم تستطع الاشتراك فى المعركة فإنها كانت فى المساء تحرس موقعًا من المواقع خارج المدينة، لتحمى - هى ورفاقها ورفيقاتها - ظهر القوات أثناء الالتحام المباشر، وقضت الليل ساهرة تعيش المعركة بأعصابها المتوترة، وتدعو الله من أعماقها أن يكتب لهم التوفيق؛ إذ إن المعركة الكبرى تقترب، واحتلال «تل أبيب» يبدو كالأمل الحلو الذى سيفتح الطريق إلى كل الأمانى العذبة، ويفتح الطريق أيضًا إلى «حيفا» الحبيبة، وانتهت

نوبتها فى الصباح الباكر، وكان عليها أن تعود إلى مبنى «الاستراحة»؛ كى تحظى ببضع ساعات من النوم، ولتهنئ إخوانها بما أحرزوه من سبق، وقبل أن تأوى إلى فراشها، طلب القائد منها ومن بعض الزملاء، أن يحملوا إلى الأسرى طعامًا كى يتنالوا وجبة الفطور، وأوصى «نجلاء» بالذات أن تحاول تضميد جراح من أصيبوا منهم حتى يتسنى ترحيلهم إلى أقرب مركز للإسعاف، وكان واضحًا أن القائد يحب ترحيل الأسرى بسرعة إلى أقرب المعسكرات وتسليمهم للقوات المصرية النظامية كى لا يكونوا عبئًا عليه، وخاصة أن الأعداء - لا شك فى ذلك - لن يقبلوا هذه الهزيمة الماحقة، ولن يسكتوا على فقد ثلاثين أسيرًا وعددًا من القتلى، ورجح القائد أنهم سيطلبون نجدات سريعة ليعاودوا الكرة، ولينتقموا لأنفسهم، أو لعلهم يستردون أسراهم، وبالفعل ألقت «نجلاء» سلاحها جانبًا، وحملت بعض الأربطة والقطن الطبى وقليلاً من العقاقير المطهرة، وسارت مع صالح وخميس شاهين إلى المكان الذى يأوى إليه الأسرى، وبينما كان رفاقها يوزعون الطعام كانت هى تقوم بعملية الإسعافات الأولية - وداعبها خميس شاهين ضاحكًا وهو يقول:

- «أنت فى هذا الفن تلميذة صغيرة بالنسبة لضحى». .

فردت عليه قائلة:

- «ضحى صديقتى. . فلا تحاول الوقيعة بيننا».

كانت «نجلاء» تمر على الأسرى سائلة عمن أصيب منهم، ورأتهم وهم قاعدون فى تخاذل تام، ويأس مرير، الشحوب الذى على وجوههم يوحى بتعاسة قاتلة، القلق المتبدى فى أعينهم يبين مدى الرعب الذى يعتصر قلوبهم، إنها بالنسبة لهم لحظات موت غير كامل لهم، حيث يؤكد الضياع، وفى الوقت نفسه يضاعف آلامهم الهائلة، ومع ذلك لا يموتون.. كل أسير يحلم أحلام طفولة مقيدة، نظراتهم مركزة على التراب، وعقولهم تحلق إلى بعيد حيث بقية العصابة وحيث الحرية.. إنهم يجهلون مصيرهم، أهو القتل أم السجن؟ أيعودون إلى الأهل والأحباب والذكريات أم تنتهى آمالهم وأطماعهم إلى الظلام والفناء؟ يا لها من أحاسيس تدركها «نجلاء» أكثر مما يدركها غيرها، فقد كانت أسيرة ذات يوم.. وكانت.. وكانت، وهؤلاء الرجال التعساء اليوم يشعرون بمرارة التجربة، يقاسون خيبة الأمل، ورعب المستقبل المجهول، وكم تمنت «نجلاء» فى هذا الوقت أن تصرخ فيهم قائلة: «هذا هو الحصاد أيها الأغبياء.. يا ضحايا الغرور» لكنها آثرت الصمت، وظلت منكبة على عملها تؤديه بطريقة بدائية لا حنكة فيها ولا دقة..

وقبل أن تنتهى من عملها سمعت صوت أحد الأسرى يقول:

- «يا آنستى.. هذا الرجل فى حالة سيئة.. إنه ينزف بكثرة» وأشار الأسير بيده إلى رفيقه، فقالت «نجلاء» وهى تخطو نحوه:

- «سوف ننقله فوراً إلى أقرب مستشفى».

كانت تقترب منه، وهو يرتمى ممدد الساقين، مضطجع على الحائط، ووجهه الباهت يتجه إلى ركن الحجرة، وأنفاسه المتحشرجة تطن فى أذنيها، وعندما نظرت «نجلاء» إلى وجهه تراجعت فى ذعر؛ وندت عنها صرخة عالية:

- «ليفى.. أيها الجاويش القذر..».

ووقفت مسمرة فى مكانها.. لم تعد ترى شيئاً أمامها، عيونها امتلأت بالدموع، ومن خلال دموعها كانت تشهد سطور المأساة القديمة.. المأساة التى لن تنساها.. «ليفى» وهو يأمر الرجال بقتل أهلها.. «ليفى» وهو يجرها إلى عربة تشبه عربة الكلاب.. «ليفى» وهو يلمسها فى خبث وعربدة. وشعور بالغثيان والتقزز يملأ روحها.. ليفى يحاول تقبيلها.. ثم يهددها بالعقار المخدر.. ثم يغرز الإبرة فى جسدها.. ويقهقه كالشيطان فى النهاية.. ويفرح بالنصر الخسيس الذى أحرزه.

وصرخت مرة ثانية وجسدها ينتفض كله:

- «ليفى.. أيها الحقير».

وحول «ليفى» إليها وجهه فى شىء من الجهد، كانت علامات الإنهاك والعرق الغزير تكاد تخفى ملامحه، وما إن رآها حتى

داخله رعب قاتل، وتذكر كل شيء على التَّو، لكنه انفجر باكيًا وهو يهتف في نبرات واهنة ضعيفة:

- «من أنت؟ أنا لا أعرفك.. وأنا رجل على أعتاب الموت..».

واحتبست دموعها، وسرعان ما جففت وجهها، ورمت بما في يدها من أدوات طبية وعقاقير، وقالت وهي تصر على أسنانها وحقد هائل ينبثق من عينيها:

- «لكنى أعرفك «يا ليفى».. أعرفك كما أعرف أمى التى قتلتها.. وإخوتى الذين رميتهم بالرصاص من الخلف.. أعرفك كما أعرف نفسى التى أورثتها العار.. أتذكر يا حقير؟ إن مكان وغز الإبرة لم يزل يؤلمنى.. يؤلمنى الآن أكثر من أى وقت مضى.. ويبعث فى بدنى قشعريرة فظيعة.. «نجلاء» عاشت.. وشبح العار يطاردها.. ظل منتصبًا على رأسها.. ولن يهدأ بالى إلا إذا قضيت عليك.. وانتقمت للأحزان القديمة التى تعشش فى قلبى.. الأهل والشرف أنت قاتلهما يا ليفى أيها الوغد النذل..».

وتجمهر إخوانها المتطوعون فى لحظات من حولها، ورفع الأسرى إليها وإلى «ليفى» نظرات الدهشة، وبحثت «نجلاء» عن مسدسها فى جيب سروالها الخلفى، وقالت وهى تصوب مسدسها إلى صدره:

- «إنه حكم عادل إذًا.. أنا أنفذ فيك حكم الإعدام..».

ولم تكد تفعل ذلك، وتستعد لإطلاق الرصاص، حتى فوجئت بيد قوية تضرب المسدس، وترمى به إلى بعيد، وأفاقت «نجلاء» إلى نفسها، ثم نظرت إلى من فعل ذلك وكلها سخط ونقمة، كان القائد القصير ذو اللحية السوداء يقف قبالتها، ونظراته الحديدية تنصب على وجهها الذى لا يفترق - فى تلك اللحظات - عن وجه مجنونة، وصرخت «نجلاء»:

- «ماذا فعلت يا سيدى القائد؟».

وفى لهجة صارمة قال:

- «إنى آمرك بالابتعاد عن هذا المكان..».

- «بل سأقتله..».

- «لن تفعليها..».

- «أتعرف؟».

- «كل شيء.. أعرف أنه ذئب وثعبان ووحش.. وصورة مجسمة للانحطاط البشرى، لكنك لن تقتليه..».

- «هذه قسوة..».

فرمى القائد الجاويش «ليفى» بنظرة شزراء وقال فى سخرية:

- «هذه القسوة يسميها الجاويش «ليفى» رحمة..».

وسمع القائد حركة وصخبًا من خلفه، والتفت نحو مصدر

الحركة، كان صالح بدران هو الآخر، يحاول إطلاق الرصاص على «ليفى»، وخميس شاهين يمسك بيده، ويمنعه من ذلك، فصاح القائد بأعلى صوته:

- «ماذا؟ هل جننتم؟».

قال صالح بدران وهو يقاوم - مستميتًا - وقد اجتاحته موجة عارمة من الثورة:

- «لا يعقل أن يفترس أسرتها، ويغدر بها، ويرتكب أبشع جريمة تتعلق بالشرف ثم نتركه حياً. . إنها سذاجة منا. . بل حماقة، إن الرحمة الآن خيبة كبرى. . دعونى. . دعونى. .».

وصاح القائد مرة ثانية:

- «اقبضوا على صالح بدران وقيدوه بالحبال. . وضعوا «نجلاء» فى حجرتها بعد أن تربطوا قدميها ورجليها. . وكل من يحاول الخروج على أوامرى أو الاعتداء على الأسير، فسأطلق عليه الرصاص مهما كان عزيزًا لدىّ. . هيا. . اذهبوا. .».

واقتيد صالح بدران إلى الخارج وقد أمسك بكل ذراع من ذراعيه واحد من إخوانه، وتبعته «نجلاء» خارجة دون أن يمسك بها أحد، كانت منكسة الرأس، محتقنة العينين، كانت تسير مهدمة، وكأنها تقيم - لأول مرة - جنازة حقيقية لضحايا بيتها، وتستشعر جرح نفسها الدامى، الذى يؤلمها أكثر مما يؤلمها أى شىء آخر، وما إن غابا

عن الأنظار حتى التفت القائد إلى الجاويش «ليفى»، وقال:

- «كنت يا ليفى سافلاً.. لكننا لن نجاريك فى سفالتك، إننا أمة تحكمها قيم ومبادئ...».

قال «ليفى» فى كلمات متقطعة وأنفاسه تتلاحق:

- «أعترف بحقارتى..».

وقال القائد وهو يزمع الخروج:

- «سننقلك إلى المستشفى..».

- «هات يدك أقبلها يا سيدى..».

- «إننى أكرهك كما لم أكره أحدًا من قبل.. لكنى سأخصص لك حارسًا حتى لا يصيبك أحد بسوء.. وبعد أن تشفى سأقدمك لمحاكمة عادلة، ودافع ما شئت عن نفسك.. أنت مجرم حرب «يا ليفى»..» وأخذ «ليفى» ينشج كما تنشج النساء..

وخرج القائد، وأصدر أوامره بالبحث عن عربة «جيب» زائدة عن الحاجة، كى تنقل الجريح «ليفى» وبعض صحابه من الأسرى الصهيونيين إلى أقرب مركز للإسعاف.

كان القائد هو الآخر، وليس «نجلاء» وصالح وحدهما. يحاول جهدًا أن يكبح مشاعر الحقد التى اشتعلت فى قلبه تجاه «ليفى»، وكان القائد يعتقد أنه ليس من البطولة أن ننتقم، ولكن أروع من ذلك أن ننتصر على نوازع الحقد والانتقام، وأن نحكم المبادئ

الإنسانية فى معاملة الأسرى، ونحكم الضمير والقانون. . كان هذا فى رأى القائد أروع نصر . .

***

جلست «نجلاء» فى حجرتها وحيدة، وصورة «ليفى» لا تغادر رأسها، لم يكن يكفيها أن ترميه بالرصاص، كانت تريد أن تشفى غليلها، وتنتقم لأحزان الليالى الطويلة، لا بالرصاص وحده، بل بأظافرها وأسنانها، إن ما فعله «ليفى» ذات يوم لا يمكن أن يصدر عن آدمى. . وغاظها أن يقف القائد فى طريقها، إنها تحترمه، وتقدر شخصيته وتفكيره وخلقه، لكن ما فعله اليوم قد آذى شعورها، وصدم آمالها، ومع ذلك فقد كانت تشعر بغير قليل من الراحة، فقد وقع عدوها الشخصى - ليفى - أسيرًا بين يديها، إن هذا فى حد ذاته عامل مخفف لما يغلى فى داخلها من جيشان وثورة. .

وتوارت صورة «ليفى» النذل عن عينيها، ولمعت صورة «صالح بدران» وخفق قلبها، وهى تستعيد المشهد الرائع، حينما حاول صالح أن يقضى على الوغد، لقد شعرت «نجلاء» وهى ترمق انفعالاته وثورته، إنه - صالح - أقرب ما يكون إلى قلبها، كان صمته دائمًا يشى بآلاف المشاعر الصاخبة، وكانت نظراته - منذ أن رأته - تتحدث حديثًا طويلاً، هى تفهمه، وإن لم يحاول صالح أن يترجم عنه صراحة . .

إن صالح فى رأيها خلق آخر غير «نادر» الذى خان الأمانة، وصالح يختلف تمام الاختلاف عن القائد الحازم الذى تشعر نحوه بمشاعر البنوة والتتلمذ، وصالح يختلف أيضًا عن خميس شاهين -خطيب ضحى- لأنه فى نظرها واحدمن إخوتها . . أجل . . صالح يختلف عن كل من تعرف . . إنه إنسان مميز فى تصرفاته وعواطفه وأخلاقه، له طابعه الخاص سواء أخطأ أم أصاب، أو تحدث أم صمت . . وهى تشعر إلى جواره بالألفة والأنس، وترتاح كثيرًا لحديثه، عندما كان يحدثها عن القاهرة وحى السيدة عائشة كانت تجد نفسها منجذبة إلى عالم ساحر شائق، يخفق له قلبها، وعندما يروى لها عن طرائفه وذكرياته فى الجامعة وكلية الآداب، تشرب حديثه فى ظمأ وكأنه ماء عذب يحيى الروح، وإذا ما تكلم عن المستقبل توردت وجنتاها، وطرفت عيناها فى ارتباك . . لكنها لم تجد فى نفسها الشجاعة الكافية لتضع النقط فوق الحروف وتحدد معنى هذه العلاقة الوليدة، أو لعل ارتباطها بمأساتها، وتأثرها العميق بها، أسكت إلى حين صوت الفطرة فى أعماقها، وكان صالح - هو الآخر - يرى العار كل العار فى أن يفصح عن حبه وسط حقول الدم والضحايا وهدير المدافع، ودوى القنابل يصم الآذان . . وهكذا عاش حبهم فى الظلال . . لم يتحرك لتشرق عليه الشمس وتضىء ملامحه . ومع انزوائه كان يتفجر قوة، ويزداد نموًا واشتعالاً . .

ودخل عليها القائد وهى تحلق فى آفاقها الوردية وتبتسم ابتسامة خفيفة، وقال غاضبًا:

- «المعركة ليست معركة بيت «نجلاء». . إنها فوق المآسى الشخصية والانتقام الرخيص. . معركة أمة لا بيت صغير مات سكانه. . .».

وتمتمت «نجلاء» وقد تسلل شعاع من السكينة إلى نفسها:

- «أعرف ذلك».

- «وما قيمة هذه المعرفة ما دامت لا تؤدى إلى النتيجة المرجوة؟».

- «آسفة. .».

- «كلمة واحدة أقولها. . ولآخر مرة. .».

قالت «نجلاء» وقلبها يدق:

- «ما هى؟».

- «إطاعة الأوامر. . أو. . الرحيل عن هنا. .».

وهتفت «نجلاء» فى ذعر:

- «الرحيل؟».

- «أجل. .».

- «مستحيل. . سأكون طوع بنانك، ولن أرتكب مخالفة بعد

اليوم» . . لم تكن نجلاء تتصور أنها قادرة على الرحيل، بالأمس كانت تتعلق آمالها فى النضال المستميت، وتحرير وطنها، والانتقام من الذين غدروا بها، واليوم هى أشد ما تكون تشبثًا بمواصلة النضال، إنها تنتصر، وقلبها يستيقظ. . ولهذا أصبحت كلمة «الرحيل» ناقوس خطر يزعجها، ويصيب أمانيها وأحلامها بالشلل، وتركها القائد، وقد استراح إلى حديثها، ورجوعها إلى الصواب، ثم ذهب إلى صالح بدران. كان صالح يقف مربد الوجه، مقيد اليدين والساقين، وما إن رأى القائد حتى اعتدل فى وقفته، وشد قامته، ووقف فى وضع «انتباه» ناقص، وقال القائد فى لهجة صارمة:

- «لم أكن أتصور أن تفعل ذلك!! هل تحولت عن طباعك» .

- «كنت أسمع أبى يقرأ الآية الخالدة: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] فلا أدرك معناها. . اليوم فقط تيقنت أن فى القصاص حياة. . لو فعلنا بهذا المدعو «ليفى» أبشع الأفاعيل لما استطعنا القصاص منه كما يجب. . هؤلاء الجبناء يعاملون أسرانا بوحشية، ولا يرحمون الجماهير العزل عن السلاح. . كان يجب أن نعاملهم بالمثل. . » .

قال القائد، ورنة الحزم تتبدى فى حديثه:

- «أولياء الأمور وحدهم هم الذين يحددون مسألة القصاص ويبتون فيها، وإلا تحول الأمر إلى فوضى. . » .

واستراحت نفس القائد وانفرجت أساريره حينما سمع صالح يقول:

- «هذا حق..».

- «أتقولها مجرد ترضيه؟».

- «عار عليّ أن أخدعك..».

- «حسنًا.. كلمتي الأخيرة هي: إما الطاعة أو ترحل عن هنا..» وأزعجته كلمة الرحيل، إنه يفعل أي شيء إلا أن يرحل عن رفاق المعركة، والجهاد الشريف الذي ضحى من أجله بكل غال، ولمعت في ذهنه عند ذاك أيضًا صورة نجلاء، فارتجف جسده، وقبل أن يتكلم قال القائد:

- «أيهما تختار؟».

- «الطاعة..».

- «هذا ظني.. ما زلت أثق فيك، وأقدر رجولتك وبسالتك.. والآن دعني أفك هذه الحبال، وأحرر ساقيك وقدميك..».

- «أشكرك..».

وبينما كان القائد يفك وثاق صالح، ويتبادل معه الأحاديث الباسمة، مخففًا عنه أثر العنف الذي عامله به، أتى أحد الجنود مهرولاً وقال:

- «سيدى القائد . . عربة الجيب مستعدة لنقل الجرحى . . والجاويش الصهيونى «ليفى» قد مات . . » .

وهتف القائد :

- «مات؟ كيف؟» .

- «كانت إصابته خطرة . . لم يؤذه أحد . . » .

وتبادل القائد وصالح النظرات الصامتة العامرة بكل المعانى، وتمتم القائد :

- «أرأيت؟ لقد أراد الله أن ينتهى أمره . . وتنتهى المشكلة . . » .

●●●

الفصل الخامس والعشرون

حينما تسلم القائد رسالة بالشفرة من القيادة العامة، لم يطوها في جيبه، بل سار توآ إلى حجرته وفك رموزها، وذهل وهو يقرأ آخر الأوامر الصادرة إليه: «أوقفوا العمليات. لا تتقدموا.. لكن حافظوا على مواقعكم حتى الموت، ولا تتراجعوا عن شبر واحد منها للعدو.. انتظروا أوامر جديدة..». وكان في الإمكان أن تمر هذه الرسالة كما مر غيرها، إذ سرعان ما تتغير الأوامر وتبدأ العمليات من جديد.. لكن القائد يشعر هذه المرة بقلق لا يعرف مصدره، قلبه يحدثه بكارثة لم يتحقق منها، ليست هي المرة الأولى التي يخضع فيها لتأثير إرهاصات غامضة لا يدري كنهها، حياته مليئة بهذه التنبؤات منذ أن بدأ الكفاح ضد الطغيان في وطنه مصر، ومنذ أن ساهم في معارك حرب العصابات في القنال، وبعد أن جاء أيضًا إلى هذه الأرض المقدسة.. ومع ذلك فإن القائد يحاول جاهدًا أن يقهر هذا الخوف المبهم، دائمًا يتشبث بأهداب الأمل، وينظر إلى الجوانب المشرقة في حياته، لعل إشراقها يبدد ظلمات القلق والخوف.. وكان القائد يعد العدة لهجوم جديد كان

لا بد منه لاحتلال موقع قريب سوف يضمن له ولرجاله الأمان والحماية، بقدر ما يضعف فى جبهة العدو وينقص من رقعته، ويدع ثغرة خطرة فى خط دفاعه. . وجاءت نجلاء تقول:

- «أرجو ألا تحرمنى من المشاركة فى هجوم الغد. .».

وقال صالح باسمًا:

- «كلما اقتربنا من «تل أبيب» أحسست بفرحة غامرة. .».

وقال خميس شاهين:

- «وفى «تل أبيب» وسائل الراحة ميسرة لأبعد حد. .».

وبقى القائد صامتًا فترة، ثم رفع عينين يبدو فيهما الشك والحيرة وقال:

- «لا هجوم. .».

فهتفوا بصوت واحد:

- «كيف؟».

- «أوامر القيادة العليا. .».

- «ما السر؟».

- «هذا ما لا أعرفه. .».

وصاح صالح بدران قائلاً فى ثقة:

- «لا شك أن هناك خطة موحدة بين قوات القطاع كله للإجهاز

على «تل أبيب»، وهذا هو السبب فى توقف الهجوم. . ».

وعلقت نجلاء:

- «هو ذاك، لكن أرجو ألا يطول جمودنا فى مواقعنا. . ».

وهمس القائد:

- «العلم عند الله. . ».

وأردف خميس فى سخرية:

- «وعند من بيدهم الأمر. . ».

ومع الليل وردت أنباء خطيرة، لقد أتى «كنعان» رقم ٩ صاحب الأصبع المبتور، وألقى كلمة السر ثم طلب مقابلة القائد فورًا، ولم ينم القائد فى تلك الليلة لقد حرمه القلق لذة الإغفاء. فجلس على مقعده، ناشرًا أمامه خريطته لفلسطين، متنقلا ببصره عبر قطاعاتها المختلفة، ومدنها وقراها، كان يريد أن يشغل وقته بأى شىء، ومن يدرى قد تصدر أوامر جديدة ينشرح لها صدره، وتبدد ما استبد به من قلق وحيرة، وعندما رأى كنعان التابع لجهاز المخابرات، ردت إليه الروح، قد يحمل كنعان إليه أنباء تريحه وتبعث فى قلبه الاطمئنان، لكن كنعان كان كابى النظرات، يحلل الحزن خطواته المتعثرة المتعجلة، وألقى كنعان التحية، واستأذن فى الجلوس، وسحب أقرب مقعد إليه وألقى بجسده المتعب عليه وهو يلهث، ولم يطق القائد صبرًا، فقد هتف:

- «ماذا جرى؟ الأوامر الجديدة لا تتفق والموقف الراهن . . ».

- «أعرف ذلك . . ».

- «أصبح الطريق إلى«تل أبيب» شبه مفتوح . . ».

وران عليهما الصمت لدقيقة وقال كنعان بعدها :

- «الخيانة حركت رأسها أمس . . وارتكبت جريمة كبرى خلف ظهوركم . . ».

وهب القائد واقفًا ، وهدر فى انفعال :

- «كيف حدث ذلك؟».

وروى كنعان أنباء مثيرة لم يصدقها القائد لأول وهلة ، كان يستمع إليها فى ذهول ، فكيف يصدق أن الجبهة الأردنية قد سلمت «اللد والرملة» للأعداء دون معركة حقيقية ، وانسحبت تاركة السكان الآمنين فريسة فى يد الحقد الصهيونى الأسود؟! واستطرد كنعان فى سرد التفاصيل ، المذابح التى أجراها اليهود فى «اللد والرملة» القتل بالجملة ، الاعتداء على الأنفس والعرض والمال . . البيان الحربى الهزيل الذى أذاعه «جلوب باشا» عن الانسحاب طبقًا «لخطة مرسومة»!! تسلل اليهود إلى مواقع خلفية وتهديدهم لزحف القوات المتقدمة نحو «تل أبيب» . .

وتمتم القائد :

- «هذه هى قمة المأساة . . » .

غير أن كنعان قال وهو يبتسم فى مرارة قاتلة :

- «كلا . . هذا أمر بسيط . . الأخطر منه . . الهدنة . . » .

واقترب القائد منه وأمسك بكتفه فى جنون وصرخ :

- «الهدنة؟» .

- «أجل . . » .

- «ماذا تعنى؟؟ كيف تحدث عن الهدنة ونحن ندق أبواب «تل أبيب» ونكاد نجهز على السرطان الصهيونى؟ إن أتفه الناس تفكيراً لا يمكن أن يفكر فيها . . » .

- «أصبحت الهدنة الأمل الوحيد لإسرائيل، لأنها ستحفظ ماء وجههم، وتعطيهم فرصة للاستعداد واسترداد أنفاسهم، وإعادة النظر فى القضية على ضوء التطورات الجديدة، ووضعت مؤامرة أخيرة لحسم الموقف فى صالح الصهيونية والاستعمار» .

قال القائد :

- «ولذلك فإن حديث الهدنة خرافة . . وخيانة» .

- «ستعقد هدنة . . » .

- «أنت تهذى يا كنعان . . » .

- «ستعقد هدنة . . أقول لك . . الملك عبدالله قبلها وأعلن

استعداده لتوقيعها . . لم يدخل الملك الحرب لتحرير فلسطين ولكن لاقتطاع جزء يوسع به مملكته القاحلة ، وليلعب دور الخيانة فى الصف العربى ، فيميع المعركة . . إما الهدنة وإما خلاف خطير يدب فى صفوف العرب ، وقد يقع بينهم صدام دموى . . وفى الحالتين ستستفيد «إسرائيل . . » .

وتمتم القائد فى ذهول :

- «وقف العمليات . . لا تتقدموا . . الخيانة . . جلوب باشا . . الطريق إلى تل «أبيب» . والتفت القائد إلى كنعان وقال وهو يفرك يديه فى عصبية ظاهرة» :

- «وما جزاء الملك الخائن؟» .

- «القتل . . » .

- «بالضبط . . » .

- «سنفعلها . . بل سنفعلها بكل خائن ، يتنكر للقضية الكبرى ، ويمزق وحدة الصف العربى ، ويمد يده الآثمة ليصافح العدو ، أو يشرب معه نخب الخيانة فى جماجم الشهداء . . إن أبشع صفقة يا سيدى هو الاتجار بدم الشرفاء . . » .

وانتشر الخبر المشئوم ، وخيم على الجنود أسى حزين ، وبدت المستعمرات الصهيونية من بعيد كمجموعة من العاهرات عرايا فى تبجح وصفاقة ، وانتثرت القرى العربية على مدى البصر كقطع من

الضـبـاب الداكن. وارتعـشت رءوس النخـيل كـأنهـا عـمـالقـة ينوحون . .

وثارت عاصفة من المناقشات الحادة. . فمن قائل: إن حديث الهـدنة حـديث خـرافـة ؛ لأن الهـدنة فى هذا الوقت عـار وجـريمـة وغـباء، ولن يجـرؤ ملك عـربى أن يعلنها لأن فـيهـا فناءه وسـحق عـرشه، ومن قائل: إن نسبـة الشك كبيرة، ولا حل سوى أن نوجه رصـاص مـدافعنا إلى صـدور الذين يغـدرون بقـضـيتنا المقـدسـة؛ وطائفة ثالثة تقول ليس علينا سوى الاعتصام بالصبر، فقد تنكشف الغمة، وتجد أحداث ضـخمة، تغير مجرى الأمور، وتكون فى صـالحنا . . وألقى الرجـال بأجـسـادهـم على فـراش كـالشـوك . وأغمضوا عيونهم على رؤى مخيفة مهولة، وطووا صدورهم على جمرات من النقـمة لا يهدأ لها أوار . . وانتظروا الغد والغد مجهول والانتظار عذاب . .



الفصل السادس والعشرون

وقبلت إسرائيل الهدنة، وقبلها ملوك العرب ورؤساؤهم، بعضهم كان استجابة لرغبة الاستعمار، والبعض الآخر قبلها خوفًا من تصدع الصف، وتشتت السبل بهم، ودقت طبول السلام الحزين، أجل.. السلام الذى جاء على أنقاض الحق الضائع، السلام الذى أراد لشعب بأسره أن يتشرد، وأراد لعصابة بلغية من الصهيونيين أن تسرق وطنًا.. كان سلامًا زائفًا كاذبًا، بل مؤامرة دنيئة لوقف الزحف المقدس الذى يطوق «تل أبيب»، ويوشك أن يضع النهاية العادلة لمأساة دامية، ويرد الحقوق لأصحابها، لم يكن فى الحقيقة سلامًا لكنه كانت هزيمة مفروضة من قبل القوى الاستعمارية، هزيمة ارتضاها حكام العرب.. لا ضعفًا وعجزًا وتراجعًا فى المعركة - بل خيبة وسوء تصرفات أمام الضغط الخارجى..

وتوقفت الحرب والجهاد المقدس..

وتوقف أيضًا قلب أبى نجلاء، إذ وردت برقية إلى «طولكرم» تقول: إنه فوجئ بنوبة قلبية بعد سماعه أنباء الهدنة، ومات على

الفور في المسجد الأقصى . . وقالت نجلاء وعيناها مغرورقتان بالدموع :

- يا لمصيبتى ! ! مات أبى . . وماتت أمنياتى فى العودة . . لم يبقَ لى شىء فى الحياة . . يا إلهى ! ! لماذا لم أقضِ نحبى أنا الأخرى . . أصبحت الحياة عذابًا ومرارة دائمة . . » .

فرد القائد القصير ذو اللحية السوداء، ودموعه تنهمر فى غزارة لأول مرة :

- «ولم تمت أمنياتنا يا ابنتى . . والمعركة لم تنتهِ فستظل دائرة حتى يعود الحق لأهله . . الهدنة أكذوبة لن تعيش طويلاً . . وإسرائيل هى الأخرى أكذوبة كبرى لا تقوم على أساس من المنطق أو العدل . . وإذا كانت الخيانة قد أوقفت الزحف إلى حين، فليس معنى ذلك أن تبقى الخيانة خالدة . . إنها وباء طارئ . . وسنقضى على جرثومته بالحكمة والإصرار والإيمان الذى لا يتزعزع . إن شعوبنا اليوم تغلى كبركان يوشك أن ينفجر . . وسينفجر البركان ذات يوم فى مصر . . وفى دمشق وعمان وبغداد وغيرها، ويومها سيتغير وجه الخيانة وتتولى مقاليد الأمور أيد نظيفة فنية . . ترفع أعلام الثورة، وتحطم فواصل العزلة والفرقة بين أمتنا العربية . . وتجعلها أمة عربية واحدة، لها هدف واحد ووسيلة واحدة . . ويومها تتحرر فلسطين . . كما تحررت من أيدى الصليبيين فى الماضى . . ويومها تعودين يا نجلاء إلى «حيفا» عزيزة مكرمة . . ألم أقل لكم ذات يوم لسوف تكون هذه المأساة ناقوسًا يوقظ النيام فى

الأرض العربية . . ألم أقل لكم إن من أرض المأساة هذه ستنبت قيم ومبادئ جديدة . وجيل من الشباب جديد ، جيل يتحرق شوقًا إلى الحرية والعدالة . . جيل الثورة يا فتاتي . . لقد سمعت أمس أن ضباط الجيوش النظامية ، وخاصة في الجبهة المصرية كادوا يتمردون على أوامر وقف إطلاق النار . . كادوا يعلنون العصيان . . لكن بعض رفاقهم نصحوهم بالصبر . . وفي الفالوجة يا إخواني أبدى الضباط بسالة ووعيًا غريبين ، إن هناك رجالاً يطوون صدورهم على أمنيات لن تموت ، فالأمنيات الكبيرة تعيش ف قلوب الأحرار الشرفاء وهم خير الأمناء على تراث هذه الأمة الخالدة . . » .

وساد الصمت في تلك اللحظات الحاسمة التي لن تنسى . .

وترقرت الدموع في عيني صالح بدران . . وانهمرت أيضًا على خد خميس شاهين . . وألقت نجلاء بجسدها المنهك على الأرض وهي عاجزة عن أن تبكي أو تتكلم . . كانت نظراتها الشاردة تهيم في الأفق البعيد . . لعلها تبحث عن حلمها المغيّب وراء التلال . . عن حيفا والذكريات .

وعاد القائد يقول :

- «جففوا دموعكم يا رفاقي . . . فالهدنة مرحلة من مراحل الكفاح . . لكنها ليست نهاية . . آمنوا بذلك . . وثقوا أنكم عائدون يومًا إلى المعركة ، وعائدون إلى الديار السليبة . . وأقسم لكم إنها لن تكون هدنة . ستندلع النيران ضد الطغاة في مصر وستشعل

الثورة فى بغداد، وستكون حربًا أخرى مقدسة لتطهير جبهاتنا الداخلية وحياتنا السياسية والاجتماعية من الفساد والانتهازية، وبعدها نعود إلى المعركة الكبرى أكثر قوة وثقة وإيمانًا، ونعود وليس وراء ظهورنا خيانة تدبر، نعود بقيادات جديدة، وإصرار عنيد، يظللنا علم الوحدة.. وعند ذاك سيكون النصر أكيدًا أيها الإخوان.. بإذن الله..».

وصرح صالح بدران فجأة:

- «كيف نترك المعركة دون نتيجة حاسمة؟! لن أغادر هذا المكان إلا منتصرًا أو ميتًا..».

واختطف مدفعه فى جنون، وجرى فى الطريق المؤدى إلى «تل أبيب» وصاحت نجلاء وقد فارقها ذهولها:

- «أدركوه، إنه ينتحر..».

وجرى خلفه رفاقه، وأحاطوا به من كل جانب، وعندما وجدهم يسدون عليه الطريق من كل مكان، صرخ ثانية:

- «دعونى، وإلا أطلق عليكم الرصاص..».

كان يتصرف بلا عقل، وبريق عجيب مجنون يتراقص فى عينيه، وهتف القائد فى رقة:

- «كن عاقلاً.. إنهم إخوانك.. استغفر الله وعد إلى رشدك يا صالح..».

- «لو اقترب أحدكم منى لأطلقت الرصاص فوراً . . » .

كان يقف وسط الحلقة، مرهف الحواس لا يعى شيئًا مما يفعل ولم يكن مستبعداً أن يقدم على حماقة من الحماقات، وقال القائد :

- «نحن فى حاجة إليك . . » .

- «كيف أعود إلى بيتى بلا نصر؟!» .

- «سننتصر يومًا ما . . » .

- «إنكم تخدرون حماستى . . » .

وهمس خميس شاهين فى أذن نجلاء :

- «ستحسمين الموقف . . تقدمى أنت إليه . . » .

- «كيف؟» .

- «أنت تعلمين . . إنه يحبك . . ولن يمسك بسوء . . » .

ومن خلال الصمت العاصف، والتوتر العنيف نادت نجلاء :

- «صالح . . أنا قادمة إليك . . تستطيع أن تقتلنى . . » .

وحاول القائد أن يمنعها فقالت فى إصرار :

- «دعنى . . . » .

وصاح صالح بدران وقد رآها تقبل نحوه :

- «ارجعى . . » .

- «كلا . . .» .

- «سأضرب» .

- «هذا ما أريده . . لم يبقَ لى أحد . . مات أبى . . أسرتى فنيت عن آخرها . . وأريد اللحاق بهم . . هيا أطلق الرصاص هيا . . لماذا تجمدت؟» .

كانت تقترب، وكان تشنجه وعضلاته المقتبضة تنبسط رويدًا رويدًا، وملامحه ترق، ونظراته تتبدل، وينبثق منها الحب والحنان، وما إن اقتربت منه حتى وقع المدفع من يده، وفتح ذراعيه فى الهواء لقد نسى كل ما حوله، ثم طوقها بذراعيها متشبثًا بها، وهو يغمغم :

- «حبيبتى . . ستعودين يومًا إلى حيفا . . لكننا اليوم سنتجه معًا إلى القاهرة . . سنتزوج أتفهمين؟ أنت لى . . أنت رمز الأرض المقدسة الغالية التى أحببتها من كل قلبى . . » .

وغمغمت وهى تمسح دموعها فى صدره وتقاوم الخجل والحرج اللذين يطبقان عليها :

- «أنت لى . . أنا أنت . . وسأعود معك إلى القاهرة . . » .

- «ومن القاهرة يا حبيبتى ستنطلق الثورة . . وترفع شعارات الحرية والخلاص والوحدة، ومنها ستزحف الجنود يقودها رجل كصلاح الدين . . ويفتح الطريق أمامنا إلى حيفا وتل أبيب . . » .

- «بإذن الله . . ».

وأفاقت نجلاء إلى نفسها، وهمست فى أذن صالح :

- «إنهم واقفون . . ».

وعندما تطلعت أبصارهم إلى إخوانهم لم يجدوا أحدًا، لقد عادوا إلى أماكنهم وتركوهما وحدهما، وعاد صالح ينظر إليها فى رقة وحنان ويقول :

- «ولسوف نعقد قراننا فى طولكرم . . ».

- «أمرك . . ».

- «وسيكون قائدنا الشجاع وخميس شاهين شاهدى العقد».

قالت نجلاء وهى تبتسم ابتسامة يخالطها أسى لن يزول :

- «وسيغار خميس منا . . فقد كان يشتهى - دون شك - أن تكون ضحى هنا ويفعل ما فعلناه . . ».

وهمس فى شرود :

- «وسننجب جيلاً جديدًا . . يكون أسعد حظًا منا، وأشد إيمانًا بالخلاص والثورة . . ».

وخفضت نجلاء رأسها فى حياء وصمتت . .

***

وبعد ساعة كانت القوات النظامية قد قدمت واحتلت المواقع

الأمامية خلف خط الهدنة، ومن بعيد ظهرت قوات الأمم المتحدة التى ستقوم مراكزها فى المنطقة الحرام بين القوات العربية والقوات الصهيونية . .

وصدرت الأوامر للمتطوعين بالعودة إلى بلادهم فوراً، أما القائد القصير ذو اللحية السوداء، فقد حملوه فى عربة خاصة مقبوضًا عليه، كى يرحل إلى أحد السجون المصرية لخطورته على الأمن . . أعنى . . لبطولته الخارقة فى ميدان الشرف والجهاد المقدس . . ولنواياه السيئة تجاه أداة الحكم الفاسدة التى طعنت شرف النضال فى أحرج ساعات المعركة . .

وبالتأكيد لن يكون السجن مقبرة للأحرار، بل سيكون مدرسة أخرى لتخريج الطليعة الثورية التى سوف تبشر بالقيم الجديدة الحرية . . والعدالة . . والحب . . والوحدة . . وعودة الوطن السليب . .

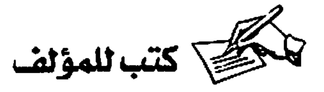
نجيب الكيلانى



فهرس

الموضوع	الصفحة

ooo



كتب للمؤلف

روايات:

- الطريق الطويل . . جائزة وزارة التربية (طبعة ثالثة) .
- فى الظلام . . جائزة وزارة التربية .
- عذراء القرية .
- ليل الخطايا . .
- طلائع الفجر . . تكملة القصة بدأها الرئيس جمال عبد الناصر . .
- اليوم الموعود . . جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (طبعة ثالثة) .
- رأس الشيطان .
- أرض الأنبياء .
- الذين يحترقون .
- يوميات الكلب شملول .

مجموعات القصص القصيرة:

- موعدنا غداً . . جائزة نادى القصة وميدالية طه حسين الذهبية .
- دموع الأمير .

- العالم الضيق . .

دراسات:

- إقبال الشاعر الثائر . . جائزة وزارة التربية .

- شوقي في ركب الخالدين . . جائزة وزارة التربية .

- المجتمع المريض . . جائزة وزارة التربية .

- الطريق إلى اتحاد إسلامي . .

- الإسلامية والمذاهب الأربعة . .

مسرحيات:

- على أسوار دمشق . . مسرحية تاريخية .

شعر:

- نحو العلا .

- أغاني الغرباء .

